بدائع التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية

جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه
يسري السيد محمد

المجلد الرابع

دار ابن الجوزي

الطبعة الأولى

ربيع الثاني ١٤١٤هـ
١٩٩٣م



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الدمام : شارع ابن خلدون - ت : ٨٤٢٨١٤٦
ص.ب : ٢٩٨٢ - الرمز البريدي : ٣١٤٦١ - فاكس : ٨٤١٢١..
الاحساء : الهفوف - شارع الجامعة - ت : ٥٨٢٣١٢٢
الرياض - ت : ٤٣٥١٠٠٢
جدة - ت : ٦٥١٦٥٤٩

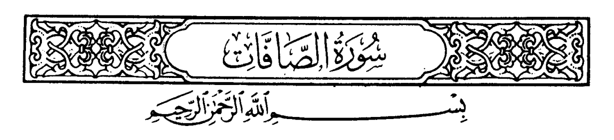
بدائع التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية



سُورَةُ الصَّافَّاتِ





بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴾ [الصافات : ١] .

أقسم سبحانه بملائكته الصافات للعبودية بين يديه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ألا تصفُّون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ تتمون الصفوف الأولى ، وتراصون في الصف »[1] . وكما قالوا عن أنفسهم ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾ [الصافات : ١٦٥]. والملائكة الصافات أجنحتها في الهواء. والزاجرات: الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله ﴿ **فالتاليات** ﴾ التي تتلو كلام الله .

وقيل : الصافات الطير : كما قال تعالى : (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن) [تبارك : ١٩] . وقال تعالى : (والطير صافات) [النور : ٤١] . والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله ، والتاليات الجامعات لكتاب الله تعالى وقيل : الصافات للقتال في سبيله فالزاجرات الخيل للحمل على أعدائه ، فالتاليات الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم . وقيل : الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة ، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله . فالتاليات آياته واللفظ يحتمل ذلك كله ، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى الملائكة . فإن الإقسام كالدليل ، والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد ، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة وبواسطتها كان .

---

(١) رواه مسلم (٢ / ٧٤ - ٧٥) في الصلاة باب : الأمر بالسكون في الصلاة .
والنسائي (٢ / ٩٢) في الإمامة ، باب : حث الإمام على رص الصفوف .
وأبو داود (٢ / ٣٦١) في الصلاة ، في أول تفريع أبواب الصفوف .

وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلٰهيته وقرر توحيد ربوبيته . فقال : ﴿ **إن إلهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق** ﴾ [الصافات : ٤،٥] . من أعظم الأدلة على أنه إله واحد ولو كان معه إله آخر لكان الإله مشاركاً له في ربوبيته ، كما شاركه في إلٰهيته تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلٰهية بتوحيد الربوبية ، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده وخص المشارق هاهنا بالذكر إما لدلالتها على المغارب ، إذ الأمران المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر ، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب ، وجعلها حفظا من كل شيطان فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق . والله تعالى أعلم[1]

قال تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات : ٦،٧] .

فجعل المصابيح زينة لظاهرها ولباطنها بالحراسة من الشياطين فهي زينة الظاهر والباطن[2] .

قال تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الصافات : ٢٢]

قال الإمام أحمد وقبله عمر بن الخطاب : (أزواجهم)أشباههم ونظراءهم وقال تعالى : (وإذا النفوس زوجت) [التكوير : ٧] .

روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال : يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار[3] .

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٧ – ٤٢٨) .
(٢) الصواعق المرسلة (١٣٧٧/٤) .
(٣) انظر تفسير الطبري (٢٣ / ٤٦) .

وقال الحسن وقتادة : يلحق كل امرئ بشيعته اليهودي باليهودي والنصراني بالنصراني .

وقال الربيع بن خثيم : يحشر الرجل مع صاحب عمله .

وفي الآية ثلاثة أقوال أخر .

أحدها : أن تزويج النفوس اقترانها بأجسادها وردها إليها .

الثاني : تزويجها اقترانها بأعمالها .

الثالث : أنه تزويج المؤمنين الحور العين وتزويج الكفار بالشياطين . والقول الأول أظهر الأقوال . والله أعلم ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1] .

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات : ٣٥-٣٧] .

أي مجيئه تصديق للرسل قبله فإنهم أخبروا بمجيئه فجاء كما أخبروا به فتضمن مجيئه تصديقهم ثم شهد هو بصدقهم بقوله ومجيئه ومحمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله بين يدي الساعة كما قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى[2] وكان إذا ذكر الساعة علا صوته واحمر وجهه واشتد غضبه وقال : « أنا النذير العريان »[3] فأخبر عن الأمور التي تأتي في المستقبل بما لم يأت به نبي من الأنبياء كما نعته به المسيح حيث قال : (إنه يخبركم بكل ما يأتي) ولا يوجد مثل هذا أصلا عن أحد من الأنبياء قبل محمد صلى

(١) طريق الهجرتين (٣٩٦) .

(٢) رواه مسلم (٢ / ٥١٧) في الجمعة ، باب : خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في الجمعة . والنسائي (٣ / ١٨٨) في الجمعة ، باب : كيف الخطبة .

(٣) رواه البخاري (١١ / ٣٢٢) في الرقاق باب : الانتهاء عن المعاصي . ومسلم (٥ / ١٤٦) في الفضائل ، باب : شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته .

الله عليه وسلم فضلا عن أن يوجد عن شيء نزل على قلب بعض الحواريين[١] .

وهذا أحد المعنيين في قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات : ٣٦،٣٧] .

أي مجيئه تصديق لهم من جهتين : من جهة إخبارهم بمجيئه وبعثه ومن جهة إخباره بمثل ما أخبروا به ومطابقة ما جاء به لما جاءوا به فإن الرسول الأول إذا أتى بأمر لا يعلم إلا بالوحي ثم جاء نبي آخر لم يقارنه في الزمان ولا في المكان ولا تلقى عنه ما جاء به وأخبر بمثل ما أخبر به سواء ، دل ذلك على صدق الرسولين الأول والآخر ، وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر أحدهما بخبر عن عيان ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته بحيث يعلم أنه لم يجتمع به ولا تلقى عنه ولا عمن تلقى عنه فأخبر بمثل ما أخبر به الأول سواء فإنه يضطر السامع إلى تصديق الأول والثاني .

والمعنى الثاني : أنه لم يأت مكذباً لمن قبله من الأنبياء مزرياً عليهم كما يفعل الملوك المتغلبون على الناس بمن تقدمهم من الملوك بل جاء مصدقاً لهم شاهداً بنبوتهم ولو كان كاذباً متقولاً منشئاً من عنده سياسة لم يصدق من قبله بل كان يزري بهم ويطعن عليهم كما يفعل أعداء الأنبياء[٢] .

قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات : ٥٠-٥٧] .

أخبر سبحانه وتعالى أن أهل الجنة ، أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال كانت في الدنيا ، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة ، إلى أن قال قائل منهم : إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار

(١) هداية الحيارى (١٠١ – ٢،١) .
(٢) إغاثة اللهفان (٢/٣٥٠ – ٣٥١) .

الآخرة ، ويقول ما حكاه الله عنه يقول : أإنك لمن المصدقين بأنا نبعث ونجازى بأعمالنا ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلى وكنا تراباً وعظاماً ، ثم يقول المؤمن لإخوانه في الجنة هل أنتم مطلعون في النار لننظر منزلة قريني هذا وما صار إليه وهذا أظهر الأقوال . وفيها قولان آخران :

أحدهما : أن الملائكة تقول لهؤلاء المتذاكرين الذين يحدث بعضهم بعضاً : هل أنتم مطلعون ؟ رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : أنه من قول الله عز وجل لأهل الجنة يقول لهم : هل أنتم مطلعون ؟ والصحيح القول الأول . وأن هذا قول المؤمن لأصحابه ومحادثيه ، والسياق كله والإخبار عنه وعن حال قرينه قال كعب : بين الجنة والنار كوى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له في الدنيا اطلع من بعض تلك الكوى .

وقوله : واطلع ، أي أشرف . قال مقاتل : لما قال لأهل الجنة : هل أنتم مطلعون ؟ قالوا له أنت أعرف به منا ، فاطلع أنت فأشرف فرأى قرينه في سواء الجحيم ، ولولا أن الله عرفه إياه لما عرفه ، لقد تغير وجهه ولونه وغيره العذاب أشد تغيير ، فعندها ﴿ **قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين** ﴾ . أي إن كدت لتهلكني ولولا أن أنعم الله علي بنعمته لكنت من المحضرين معك في العذاب[1] .

أما سائر الأنبياء والمرسلين فيصلي عليهم ويسلم قال تعالى عن نوح : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ٧٨-٨٠] . وقال عن إبراهيم خليله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات : ١٠٨-١٠٩] . وقال في موسى وهارون : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الصافات : ١١٩-١٢٠]. وقال : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٠] . فالذي تركه سبحانه

---

(١) حادي الأرواح (٢١٠) .

على رسوله في الآخرين هو السلام عليهم المذكور .

وقد قال جماعة من المفسرين ، منهم مجاهد وغيره : ﴿ **وتركنا عليهم في الآخرين** ﴾ الثناء الحسن ولسان الصدق للأنبياء كلهم . وهذا قول قتادة أيضاً ولا ينبغي أن يحكي هذا قولان للمفسرين كما يفعله من له عناية بحكاية الأقوال ، بل هما قول واحد . فمن قال : إن المتروك هو السلام عليهم في الأخرى نفسه فلا ريب أن قوله ﴿ **سلام على نوح** ﴾ جملة في موضع نصب بتركنا ، والمعنى أن العالمين يسلمون على نوح ومن بعده من الأنبياء ، ومن فسره بلسان الصدق والثناء الحسن نظر إلى لازم السلام وموجبه وهو الثناء عليهم وما جعل لهم من اللسان الصدق الذي لأجله إذا ذكروا سلم عليهم .

وقد زعمت طائفة منهم ابن عطية وغيره : أن من قال تركنا عليه ثناء حسناً ولسان صدق كان ﴿ **سلام على نوح** ﴾ في العالمين جملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب . وهو سلام من الله سلم به عليه ، قالوا : فهذا السلام من الله أمنة لنوح في العالمين أن يذكره أحد بشر ، قال الطبراني : وقد يقوي هذا القول أنه سبحانه أخبر أن المتروك عليه هو في الأخرى وأنه المسلم عليه في العالمين وبأن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أبقى الله عليه ثناء حسناً .

وهذا القول ضعيف لوجوه :

أحدها : أنه يلزم منه حذف المفعول لـ « تركنا » ، ولا يبقى في الكلام فائدة على هذا التقدير ؛ فإن المعنى يؤول إلى أنا تركنا عليه في الآخرين أمراً لا ذكر له في اللفظ لأن السلام عند هذا القائل منقطع بما قبله لا تعلق له بالفعل .

الثاني : أنه لو كان المفعول محذوفاً كما ذكره لذكروه في موضع واحد ليدل على المراد منه عند حذفه ولم يطرد حذفه في جميع من أخبر أنه ترك عليه في الآخرين الثناء الحسن ، وهذه طريقة القرآن ، بل وكل كلام فصيح أن يذكر الشيء في موضع ثم يحذفه في موضع آخر لدلالة المذكور على المحذوف . وأكثر ما تجده مذكوراً وحذفه قليل ، وأما أن يحذف حذفاً مطردا ولم يذكره في موضع واحد ولا في اللفظ ما يدل عليه ، فهذا لا يقع في القرآن .

الثالث : أن يقرأ ابن مسعود (وتركنا عليه في الآخرين سلاما) بالنصب وهذا يدل على أن المتروك هو السلام نفسه .

الرابع : أنه لو كان السلام منقطعاً مما قبله لأخل ذلك بفصاحة الكلام وجزالته ولما حسن الوقوف على ما قبله . وتأمل هذا بحال السامع إذا سمع قوله : ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين** ﴾ كيف يجد قلبه متشوفاً متطلعاً إلى تمام الكلام واجتناء الفائدة منه ولا يجد فائدة الكلام انتهت وتمت ليظهر عندها بل يبقى طالباً تمامها وهو المتروك فالوقف على ﴿ **الآخرين** ﴾ ليس بوقف تام (فإن قيل) : فيجوز حذف المفعول من هذا الباب لأن ترك هنا في معنى أعطى ، لأنه أعطاه ثناء حسناً أبقاه عليه في الأخرى ويجوز في باب « أعطى » ذكر المفعولين وحذفهما والاقتصار على أحدهما وقد وقع ذلك في القرآن كقوله (إنا أعطيناك الكوثر) [الكوثر : ١] . فذكرهما وقال : (فأما من أعطى) [الليل : ٥] فحذفهما وقال : (ولسوف يعطيك ربك) [الضحى : ٥] . فحذف الثاني واقتصر على الأول . وقال : (ويؤتون الزكاة) [المائدة : ٥٥] . فحذف الأول واقتصر على الثاني .

قيل : فعل الإعطاء فعل مدح لفظه دليل على أن المفعول المعطى قد ناله عطاء المعطي ، والإعطاء إحسان ونفع وبر ، فجاز ذكر المفعولين وحذفهما والاقتصار على أحدهما بحسب الغرض المطلوب من الفعل ، فإن كان المقصود إيجاد ماهية الإعطاء المخرجة للعبد من البخل والشح والمنع المنافي للإحسان ذكر الفعل مجرداً ، كما قال تعالى : (فأما من أعطى واتقى) [الليل : ٥] . ولم يذكر ما أعطى ولا من أعطى . وتقول : فلان يعطي ويتصدق ويهب ويحسن . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت »[1] لما كان المقصود بهذا تفرد الرب سبحانه بالعطاء والمنع لم يكن لذكر المعطي ولا لحظ المعطى معنى. بل المقصود أن حقيقة العطاء والمنع إليك لا إلى غيرك بل أنت المتفرد بهذا لا يشركك فيها أحد ، فذكر المفعولين هنا يخل بتمام المعنى وبلاغته وإذا كان

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٢ / ٣٧٨) في الأذان ، باب : الذكر بعد الصلاة . ومسلم (٢ / ١١٥) في الصلاة ، باب : ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ، ورواه غيرهما .

المقصود ذكرهما ذكرا معاً كقوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر) [الكوثر : ١] . فإن المقصود إخباره لرسوله صلى الله عليه وسلم بما خصه به وأعطاه إياه من الكوثر ، ولا يتم هذا إلا بذكر المفعولين وكذا قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ [الإنسان : ٨] . وإذا كان المقصود أحدهما فقط اقتصر عليه كقوله تعالى : (ويؤتون الزكاة) [المائدة : ٥٥] . المقصود به أنهم يفعلون هذا الواجب عليهم ولا يهملونه ، فذكره لأنه هو المقصود وقوله عن أهل النار : (لم نك من المصلين و لم نك نطعم المسكين) [المدثر : ٤٣-٤٤] . لما كان المقصود الإخبار عن المستحق للإطعام أنهم بخلوا عنه ومنعوه حقه من الإطعام وقست قلوبهم عنه كان ذكره هو المقصود دون ذكر المطعوم ، وتدبر هذه الطريقة في القرآن وذكره للأهم المقصود وحذفه لغيره يطلعك على باب من أبواب إعجازه وكمال فصاحته .

وأما فعل الترك فلا يشعر بشيء من هذا ولا يمدح به فلو قلت : فلان يترك لم يكن مفيداً فائدة أصلاً بخلاف قولك : يطعم ويعطي ويهب ونحوه بل لابد أن تذكر ما يترك ، ولهذا لا يقال : فلان تارك ويقال معط ومطعم ، ومن أسمائه سبحانه المعطي فقياس ترك على أعطى من أفسد القياس .

و ﴿ **سلام على نوح في العالمين** ﴾ جملة محكية، قال الزمخشري: ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين** ﴾ من الأمم هذه الكلمة وهي ﴿ **سلام على نوح** ﴾ يعني يسلمون عليه تسليما ويدعون له وهو من الكلام المحكي كقولك قرأت (سورة أنزلناها) [النور : ١] .

الخامس : أنه قال : ﴿ **سلام على نوح في العالمين** ﴾ فأخبر سبحانه أن هذا السلام عليه في العالمين ومعلوم أن هذا السلام فيهم هو سلام العالمين عليه ، كلهم يسلم عليه ويثني عليه ويدعو له فذكره بالسلام عليه فيهم .

وأما سلام الله سبحانه عليه فليس مقيداً بهم ، ولهذا لا يشرع أن يسأل الله تعالى مثل ذلك فلا يقال: السلام على رسول الله في العالمين ولا اللهم سلم على رسولك في العالمين ولو كان هذا هو سلام الله لشرع أن يطلب من الله على الوجه الذي سلم به .

وأما قولهم : إن الله سلم عليه في العالمين وترك عليه في الآخرين فالله سبحانه وتعالى أبقى على أنبيائه ورسله سلاماً وثناء حسنا فيمن تأخر بعدهم جزاء على صبرهم وتبليغهم رسالات ربهم واحتمالهم للأذى من أممهم في الله ، وأخبر أن هذا المتروك على نوح هو عام في العالمين وأن هذه التحية ثابتة فيهم جميعاً لا يخلون منها ، فأدامها عليه في الملائكة والثقلين ، طبقاً بعد طبق ، وعالماً بعد عالم ، مجازاة لنوح عليه السلام بصبره وقيامه بحق ربه وبأنه أول رسول أرسله إلى أهل الأرض وكل المرسلين بعده بعثوا بدينه كما قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) [الشورى : ١٣] .

وقولهم : إن هذا قول ابن عباس فقد تقدم أن ابن عباس وغيره إنما أرادوا بذلك أن السلام عليه من الثناء الحسن ولسان الصدق فذكروا معنى السلام عليه وفائدته والله سبحانه أعلم . وأما الصلاة عليهم . فقال إسماعيل بن إسحاق في كتابه : حدثنا محمد بن أبي بكر المقدّمي حدثنا عمر بن هارون ، عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا على أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني »[1] صلى الله عليه وسلم تسليماً ، ورواه الطبراني عن الدبري عن عبد الرزاق عن الثوري عن موسى .

وقال الطبراني : حدثنا ابن مريم حدثنا الفريابي حدثنا سفيان عن موسى ابن عبيدة عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا صليتم علي فصلوا على أنبياء الله فإن الله بعثهم كما بعثني »[2] وفي الباب عن أنس وقيل : عن أنس عن أبي طلحة .

قال الحافظ أبو موسى المديني : وبلغني بإسناد عن بعض السلف أنه رأى آدم في المنام كأنه يشكو قلة صلاة بنيه عليه صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء ، وموسى وإن كان ضعيفاً فحديثه يستأنس به .

---

(١) « في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » برقم (٤٥) وقال الألباني : إسناده واه جداً ، عمر بن هارون هو البلخي متروك ، وشيخه موسى بن عبيدة مثله أو أقل منه ضعفاً .

(٢) لم أهتد إليه في الطبراني وهو ضعيف كسابقه .

وقد حكى غير واحد الإجماع على أن الصلاة على جميع النبيين مشروعة .

منهم الشيخ محيي الدين النواوي وغيره ، وقد حكي عن مالك رواية أنه لا يصلى على غير نبينا صلى الله عليه وسلم ولكن قال أصحابه هي مؤولة بمعنى : أنه لم نتعبد بالصلاة على غيره من الأنبياء ، كما تعبدنا الله بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم[1] .

وقال تعالى : عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه : ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ٨٥-٨٧] .

أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره ؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ، فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير ، وأنه غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره ، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه ، والكافي لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته فلا يحتاج إلى رحمته إلى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء ؛ فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم ، ويعينهم إلى قضاء حوائجهم ، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم .

فأما القادر على كل شيء ، الغني بذاته عن كل شيء ، والعالم بكل شيء الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح يوضح هذا : أن العابد معظم لمعبوده ، متأله له خاضع ذليل له ، والرب تعالى وحده

---

(١) جلاء الأفهام (٢٧١ - ٢٧٦) .

هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل ، وهذا خالص حقه ، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره ، أو يشرك بينه وبينه فيه ، ولاسيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه[1].

قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين : ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ٨٦-٨٧] .

وإن كان المعنى : ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به ، وقد عبدتم معه غيره وجعلتم له نداً . فأنت تجد تحت هذا التهديد : ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره ؟ فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه : من وزير أو ظهير أو عون وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته ، وكل ما سواه فقير إليه بذاته ، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة ، أولا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم ، أو لا يكفي عبده وحده ، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة كما يشفع المخلوق عند المخلوق؛ فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به وتكثره به من القلة وتعززه به من الذلة أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه ، كما هو حال ملوك الدنيا ، وهذا أصل شرك الخلق أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعد عنهم حتى يرفع الوسائط إليه ذلك أو يظن أن للمخلوق عليه حقاً ، فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه ، ويتوسل إليه بذلك المخلوق كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ، ولا يمكنهم مخالفته ، وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها ، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله تعالى وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك بسبب قسمته ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه لكفى في شناعته[2] .

---

(١) الجواب الكافي : (٢٠٦ - ٢٠٧) .

(٢) إغاثة اللهفان (٦٢/١) .

وقال أيضاً رحمه الله في هذه الآية :

أي فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره ، وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء ، أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان ؟ أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك ؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم ؟ أم هو قاس فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده ، أم ذليل فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القلة ويتعزز به من الذلة ، أم يحتاج إلى الولد فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً[١] .

ظن كثير من الناس أن قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٥] . أنها مصدرية[٢] واحتجوا بها على خلق الأعمال ، وليست مصدرية ، وإنما هي موصولة ، والمعنى : والله خلقكم وخلق الذي تعملونه وتنحتونه من الأصنام فكيف تعبدونه وهو مخلوق لله ، ولو كانت مصدرية لكان الكلام إلى أن يكون حجة لهم أقرب من أن يكون حجة عليهم ، إذ يكون المعنى : أتعبدون ما تنحتون والله خلق عبادتكم لها فأي معنى في هذا وأي حجة عليهم ، والمقصود : أنه كثير ما تدخل إحداهما على الأخرى ويحتملها الكلام سواء ، وأنت لو قلت : تعجبني الذي يجلس لكان غثاً من المقال ، إلا أن تأتي بموصوف يجري هذا صفة له فتقول : يعجبني الجلوس الذي تجلس ، وكذلك إذا قلت : يعجبني الذي ينطلق زيد كان غثا فإذا قلت : يعجبني الانطلاق الذي ينطلق زيد كان حسناً ، فمن هنا استغث يعجبني ما ينطلق وما تجلس إذا أردت به المصدر وأنت لو قلت أكل ما يأكل كانت موصولة وكان الكلام حسناً فلو أردت بها المصدرية والمعنى : آكل أكلك كان غثاً حتى تأتي بضميمة تدل على المصدر فتقول آكل كما يأكل ، فعرفت أنه لم يكن الاستكراه الذي أشار إليه من جهة الإبهام والتعيين فتأمله[٣] .

---

(١) مدارج السالكين (٣/٣٤٨) .

(٢) أي « ما » .

(٣) بدائع الفوائد (١/١٤٣ - ١٤٤) .

وقال أيضاً رحمه الله في هذه الآية :

قال أبو القاسم السهيلي[1] : اعلم أن « ما » إذا كانت موصولة بالفعل الذي لفظه عمل أو صنع أو فعل وذلك الفعل مضاف إلى فاعل غير الباري سبحانه فلا يصح وقوعها إلا على مصدر ، لإجماع العقلاء من الأنام في الجاهلية والإسلام على أن أفعال الآدميين لا تتعلق بالجواهر والأجسام ، لا تقول عملت جملاً ولا صنعت جبلاً ولا حديداً ولا حجراً ولا تراباً ، فإذا قلت أعجبني ما عملت وما فعل زيد قائماً يعني : الحدث فعلى هذا لا يصح في تأويل قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾. إلا قول أهل السنة أن المعنى: والله خلقكم وأعمالكم، ولا يصح قول المعتزلة من جهة المنقول ولا من جهة المعقول ، لأنهم زعموا أن « ما » واقعة على الحجارة التي كانوا ينحتونها أصناماً ، وقالوا تقدير الكلام : خلقكم والأصنام التي تعملون إنكاراً منهم أن تكون أعمالنا مخلوقة لله سبحانه واحتجوا بأن نظم الكلام يقتضي ما قالوا لأنه تقدم قوله : أتعبدون ما تنحتون (فما) واقعة على الحجارة المنحوتة ولا يصح غير هذا من جهة النحو ولا من جهة المعنى . أما النحو فقد تقدم أن ما لا تكون مع الفعل الخاص مصدراً ، وأما المعنى فإنهم لم يكونوا يعبدون النحت ، وإنما كانوا يعبدون المنحوتات ، فلما ثبت هذا وجب أن تكون الآية التي هي رد عليهم وتقييد لهم واقعة على الحجارة المنحوتة والأصنام المعبودة ، ويكون التقدير تعبدون حجارة منحوتة والله خلقكم وتلك الحجارة التي تعملون . هذا كله معنى قول المعتزلة وشرح ما شبهوا به والنظم على تأويل أهل الحق أبدع ، والحجة أقطع ، والذي ذهبوا إليه فاسد محال ؛ لأنهم أجمعوا معنا على أن أفعال العباد لا تقع على الجواهر والأجسام .

فإن قيل : فقد تقول عملت الصحيفة وصنعت الجفنة وكذلك الأجسام معمولة على هذا .

---

(١) انظر نتائج الفكر للسهيلي - رحمه الله تعالى - (صـ ١٨٩ - ١٩٠) .

قلنا : لا يتعلق الفعل فيما ذكرتم إلا بالصورة التي هي التأليف والتركيب ، وهي نفس العمل وأما الجوهر المؤلف المركب فليس بمعمول لنا فقد رجع العمل والفعل إلى الأحداث دون الجواهر ، هذا إجماع منا ومنهم فلا يصلح حملهم على غير ذلك ، وأما ما زعموا من حسن النظم وإعجاز الكلام فهو ظاهر وتأويلنا معدوم في تأويلهم ؛ لأن الآية وردت في بيان استحقاق الخالق للعبادة ، لانفراده بالخلق وإقامة الحجة على من يعبد مالا يخلق وهم يخلقون فقال : ﴿ **أتعبدون ما تنحتون** ﴾ أي : من لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، وتدعون عبادة من خلقكم وأعمالكم التي تعملون ؟ ولو لم يضف خلق الأعمال إليه في الآية وقد نسبها إليهم بالمجاز لما قامت له حجة من نفس الكلام ، لأنه كان يجعلهم خالقين لأعمالهم وهو خالق لأجناس أخر فيشركهم معه في الخلق . تعالى الله عن قول الزائغين ولا لعثرات المبطلين ، فما أدحض حجتهم وما أوهى قواعد مذهبهم ، وما أبين الحق لمن اتبعه جعلنا الله من أتباعه وحزبه .

وهذا الذي ذكرناه قاله أبو عبيد في قول حذيفة أن يخلق صانع الحرم وصنعته واستشهد بالآية وخالفه القتيبي في إصلاح الغلط فغلط أشد الغلط ووافق المعتزلة في تأويلها ، وإن لم يقل بقيلها ، هذا آخر كلام أبي القاسم ولقد بالغ في رد ما لا تحتمل الآية سواه أو ما هو أولى بحملها وأليق بها ، ونحن وكل محق مساعدوه على أن الله خالق العباد وأعمالهم وأن كل حركة في الكون فالله خالقها ، وعلى صحة هذا المذهب أكثر من ألف دليل من القرآن والسنة والمعقول والفطر ولكن لا ينبغي أن تحمل الآية على غير معناها اللائق بها حرصاً على جعلها عليهم حجة ففي سائر الأدلة غنية عن ذلك على أنها حجة عليهم من وجه آخر مع كون « ما » بمعنى «الذي» سنبينه إن شاء الله تعالى .

والكلام إن شاء الله في الآية في مقامين :

أحدهما : في سلب دلالتها على مذهب القدرية .

والثاني : في إثبات دلالتها على مذهب أهل الحق خلاف قولهم .

فهاهنا مقامان مقام إثبات ومقام سلب . فأما مقام السلب فزعمت القدرية أن الآية حجة لهم في كونهم خالقين أعمالهم ، قالوا لأن الله سبحانه أضاف الأعمال إليهم وهذا يدل على أنهم هم المحدثون لها ، وليس المراد ههنا نفس الأعمال بل الأصنام المعمولة فأخبر سبحانه أنه خالقهم وخالق تلك الأصنام التي عملوها والمراد مادتها وهي التي وقع الخلق عليها. وأما صورتها وهي التي صارت بها أصناماً فإنها بإعمالهم، وقد أضافها إليهم فتكون بإحداثهم وخلقهم فهذا وجه احتجاجهم بالآية.

وقابلهم بعض المثبتين للقدر وأن الله هو خالق أفعال العباد فقالوا : الآية صريحة في كون أعمالهم مخلوقة لله فإن « ما » هاهنا مصدرية والمعنى والله خلقهم وخلق أعمالهم . وقرروه بما ذكره السهيلي وغيره .

ولما أورد عليهم القدرية كيف تكون « ما » مصدرية هنا ، وأي وجه يبقى للاحتجاج عليهم إذا كان المعنى والله خلقكم وخلق عبادتكم وهل هذا إلا تلقين لهم الاحتجاج بأن يقولوا فإذا كان الله قد خلق عبادتنا للأصنام فهي مرادة له فكيف ينهانا عنها وإذا كانت مخلوقة مرادة فكيف يمكننا تركها ؟ فهل يسوغ أن يحتج على إنكار عبادتهم ؟

أجابهم المثبتون بأن قالوا : لو تدبرتم سياق الآية ومقصودها ، لعرفتم صحة الاحتجاج فإن الله سبحانه أنكر عليهم عبادة من لا يخلق شيئاً أصلا ، وترك عبادة من هو خالق لذواتهم وأعمالهم ، فإذا كان الله خالقكم وخالق أعمالكم فكيف تدعون عبادته وتعبدون من لا يخلق شيئاً لا ذواتكم ولا أعمالكم ؟ وهذا من أحسن الاحتجاج .

وقد تكرر في القرآن الإنكار عليهم أن يعبدوا ما لا يخلق شيئاً سوى بينه وبين الخالق لقوله : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) [النحل : ١٧] وقوله : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) [النحل: ٢٠] وقوله : (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) [لقمان : ١١] . إلى أمثال ذلك فصح الاحتجاج وقامت الحجة بخلق الأعمال مع خلق الذوات فهذا منتهى إقدام الطائفتين في الآية كما ترى .

والصواب أنها موصولة وأنها لا تدل على صحة مذهب القدرية ، بل هي حجة عليهم ، مع كونها موصولة ، وهذا يبين بمقدمة نذكرها قبل الخوض في التقرير وهي : أن طريقة الحجاج والخطاب أن يجرد القصد والغاية بحال ما يحتج له وعليه ، فإذا كان المستدل محتجا على بطلان ما قد ادعى في شيء وهو يخالف ذلك فإنه يجرد الغاية إلى بيان بطلان تلك الدعوى وأن ما ادعى له ذلك الوصف هو متصف بضده لا متصف به ، فأما أن يمسك عنه ويذكر وصف غيره فلا ، وإذا تقرر هذا فالله سبحانه أنكر عليهم عبادتهم الأصنام وبين أنها لا تستحق العبادة ، ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته ، وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة فلو أنه قال : لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون ، لتعينت المصدرية قطعاً ، ولم يحسن أن يكون بمعنى الذي ، إذ يكون المعنى : كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم وأوجد أعمالكم ، فهو المنعم عليكم بنوعي الإيجاد والخلق ، فهذا وزان ما قرروه من كونها مصدرية .

فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة فلابد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبودا فبين هذا المعنى بكونه مخلوقا له ، ومن كان مخلوقا من بعض مخلوقاته فإنه لا ينبغي أن يعبد ولا تليق به العبادة .

وتأمل مطابقة هذا المعنى لقوله : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) [النحل : ٢٠] . كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له سبحانه وهي غير خالقه .

فهذا يبين المراد من قوله : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ ونظيره قوله في سورة الأعراف : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) [الأعراف : ١٩٤] . أي هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك فكيف تعبدون المخلوق .

وتأمل طريقة القرآن لو أراد المعنى الذي ذكروه من حسن صفاته، وانفراده بالخلق ، كقول صاحب يس : (ومالي لا أعبد الذي فطرني)[1] فهنا لما كان المقصود إخبارهم بحسن عبادته واستحقاقه لها ذكر الموجب لذلك وهو كونه خالقا

---

(١) يس (٢٢) .

لعابده ، فاطراً له . وهذا إنعام منه عليه فكيف يترك عبادته . ولو كان هذا هو المراد من قوله : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ كان يقتضي أن يقال : ألا يعبدون الله وهو خالقهم وخالق أعمالهم فتأمله فإنه واضح .

وقول أبي القاسم في تقرير حجة المعتزلة من الآية : أنه لا يصح أن تكون مصدرية وهو باطل من جهة النحو ليس كذلك . أما قوله أن « ما » لا تكون مع الفعل الخاص مصدراً فقد تقدم بطلانه ، إذ مصدريتها تقع مع الفعل الخاص المبهم لقوله تعالى : (بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) [التوبة : ٧٧] وقوله : (بما كنتم تعلمون الكتاب) [آل عمران : ٧٩] . وقوله : (بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) [غافر : ٧٥] إلى أضعاف ذلك فإن هذه كلها أفعال خاصة وهي أخص من مطلق العمل فإذا جاءت مصدرية مع هذه الأفعال فمجيئها مصدرية مع العمل أولى .

قولهم : إنهم لم يكونوا يعبدون النحت ، وإنما عبدوا المنحوت حجة فاسدة فإن الكلام في « ما » المصاحبة للفعل دون المصاحبة لفعل النحت ، فإنها لا تحتمل غير الموصولة ، ولا يلزم من كون الثانية مصدرية كون الأولى كذلك فهذا تقرير فاسد .

وأما تقريره كونها مصدرية أيضاً بما ذكره فلا حجة له فيه .

أما قوله أفعال العباد لا تقع على الجواهر والأجسام ، فيقال : ما معنى عدم وقوعها على الجواهر والأجسام ؟ أتعني به أن أفعالهم لا تتعلق بإيجادها ؟ أم تعني به أنها لا تتعلق بتغييرها وتصويرها ؟ أم تعني به أعم من ذلك ؟ وهو المشترك بين القسمين .

فإن عنيت الأول فمسلم لكن لا يفيدك شيئاً ، فإن كونها موصولة لا تستلزم ذلك ، فإن كون الأصنام معمولة لهم لا يقتضي أن تكون مادتها معمولة لهم ، بل هو على حد قولهم عملت بيتا وعملت بابا وعملت حائطا وعملت ثوبا ، وهذا إطلاق حقيقي ثابت عقلا ولغة وشرعا وعرفاً لا يتطرق إليه ردّ هذا ككون

الأصنام معمولة سواء . وإن عنيت أن أفعالهم لا تتعلق بتصويرها فباطل قطعاً ، وإن عنيت القدر المشترك فباطل أيضاً ، فإنه مشتمل على نفي حق وباطل فنفي الباطل صحيح ونفي الحق باطل .

ثم يقال إيقاع العمل منهم على الجواهر والأجسام يجوز أن يطلق فيه العمل الخاص وشاهده في الآية : ﴿ **أتعبدون ما تنحتون** ﴾ فما هاهنا موصولة فقد أوقع فعلهم وهو النحت على الجسم ، وحينئذ فأي فرق بين إيقاع أفعالهم الخاصة على الجوهر والجسم ؟ وبين إيقاع أفعالهم العامة عليه ؟ لا بمعنى أن ذاته مفعولة له ، بل بمعنى أن فعلهم هو الذي صار به صنما ، واستحق أن يطلق عليه اسمه ، كما أنه بعملهم صار منحوتاً واستحق هذا الاسم وهذا بين .

وأما قوله بجواب النقض : بعملت الصحيفة ، وصنعت الجفنة ، أن الفعل متعلق بالصورة التي هي التأليف والتركيب ، وهي نفس العمل ، فكذلك هو أيضا متعلق بالتصوير الذي صار الحجر به صنما منحوتاً سواء .

وأما قوله : الآية في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق ، فقد تقدم جوابه وأن الآية وردت لبيان عدم استحقاق معبوديهم للعبادة لأنها مخلوقة لله ، وذكرنا شواهده من القرآن .

فإن قيل : كان يكفي في هذا أن يقال أتعبدون ما تنحتون والله خالقه فلما عدل إلى قوله : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ علم أنه أراد الاحتجاج عليهم في ترك عبادته سبحانه وهو خالقهم وخالق أفعالهم. قيل في ذكر خلقه سبحانه لآلهتهم ولعابديها من بيان تقبيح حالهم ، وفساد رأيهم ، وعقولهم في عبادتها دونه تعالى ما ليس في الاقتصار على ذكر خلق الآلهة فقط ، فإنه إذا كان الله تعالى هو الذي خلقكم وخلق معبوديكم فهى مخلوقة أمثالكم ، فكيف يعبد العاقل من هو مثله ، ويتألهه ويفرده بغاية التعظيم والإجلال والمحبة ، وهل هذا إلا أقبح الظلم في حق أنفسكم ، وفي حق ربكم ، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) [الأعراف : ١٩٤] . ومن حق المعبود أن لا يكون مثل العابد ، فإنه إذا كان مثله كان عبدا مخلوقا والمعبود

ينبغي أن يكون رباً خالقاً ، فهذا من أحسن الاحتجاج وأبينه ، فقد أسفر لك من المعنى المقصود بالسياق صبحه ، ووضح لك شرحه ، وانجلى بحمد الله الإشكال وزال عن المعنى غطاء الإجمال ، وبان أن ابن قتيبة في تفسير الآية وفق للسداد كما وفق لموافقة أهل السنة في خلق أعمال العباد ولاتستطل هذا الفصل فإنه يحقق لك فصولا لا تكاد تسمعها في خلال المذاكرات ، ويحصل لك قواعد وأصولا لا تجدها في عامة المصنفات .

فإن قيل فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون « ما » موصولة قيل نعم قد سبق الوعد بذلك ، وقد حان إنجازه وآن إبرازه .

ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير أن الله سبحانه أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها ، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم ، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم فإذا كان سبحانه هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطلاق أن يكون خالقها بجملتها أعني مادتها وصورتها ، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله كما أن مادتها كذلك لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم الذي حصلت به الصورة لأنه متولد عن نفس حركاتهم . فإذا كان الله خالقها ، كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوق له ، وهذا أحسن استدلالا وألطف من جعل « ما » مصدرية ونظيره من الاستدلال سواء قوله : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ [يس : ٤١-٤٢] والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن ، وقد أخبر أنها مخلوقة وهي إنما صارت سفنا بأعمال العباد .

وأبعد من قال إن المثل هاهنا هو سفن البر وهي الإبل لوجهين :

أحدهما : أنها لا تسمى مثلا للسفن لا لغة ولا حقيقة ، فإن المثلين ما سدّ أحدهما مسدّ الآخر وحقيقة المماثلة أن يكون بين فلك وفلك ، لا بين جمل وفلك .

الثاني : أن قوله : (إن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم) [يس : ٤٣] . عقب ذلك دليل على أن المراد الفلك التي إذا ركبوها قدرنا على إغراقهم ، فذكرهم بنعمه عليهم من وجهين :

أحدهما : ركوبهم إياها .

والثاني : أن يسلمهم عند ركوبها من الغرق .

ونظير هذا الاستدلال أيضا قوله تعالى : (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم) [النحل : ٨١] والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم ، وقد أخبر بأنه سبحانه هو جاعلها ، وإنما صارت سرابيل بعملهم .

ونظيره : (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) [النحل : ٨٠] والبيوت التي من جلود الأنعام هي الخيام وإنما صارت بيوتا بعملهم .

فإن قلت : المراد من هذا الكلام المادة لا الصورة . قلت : المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها ، وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها وقيام صورها بها ، وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال . والله أعلم[1] .

وقال أيضاً رحمه الله :

فإن كانت « ما » مصدرية كما قدره بعضهم فالاستدلال ظاهر وليس بقوي ، إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خالق أعمالهم من عبادة تلك الآلهة ونحتها وغير ذلك .

فالأولى أن تكون ما موصولة ، أي والله خلقكم ، وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم ، فهي مخلوقة له ، لا آلهة شركاء معه ، فأخبر أنه خلق

---

(١) بدائع الفوائد (١٤٦/١ - ١٥٣) .

معمولهم وقد حله عملهم وصنعهم ، ولا يقال المراد مادته فإن مادته غير معمولة لهم وإنما يصير معمولاً بعد عملهم[١] .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات : ١٠٣] .

وجه استدلاله[٢] بإشارة الآية : أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما بلغ ما بلغ – هو وولده – في المبادرة إلى الامتثال ، والعزم على إيقاع الذبح المأمور به ألقاه الوالد على جبينه في الحال ، وأخذ الشفرة وأهوى إلى حلقه – أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده ، وفنى بأمر الله عنهما ، فتوسط بحر جمع السر والقلب والهم على الله . وجاوز حد التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر .

قوله ﴿ **فلما أسلما** ﴾ أي : استسلما وانقادا لأمر الله فلم يبق هناك منازعة لا من الوالد ولا من الولد بل استسلام صرف وتسليم محض .

قوله : ﴿ **وتله للجبين** ﴾ أي : صرعه على جبينه وهو جانب الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم ، وتلك هي هيئة ما يراد ذبحه[٣] .

قوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٠] . فهذه فيها قراءتان[٤] :

إحداهما : (إلياسين) بوزن إسماعيل وفيه وجهان :

أحدهما : أنه اسم ثان للنبي إلياس وإلياسين كميكال وميكائيل .

والوجه الثاني : أنه جمع وفيه وجهان :

أحدهما : أنه جمع إلياس وأصله : إلياسيين بيائين كعبرانيين ، ثم خففت إحدى اليائين فقيل إلياسين والمراد : أتباعه ، كما حكى سيبويه : الأشعرون مثله الأعجمون .

---

(١) شفاء العليل (٥٥) .

(٢) أي الإمام « الهروي » في منازل السائرين في كلامه عن منزلة «الغرف».

(٣) مدارج السالكين (٣/٢٠٦) .

(٤) انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (٥٤٩) وتفسير الطبري (٢٣ / ٩٤) .

والثانية : أنه جمع إلياس محذوف الياء .

والقراءة الثانية (سلام على آل ياسين) وفيه أوجه :

أحدها : أن ياسين اسم لأبيه ، فأضيف إليه الآل ، كما يقال : آل إبراهيم .

الثاني : أن آل ياسين : هو إلياس نفسه ، فيكون آل مضافة إلى يس ، والمراد بالآل : يس نفسه كما ذكر الأولون .

والثالث : أنه على حذف ياء النسب فيقال : يس وأصله : ياسيني كما تقدم وآلهم أتباعهم على دينهم .

والرابع : أن يس هو القرآن ، وآله هم أهل القرآن .

والخامس : أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، وآله أقاربه وأتباعه كما سيأتي .
هذه الأقوال : كلها ضعيفة والذي حمل قائلها عليها استشكالهم إضافة آل إلى يس ، واسمه إلياس وإلياسين ورواها في المصحف مفصولة ، وقد قرأها بعض القراء « آل يس » فقال طائفة منهم : له أسماء : يس وإلياسين وإلياس .

وقالت طائفة « يس » اسم لغيره ، ثم اختلفوا فقال الكلبي : يس محمد صلى الله عليه وسلم وقالت طائفة : هو القرآن . وهذا كله تعسف ظاهر لا حاجة إليه .

والصواب – والله أعلم في ذلك – أن أصل الكلمة : آل ياسين ، كآل إبراهيم فحذفت الألف واللام من أوله لاجتماع الأمثال ودلالة الاسم على موضع المحذوف، وهذا كثير في كلامهم إذا اجتمعت الأمثال كرهوا النطق بها كلها فحذفوا منها مالا إلباس في حذفه ، وإن كانوا لا يحذفونه في موضع لا تجتمع فيه الأمثال ، ولهذا يحذفون النون من « إني ، وأني ، وكأني ، ولكني » ، ولا يحذفونها من ليتني ولما كانت اللام في لعل شبيهة بالنون حذفوا النون معها ، ولاسيما عادة العرب في استعمالها للاسم الأعجمي وتغييرها له ، فيقولون مرة « إلياسين » ومرة « إلياس » ومرة « ياسين » وربما قالوا : « ياس » ويكون على إحدى القراءتين قد وقع

السلام عليه ، وعلى القراءة الأخرى على آله ، وعلى هذا ففصل النزاع بين أصحاب القولين في الآل : أن الآل إن أفرد دخل فيه المضاف إليه ، كقوله تعالى : (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) [غافر : ٤٦] . ولاريب في دخوله في آله هاهنا . وقوله : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) [الأعراف : ١٣٠] . ونظائره .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم صل على آل أبي أوفى »[1] ولا ريب في دخول أبي أوفى نفسه في ذلك ، وقوله « اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم » هذه أكثر روايات البخاري وإبراهيم هنا داخل في آله ، ولعل هذا مراد من قال : آل الرجل نفسه . وأما إن ذكر الرجل ، ثم ذكر آله لم يدخل فيهم ، ففرق بين اللفظ المجرد والمقرون . فإذا قلت أعط هذا لزيد وآل زيد لم يكن زيد هنا داخلاً في آله وإذا قلت : أعطه لآل زيد تناول زيدا وآله . وهذا له نظائر كثيرة قد ذكرناها في غير هذا الموضع ، وهي أن اللفظ تختلف دلالاته بالتجريد والاقتران ، كالفقير والمسكين ، هما صنفان إذا قرن بينهما ، وصنف واحد إذا أفرد كل منهما ، ولهذا كانا في الزكاة صنفين ، وفي الكفارات صنف واحد ، وكالإيمان والإسلام ، والبر والتقوى ، والفحشاء والمنكر ، والفسوق والعصيان ، ونظائر ذلك كثيرة ولاسيما في القرآن[2] .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٩-١٤١] .

يقول تعالى : فقارع فكان من المغلولين ، فهذان نبيّان[3] كريمان استعملا القرعة ، وقد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم[4] .

---

(١) مر في سورة التوبة برقم (١) صـ ٣٧٤ .

(٢) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (١١٧ - ١١٩) .

(٣) أي سليمان ويونس عليهما السلام .

(٤) الطرق الحكمية (٢٩٤) .

قال تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات :١٥٩-١٦٠] فنزه سبحانه عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده ، وهم الرسل ومن اتبعهم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال غير واحد من السلف : هم الرسل[٢] .

قال تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ١٦١-١٦٣] .

أي : لا تفتنون على عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم ، فذلك الذي يفتتن بفتنتكم إياه[٣] .

قال تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠-١٨٢] .

فنزه نفسه عما يصفه به الخلق ، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب ، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد ، ومن ها هنا أخذ إمام أهل السنة محمد بن إدريس الشافعي – قدس الله روحه ونور ضريحه – خطبة كتابه[٤] حيث قال : «الحمد لله الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه». فأثبت في هذه الكلمة أن صفاته إنما تتلقى بالسمع ، لا بآراء الخلق ، وأن أوصافه فوق ما يصفه به الخلق ، فتضمنت هذه الكلمة إثبات صفات الكمال الذي أثبته لنفسه ، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل ، وأن ما وصف به نفسه فهو الذي يوصف به ، لا ما وصفه به الخلق ثم قال: «والحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه

---

(١) جلاء الأفهام (٩١) .

(٢) الصواعق المرسلة (١/١٥٣) .

(٣) روضة المحبين (٥١) .

(٤) انظر الرسالة للإمام الشافعي صـ ٨ .

توجب على مؤدي شكر ماضي نعمه بأدائها نعمة حادثة يجب عليه شكره بها».
فأثبت في هذا القدر أن فعل الشكر إنما هو بنعمته على الشاكر ، وهذا يدل على أنه رحمه الله مثبت للصفات ، والقدر . وعلى ذلك درج بُدَّل[١] الإسلام والرعيل الأول ، ثم فرق[٢] على أثرهم التابعون ، وتبعهم على منهاجهم اللاحقون ، يوصي بها الأول والآخر ، ويقتدي فيه اللاحق بالسابق وهم في ذلك بنبيهم مقتدون ، وعلى منهاجه سالكون[٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠-١٨٢] .

فنزه نفسه عما يصفه به الواصفون وسلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من كل نقص وعيب ، وحمد نفسه إذ هو الموصوف به بصفات الكمال التي يستحق لأجلها الحمد وينزه عن كل نقص ينافي كمال حمده[٤] .

* * *

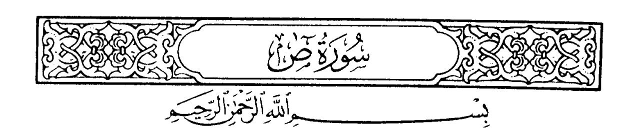
---

(١) أي أصحاب العقول والآراء القارحة .
انظر : نهج البلاغة (٢٢) .
(٢) فرق : قال الزمخشري : وفرق لي الطريق فروقاً وانفرق انفراقاً إذا اتجه لك طريقان فاستبان ما يجب سلوكه منهما ، وطريق أفرق : بين ، نهج البلاغة (٣٤٠) .
(٣) الصواعق المرسلة (١٥٣/١ - ١٥٤) .
(٤) جلاء الأفهام (٩١) .



سُورَةُ صٓ





بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص : ١] .

فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه ، وللشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه ، وكونه حقاً من عند الله غير مفترى ، كما يقوله الكافرون .

وهذا معنى قول كثير من المفسرين ، متقدميهم ومتأخريهم : أن الجواب محذوف ، تقديره إن القرآن لحق[1] . وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك ، وأما قول بعضهم : إن الجواب قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ [ص : ٣] . فاعترض بين القسم وجوابه بقوله : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص : ٢] . فبعيد لأن « كم » لا يتلقى بها القسم ، فلا تقول : والله كم أنفقت مالا ؟ وبالله كم أعتقت عبدا ؟ وهؤلاء لما لم يخف عليهم ذلك احتاجوا أن يقدروا ما يتلقى بها الجواب: أي لكم أهلكنا، وأبعد من هذا قول من قال: الجواب في قوله: (إن كل إلا كذب الرسل) [ص : ١٤] وأبعد منه قول من قال : الجواب : (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) [ص : ٥٤] . وأبعد منه قول من قال : الجواب قوله : (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) [ص : ٦٤] . وأقرب ما قيل في الجواب لفظاً وإن كان بعيداً معنى عن قتادة وغيره : أنه في قوله : (بل الذين كفروا) [ص : ٢] .

كما قال: (قٓ والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) [ق: ١-٣] .

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٣ / ١١٨) .

وشرح صاحب النظم هذا القول فقال : معنى « بل » توكيد الخبر الذي بعده ، فصار كإنَّ الشديدة في تثبيت ما بعدها .

وقيل هاهنا بمنزلة إن ، لأنه يؤكد ما بعده من الخبر ، وإن كان له معنى سواه في نفي خبر متقدم . فكأنه عز وجل قال : ﴿ **صٓ والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق** ﴾ كما تقول : والله إن زيداً لقائم قال : واحتج صاحب هذا القول بأن هذا النظم وإن لم يكن للعربية فيه أصل ، ولا لها رسم فيحتمل أن يكون نظما أحدثه الله عز وجل ، لما بينا من احتمال أن تكون « بل » بمعنى أن . اهـ .

وقال أبو القاسم الزجاج : قال النحويون : إن « بل » تقع في جواب القسم كما تقع إن ، لأن المراد بها توكيد الخبر . وهذا القول اختيار أبي حاتم ، وحكاه الأخفش عن الكوفيين ، وقرره بعضهم بأن قال : أصل الكلام ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق والقرآن ذي الذكر ، فلما قدم القسم ترك على حاله . قال الأخفش : وهذا يقوله الكوفيون وليس بجيد في العربية . لو قلت : والله قام ، وأنت تريد قام والله لم يحسن .

وقال النحاس : هذا خطأ على مذهب النحويين ، لأنه إذا ابتدأ بالقسم وكان الكلام معتمدا عليه لم يكن بد من الجواب . وأجمعوا أنه لا يجوز : والله قام عمرو ، بمعنى : قام عمرو والله لأن الكلام يعتمد على القسم .

وذكر الأخفش وجها آخر في جواب القسم ، فقال : يجوز أن يكون لصاد معنى يقع عليه القسم ، لا ندري نحن ما هو . كأنه يقول : الحق والله .

قال أبو الحسن الواحدي : وهذا الذي قاله الأخفش صحيح المعنى على قول من يقول (ص) الصادق الله أو صدق محمد . وذكر الفراء هذا الوجه أيضاً . فقال ، (ص) جواب القسم . وقال : هو كقولك وجب والله ، وترك والله فهي جواب لقوله (والقرآن) . وذكر النحاس وغيره وجها آخر في الجواب وهو : أنه محذوف تقديره : والقرآن ذي الذكر ، فالأمر كما يقوله هؤلاء الكفار

ودل على المحذوف قوله تعالى : ﴿ **بل الذين كفروا** ﴾ وهذا اختيار ابن جرير ، وهو مخرج من قول قتادة . وشرحه الجرجاني ، فقال (بل) رافع لخبر قبله ومثبت لخبر بعده . فقد ظهر ما بعده وظهر ما قبله ، وما بعده دليل على ما قبله . فالظاهر يدل على الباطن فإذا كان كذلك وجب أن يكون قوله : ﴿ **بل الذين كفروا في عزة وشقاق** ﴾ مخالفاً لهذا المضمر ، فكأنه قيل : والقرآن ذي الذكر إن الذين كفروا يزعمون أنهم على الحق ، أو كل ما في هذا المعنى . فهذه ستة أوجه سوى ما بدأنا به في جواب القسم . والله أعلم[١] .

تأمل ما اشتملت عليه سورة صٓ من الخصومات المتعددة .

فأولها : خصومة الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم وقولهم : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ [ص : ٥] .

إلى آخر كلامهم ، ثم اختصام الخصمين عند داود ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصم الملأ الأعلى في العلم ، وهو الدرجات والكفارات ، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم ثم خصامه ثانيا في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم .

فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير صٓ وبسورة ق غير حرفها وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف . والله أعلم[٢] .

قال سبحانه : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [صٓ : ٢٥]

فزاده على المغفرة أمرين : الزلفى وهي درجة القرب منه ، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها مالا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم ، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف .

والثاني : حسن المآب وهو حسن المنقلب ، وطيب المأوى عند الله قالوا :

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٠ - ١٣) .
(٢) بدائع الفوائد (١٧٤/٣) .

ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة على صحة ما قلنا ، وأن العبد بعد التوبة يعود خيراً مما كان[١] .

قال تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [صٓ : ٢٦] .

فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله ، وإلى الهوى وهو ما خالفه[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [ص : ٢٧] .

والباطل الذي ظنوه ليس هو الجمع بين النقيضين بل الذي ظنوه : أنه لا شرع ولا جزاء ولا أمر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب فأخبر : أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذي تنزه عنه ، وذلك هو الحق الذي خلقت به ، وهو التوحيد وحقه وجزاؤه وجزاء من جحده وأشرك بربه[٣] .

وقد أنكر تعالى على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين كالتسوية بين الأبرار والفجار .

فقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [صٓ : ٢٨] . وقال تعالى : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) [الجاثية : ٢١] . فدل على أن هذا حكم سيء قبيح ينزه الله عنه ، ولم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون وإنما أنكره من جهة قبحه

(١) طريق الهجرتين (٢١٧) .
(٢) إعلام الموقعين (٨١/١) .
(٣) مدارج السالكين (٢٣٨/١) .

في نفسه ، وأنه حكم شيء يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله ووقوع أفعاله كلها على السداد والصواب والحكمة ، فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر ، ولا المحسن كالمسيء ، ولا المؤمن ، كالمفسد في الأرض فدل على أن هذا قبيح في نفسه تعالى الله عن فعله[1] .

وقال قدس الله روحه :

وهذا استفهام إنكار . فدل على أن هذا قبيح في نفسه منكر تنكره العقول والفطر . أفتظنون أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله ؟ فأنكره سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة على قبحه . وأنه لا يليق بالله نسبته إليه[2] .

قال تعالى للملك الرسول سليمان : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [صٓ : ٣٩] .

أي : أعط من شئت وامنع من شئت ، لا نحاسبك وهذه المرتبة هي التي عرضت على نبينا صلى الله عليه وسلم[3] فرغب عنها إلى ما هو أعلى منها وهي مرتبة العبودية المحضة التي تصرف صاحبها فيها مقصور على أمر السيد في كل دقيق وجليل[4] .

قوله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص : ٤٤] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٨ - ٣٣٩) .

(٢) مدارج السالكين (٢٣٨/١) .

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : جلس جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنظر إلى السماء ، فإذا ملك ينزل ، فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة ، فلما نزل قال : يامحمد ، أرسلني إليك ربك ، قال : أفملكاً نبياً يجعلك ، أو عبداً رسولاً ؟
قال جبريل : تواضع لربك يامحمد ، قال : « بل عبداً رسولاً » .
رواه الإمام أحمد (١٢ / ١٤٢ - ١٤٣) برقم (٧١٦٠) وصحح إسناده أحمد شاكر .
قال الهيثمي « رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح ، مجمع الزوائد (٩ / ١٩) .

(٤) زاد المعاد (٨٣/٥) .

فقال شيخنا : الجواب أن هذا ليس مما نحن فيه فإن للفقهاء في موجب هذه اليمين في شرعنا قولين : يعني إذا حلف : ليضربن عبده أو امرأته ضربة .

أحدهما : قول من يقول : موجبها الضرب مجموعا أو مفرقا ، ثم منهم من يشترط مع الجمع الوصول إلى المضروب ، فعلى هذا تكون هذه الفتيا موجب هذا اللفظ عند الإطلاق وليس هذا بحيلة إنما الحيلة أن يصرف اللفظ عن موجبه عند الإطلاق .

والقول الثاني : أن موجبه الضرب المعروف وإذا كان هذا موجبه في شرعنا لم يصح الاحتجاج علينا بما يخالف شرعنا من شرائع من قبلنا لأنا إن قلنا: ليس شرعا لنا مطلقا فظاهر ، وإن قلنا : هو شرع لنا فهو مشروط بعدم مخالفته لشرعنا ، وقد انتفى الشرط . وأيضاً ، فمن تأمل الآية علم أن هذه الفتيا خاصة الحكم ، فإنها لو كانت عامة الحكم في حق كل أحد لم يخف على نبي كريم موجب يمينه ، ولم يكن في اقتصاصها علينا كبير عبرة فإنما يقص ما خرج من نظائره لنعتبر به ، ونستدل به على حكمة الله فيما قصه علينا .

أما ما كان هو مقتضى العادة والقياس فلا يقص ويدل على الاختصاص قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ [صٓ : ٤٤] .

وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل ، كما في نظائرها . فعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما أفتاه بهذا جزاء له على صبره وتخفيفا عن امرأته ، ورحمة بها لا أن هذا موجب هذه اليمين ، وأيضاً فإن الله سبحانه وتعالى إنما أفتاه بهذه الفتيا لئلا يحنث كما أخبر تعالى[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

من العجب أن يحتج بهذه الآية من يقول : إنه لو حلف : ليضربنه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة ، لم يبر في يمينه . هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد .

---

(١) إعلام الموقعين (٢٧٠/٣ – ٢٧١) .

وقال الشافعي : إن علم أنها مسته كلها بر في يمينه ، وإن علم أنها لم تمسه لم يبر . وإن شك لم يحنث ، ولو كان هذا موجباً لبر الحالف لسقط عن الزاني والقاذف والشارب تعدد الضرب ، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضرب بها ضربة واحدة وهذا إنما يجزي في حق المريض ، كما قال الإمام أحمد في المريض عليه الحد « يضرب بعثكال يسقط عنه الحد » .

واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن سعد بن عبادة قال : « كان بين أبياتنا رويجل ضعيف مخدج ، فلم يرع الحي إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها ، قال : فذكر ذلك سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وكان ذلك الرجل مسلماً فقال : اضربوه حده ، فقالوا : يارسول الله : إنه أضعف مما تحسب ، لو ضربناه مائة قتلناه ، فقال : خذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ ثم اضربوه ضربة واحدة ، ففعلوا »[1] .

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق ، فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته ، وخلاصه من دائه تلتمس له الدواء بما تقدر عليه ، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال . أخبرت أيوب عليه السلام بذلك فقال : إنه الشيطان ، ثم حلف : لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط فكانت معذورة محسنة في شأنه ، ولم يكن في شرعهم كفارة فإنه لو كان في شرعهم كفارة لعدل إلى التكفير ، ولم يحتج إلى ضربها ، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط ، فيضرب بها ضربة واحدة . وامرأة أيوب كانت معذورة لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان وإنما قصدت الإحسان ، فلم تكن تستحق العقوبة ، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور ، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه ، فجمع الله

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥ / ٢٢٢) .
وأبو داود (١٢ / ١٦٩ - ١٧٠) في الحدود ، باب : إقامة الحد على المريض .
وصححه الألباني كما في صحيح ابن ماجه (٢ / ٨٥) في الحدود ، باب : الكبير والمريض يجب عليه الحد .

له بين البر في يمينه ، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التي لا تستحق العقوبة ؛ فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام لنص السنة في شأن الضعيف الذي زنى فلا يتعدى بها عن محلها فإن قيل : فقولوا هذا في نظير ذلك ، ممن حلف ليضربن امرأته أو أمته مائة وكانا معذورين ، لا ذنب لهما : أنه يبر بجمع ذلك في ضربة بمائة شمراخ .

قيل : قد جعل الله له مخرجاً بالكفارة ، ويجب عليه أن يكفر عن يمينه ولا يعصي الله بالبر في يمينه هاهنا، ولا يحل له أن يبر فيها، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة ، ولا يحل له أن يضربها لا مفرقاً ولا مجموعاً .

فإن قيل : فإذا كان الضرب واجباً كالحد هل تقولون ينفعه ذلك .

قيل : إما أن يكون العذر مرجو الزوال كالحر والبرد الشديد والمرض اليسير ، فهذا ينتظر زواله ثم يحد الحد الواجب ، كما روى مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه « أن أمةً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم زنت فأمرني أن أجلدها فأتيتها ، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدتها أن أقتلها فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال : « أحسنت، اتركها حتى تماثل »[(١)(٢)] .

قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ * إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ [صٓ : ٤٥-٤٦] .

أي خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار ، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال : (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) [الشعراء : ٨٤] . وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه : (ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) [مريم : ٥٠] . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (ورفعنا لك ذكرك) [الشرح : ٤].

(١) رواه مسلم (٤ / ٢٨٨ - ٢٨٩) في الحدود ، باب : حد الزنا .
(٢) إغاثة اللهفان (٢/٩٧ - ٩٩) .

فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ، ومتابعتهم وكل من خالفهم فإنه بعيد عن ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

الأيدي : القوي في تنفيذ الحق ، والأبصار : البصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه. وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق ، وأكرمهم على الله تعالى[(٢)] .

وقد مدح الله سبحانه أولي القوة في أمره والبصائر في دينه فقال : ﴿ **واذكر عبٰدنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصٰر** ﴾[صۤ : ٤٥] .

فالأيدي : القوي على تنفيذ أمر الله والأبصار : البصائر في دينه[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾[صۤ : ٤٦] .

فهذه الآية يخبر فيها سبحانه عما أخلص له أنبياؤه ورسله من اختصاصهم بالآخرة ، وفيها قولان :

أحدهما : أن المعنى نزعنا من قلوبهم حب الدنيا ، وذكرها ، وإيثارها والعمل بها .

والقول الثاني : أنا أخلصناهم بأفضل ما في الدار الآخرة ، واختصصناهم به عن العالمين[(٤)] .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ * مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴾ [صۤ : ٥٠-٥١] .

كيف تجد تحته معنى بديعاً وهو : أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم بل تبقى مفتحة كما هي .

(١) الجواب الكافي (١١٤) .
(٢) الجواب الكافي (١٣٤) .
(٣) إعلاء الموقعين (١/١٣٠) .
(٤) طريق الهجرتين (٣١٧) .

وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها كما قال تعالى : (إنها عليهم مؤصدة) [الهمزة : ٨] أي مطبقة مغلقة ومنه سمي الباب وصيداً وهي : (مؤصدة في عمد ممددة) [الهمزة : ٨-٩] . قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب .

قال مقاتل : يعني : أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب ، ولا يخرج منها غم ، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد ، وأيضاً فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم في الجنة حيث شاؤوا ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم ، ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت وأيضاً أشار إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا .

وقد اختلف أهل العربية في الضمير العائد من الصفة على الموصوف في هذه الجملة .

فقال الكوفيون : التقدير مفتحة لهم أبوابها والعرب تعاقب بين الألف واللام والإضافة فيقولون : مررت برجل حسن العين أي : عينه ومنه قوله تعالى : (فإن الجحيم هي المأوى) [النازعات : ٣٩] . أي : مأواه .

وقال بعض البصريين : التقدير ﴿ **مفتحة** ﴾ لهم الأبواب منها ، فحذف الضمير وما اتصل به . قال : وهذا التقدير في العربية أجود من أن يجعل الألف واللام بدلاً من الهاء والألف ؛ لأن معنى الألف واللام ليس من معنى الهاء والألف في شيء ، لأن الهاء والألف اسم ، والألف واللام دخلتا للتعريف ولا يبدل حرف من اسم ولا ينوب عنه .

قالوا : وأيضاً لو كانت الألف واللام بدلاً من الضمير لوجب أن يكون في ﴿ **مفتحة** ﴾ ضمير الجنات ، ويكون المعنى ﴿ **مفتحة** ﴾ هي ثم أبدل منها الأبواب ولو كان كذلك لوجب نصب الأبواب ، لكون مفتحة قد رفع ضمير الفاعل فلا يجوز أن يرفع به اسم آخر لامتناع ارتفاع فاعلين بفعل واحد ، فلما

ارتفع الأبواب دل على أن مفتحة خال من ضمير ، والأبواب مرتفعة به . وإذا كان في الصفة ضمير تعين نصب الثاني كما تقول : مررت برجل حسن الوجه . ولو رفعت الوجه ونونت حسناً لم يجز فالألف واللام إذاً للتعريف ليس إلا ، فلابد من ضمير يعود على الموصوف الذي هو جنات عدن ولا ضمير في اللفظ فهو محذوف تقديره الأبواب منها .

وعندي أن هذا غير مبطل لقول الكوفيين ، فإنهم لم يريدوا بالبدل إلا أن الألف واللام خلف وعوض عن الضمير تغني عنه . وإجماع العرب على قولهم : حسن الوجه وحسن وجهه شاهد بذلك ، وقد قالوا : إن التنوين بدل من الألف واللام بمعنى أنهما لا يجتمعان ، وكذلك المضاف إليه يكون بدلاً من التنوين والتنوين بدل من الإضافة بمعنى التعاقب والتوارد ولا يريدون بقولهم هذا بدل من هذا ، أن معنى البدل معنى المبدل منه ، بل قد يكون في كل منهما معنى لا يكون في الآخر .

فالكوفيون أرادوا أن الألف واللام في الأبواب أغنت عن الضمير . لو قيل أبوابها ، وهذا صحيح فإن المقصود الربط بين الصفة والموصوف بأمر يجعلها له لا مستقلة ، فلما كان الضمير عائدا على الموصوف نفى توهم الاستقلال وكذلك لام التعريف ، فإن كلا من الضمير واللام يعين صاحبه هذا بعين مفسره وهذا يعين ما دخل عليه . وقد قالوا في زيد نعم الرجل : إن الألف واللام أغنت عن الضمير . والله أعلم .

وقد أعرب الزمخشري[1] هذه الآية إعراباً اعترض عليه فيه فقال : جنات عدن معرفة كقوله : ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب ﴾ [مريم : ٦١].

وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مآب ، ومفتحة حال والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل ، وفي مفتحة ضمير الجنات والأبواب بدل من الضمير تقديره : مفتحة هي الأبواب ، كقولهم : ضرب زيد اليد والرجل وهو من بدل

---

(١) تفسير الزمخشري (٣ / ٣٣٢) .

الاشتمال ، هذا إعرابه فاعترض عليه بأن جنات عدن ليس فيها ما يقتضي تعريفها . وأما قوله : (التي وعد الرحمن عباده) [مريم : ٦١] . فبدل لا صفة ، وبأن جنات عدن لا يسهل أن تكون عطف بيان لحسن مآب على قوله ، لأن جريان المعرفة على النكرة عطف بيان لا قائل به ، فإن القائل قائلان :

أحدهما : أنه لا يكون إلا في المعارف كقول البصريين .

والثاني : أنه يكون في المعارف والنكرات بشرط المطابقة كقول الكوفيين وأبي علي الفارسي .

وقوله : إن في مفتحة ضمير الجنات فالظاهر خلافه ، وأن الأبواب مرتفع به ولا ضمير فيه وقوله : إن الأبواب بدل اشتمال فبدل الاشتمال قد صرح هو وغيره أنه لابد فيه من الضمير ، وإن نازعهم فيه آخرون ولكن يجوز أن يكون الضمير ملفوظاً به ، وأن يكون مقدراً ، وهنا لم يلفظ به فلابد من تقديره أي الأبواب منها ، فإذا كان التقدير مفتحة لهم هي الأبواب منها ، كان فيه تكثير للإضمار وتقليله أولى[1] .

قال تعالى فيهم : ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ * هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ * قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [صٓ : ٥٧-٦٠] .

أي سننتموه لنا وشرعتموه : ﴿ **قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار** ﴾ [ص : ٦١] . فقولهم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار أي داخلوها كما دخلناها ، ومقاسون عذابها كما نقاسيه ، فأجابهم الأتباع وقالوا : بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا .

وفي الضمير قولان :

أحدهما : أنه ضمير الكفر والتكذيب ، ورد قول الرسل صلوات الله

(١) حادي الأرواح (٥٤ - ٥٦) .

وسلامه عليهم واستبدال غيره به والمعنى : أنتم زينتم لنا الكفر ودعوتمونا إليه وحسنتموه لنا وقيل على هذا القول : أنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين والمعنى على هذا : أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاءوا به والشرك بالله سبحانه وتعالى . أي : بدأتم به وتقدمتمونا إليه فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار أي : بئس المستقر والمنزل .

والقول الثاني : أن الضمير في قوله أنتم قدمتموه لنا ضمير العذاب ، وصلي النار ، والقولان متلازمان وهما حق .

وأما القائلون: ﴿**ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفا في النار**﴾ فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به ؛ لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه . ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سن لهم الشرك وتكذيب الرسل صلى الله عليهم وسلم ضعفا وهم الشياطين[1] .

قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] .

فهذا كلام ورد في معرض التوبيخ والتبكيت للعين على امتناعه من السجود ولم يستحق هذا التبكيت والتوبيخ ، حيث كان السجود لمن يعقل ولكن للمعصية والتكبر على ما لم يخلقه إذ لا ينبغي التكبر لمخلوق على مثله ، إنما التكبر للخالق وحده فكأنه يقول سبحانه : لم عصيتني وتكبرت على ما لم تخلقه وخلقته أنا وشرفته وأمرتك بالسجود له . فهذا موضع « ما » لأن معناها أبلغ ولفظها أعم ، وهو في الحجة أوقع ، وللعذر والشبهة أقطع فلو قال : ما منعك أن تسجد لمن خلقت لكان استفهاما مجرداً من توبيخ وتبكيت ولتوهم أنه وجب السجود له من حيث كان يعقل . ولعله موجود في ذاته وعينه وليس المراد كذلك ، وإنما المراد توبيخه وتبكيته على ترك سجوده لما خلق الله وأمره بالسجود له ، ولهذا عدل عن اسم آدم العلم مع كونه أخصّ وأتى بالاسم الموصول الدال على جهة التشريف المقتضية لإسجاده له كونه خلقه بيديه وأنت لو وضعت مكان « ما »

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٧ - ١٨) .

لفظة « من » لما رأيت هذا المعنى المذكور في الصلة ، وأن « ما » جيء بها وصلة إلى ذكر الصلة فتأمل ذلك . فلا معنى إذا للتعيين بالذكر إذ لو أريد التعيين لكان بالاسم العلم أولى وأحرى[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ [صٓ:٧٥] .

ومن أقبح الغلط والتلبيس تأويل اليدين بالنعمة ، ولا ريب أن العرب تقول : لفلان عندي يد ، وقال عروة بن مسعود للصديق : لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك[٢] ولكن وقوع اليد في هذا التركيب الذي أضاف سبحانه فيه الفعل إلى نفسه ثم تعدي الفعل إلى اليد بالباء التي هي نظير : كتبت بالقلم وهي اليد ، وجعل ذلك خاصة خص بها صفيه آدم دون البشر كما خص المسيح بأنه نفخ فيه من روحه ، وخص موسى بأن كلمه بلا واسطة ، فهذا مما يحيل تأويل اليد في النص بالنعمة ، وإن كانت في تركيب آخر تصلح لذلك فلا يلزم من صلاحية اللفظ لمعنى ما في تركيب صلاحيته له في كل تركيب[٣] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [صٓ : ٧٩] .

وهذا اعتراف منه بالبعث وإقرار به ، وقد علم قسم ربه ليملأن جهنم منه ومن أتباعه ، فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل[٤] .

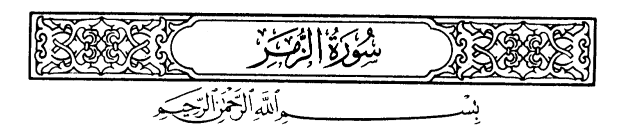
قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [صٓ : ٨١-٨٢] .

لا يفهم منها إلا أن المخلصين لا يتمكن من إغوائهم[٥] .

* * *

(١) بدائع الفوائد (١٣٢/١) .
(٢) رواه البخاري (٥ / ٣٨٨) في حديث صلح الحديبية من كتاب الشروط باب : الشروط في الجهاد .
(٣) الصواعق المرسلة (١ / ١٩٢ - ١٩٣) .
(٤) مفتاح دار السعادة (٩٨) .
(٥) بدائع الفوائد (٥٩/٣) .

سُورَةُ الزُّمَرِ



قول الله تعالى ذكره: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر : ٣] .

فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفى الوصف لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة لله موصوفاً بها فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته وتبتل إليه تبتيلا لم يلتفت إلى غيره ولم يشرك به أحدا في عبادته وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابداً لله ولا عبداً له وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن[1] وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهماً من عنده فله الحمد والمنة[2] .

يقول تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر : ٦] .

فإن كل حجاب من هذه الحجب له ظلمة تخصه ، فذكر سبحانه أطوار

---

(١) روى الترمذي (٣ / ٦) صحيح الترمذي في فضائل القرآن ، باب : ما جاء في سورة ﴿ إذا زلزلت ﴾ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ ﴿ إذا زلزلت .. ﴾ ومن قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون .. ﴾ عدلت له بربع القرآن ... » الحديث .
قال الألباني : حسن دون فضل ﴿ إذا زلزلت ﴾ وانظر تخريجه مفصلاً في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٥٨٧) .
والضعيفة رقم (١٣٤٢) .

(٢) بدائع الفوائد (١ / ١٣٧) .

خلقه ونقله فيها من حال إلى حال وذكر ظلمات الحجب التي على الجنين فقال أكثر المفسرين : هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة فإن كل واحد منها حجاب على الجنين وقال آخرون : هي ظلمة أصلاب الآباء وظلمة بطون الأمهات وظلمة المشيمة وأضعف من هذا القول قول من قال : ظلمة الليل وظلمة البطن وظلمة الرحم فإن الليل والنهار بالنسبة إلى الجنين سواء[1] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر : ١٧،١٨] .

قال صاحب الغناء : قد أمر الله رسوله أن يبشر من استمع القول واتبع أحسنه فقال تعالى : ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ [الزمر : ١٧،١٨] . قال والألف واللام في القول تقتضي العموم والاستغراق والدليل عليه أنه مدحهم باتباع الحسن من القول وهذا يعم كل قول فيدخل فيه قول السماع وغيره .

قال صاحب القرآن : قد كان ينبغي لك أن توقر كلام الله وتجله أن تنزله على أقوال المغنين والمغنيات وإخوانهم من النائحين والنائحات وأن يحمل على رقية الزنا ومنبت النفاق وداعي الغي والهوى . فيكفي في فساد القول أنه لم يقله قبلك أحد من أئمة التفسير على اختلاف طبقاتهم .

ويدل على بطلانه وأنه يمتنع أن يراد بكلام من لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجوه عديدة :

أحدها : أن الله سبحانه وتعالى لا يأمر بل لا يأذن في استماع كل قول حتى يقال اللام للاستغراق والعموم بل من القول ما يحرم استماعه ومنه ما يكره ، قال تعالى : (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) [الأنعام : ٦٨] .

---

(١) تحفة الودود (٢١٧) .

فأمر سبحانه وتعالى بالإعراض عن سماع هذا القول ، ونهى عن القعود مع قائليه قال تعالى : (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) [النساء : ١٤٠] . فجعل سبحانه المستمع لهذا الحديث مثل قائله فكيف سبحانه يمدح مستمع كل قول ، وقال تعالى : (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون) [المؤمنون : ١-٣] . وقال تعالى في وصف عباده : (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) [الفرقان : ٧٢] . أي أكرموا أنفسهم عن استماعه وروي أن ابن مسعود رضي الله عنه سمع صوت لهو فأعرض عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن كان ابن مسعود لكريماً »[1] .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أثنى على من أعرض عن اللغو ومر به ، كريماً ، فأكرم نفسه عن استماعه ، فكيف يجوز أن يقال : إن الألف واللام للاستغراق ، وينسب إلى الله سبحانه ، أنه مدح مستمع كل قول ، وقد قال تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) [الإسراء : ٣٦] . فقد أخبر سبحانه أنه يسأل العبد عن سمعه وبصره وفؤاده ونهاه أن يقفو أي يتبع ما ليس به علم .

وإذا كان السمع والبصر والكلام والفؤاد منقسماً إلى ما يؤمر به وينهى عنه والعبد مسؤول عن ذلك كله فكيف يجوز أن يقال : كل قول في العالم فالعبد ممدوح على استماعه ونظير هذا أن يقال : كل مرئي في العالم فالعبد ممدوح على النظر إليه لقوله : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) [يونس : ١٠١] وقوله : (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) [الأعراف : ١٨٥] .

ولهذا دخل الشيطان عليكم وعلى كثير من النساك من هذين المدخلين إذ توسعتم في النظر إلى الصور المنهي عن النظر إليها وفي استماع الأقوال والأصوات التي نهيتم عن استماعها ولم يكتف الشيطان بذلك منكم حتى زين لكم أن جعلتم

(١) مر برقم (١) في سورة الفرقان (٣ /٣١٧) .

ما نهيتم عنه عبادة وقربة وطاعة ، وهذه هي لطيفة إبليس فيكم التي تقدم ذكرها وهي قوله : لي فيكم لطيفة السماع وصحبة الأحداث .

الوجه الثاني : أن المراد بالقول في هذه الآية التي احتججتم بها القرآن كما جاء ذلك في قوله : (أفلم يدبروا القول) [المؤمنون :٦٨] وقوله : (ولقد وصلنا لهم القول) [القصص : ٥١]فالقول الذي بشر مستمعيه ومتبعي أحسنه هو القول الذي وصله وحض على تدبره . وكلام الله يفسر بعضه بعضاً ويحمل بعضه على بعض .

الوجه الثالث : أن الألف واللام هنا لتعريف العهد وهو القول الذي دعي إليه المخاطب وأمر بتدبره ، وأخبر بتوصيله له وهو كالكتاب والقرآن ، والألف واللام فيه كالألف واللام في الكتاب سواء وكذلك الألف واللام في الرسول في قوله: (وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) [الفرقان : ٣٠]. وفي قوله : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) [النور : ٦٣] . وقوله : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) [المائدة : ٩٢] . فهل يجوز أن يقال : إن اللام في الكتاب والرسول للاستغراق فتحمل على كل كتاب وعلى كل رسول ؟

الوجه الرابع : أنها وإن كانت للعموم في قوله : ﴿ **الذين يستمعون القول** ﴾ فهي إنما تعم القول الذي أنزل الله ومدحه وأثنى عليه وأمر باتباعه واستماعه وتدبره وفهمه ، فهي تقتضي العموم والاستغراق في جميع هذا القول ، فإنها تقتضي عموم ما عرفته وقصد بمصحوبها .

الوجه الخامس : أن السياق كله من أول السورة إلى هذه الآية إنما هو في القرآن قال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص) فذكر في أول السورة كتابه ودينه والكلم الطيب والعمل الصالح فخير الكلام كتابه وخير العمل إخلاص الدين له ، ثم أعاد ذكر الأصلين في قوله : (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى) [الزمر: ١٧] فهذا إخلاص الدين له، ثم قال: ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾ فهذا كتابه فتضمنت ذكر كتابه ودينه كما تضمنت (ذلك) أول السورة فما لأقوال المغنين والمغنيات

ها هنا ثم قال : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين) [الزمر : ٢٢] . (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) [الزمر : ٢٣] .

فأثنى على أهل السماع والوجد للقول والحديث الذي أنزله ولم يثن سبحانه على مطلق الحديث ومستمعيه ، بل تضمن السياق الثناء على أهل ذكره والاستماع لحديثه كما جمع بينهما في قوله : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) [الحديد : ١٦] . وفي قوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) [الأنفال : ٢] . وهو سبحانه ذكر وبين في الفرقان الأمثال والحجج لنتذكر به ونتعظ ونتدبره ونتفهمه ، فأمرنا باستماعه واتباعه وحض على تدبره وبشر من استمعه واتبع أحسنه وأخبر أنه وصله ليتذكر به .

وأخبر أن من لم يتدبره فقلبه من القلوب التي عليها أقفالها فما لأقوال المغنين والمغنيات وهذا الشأن ثم أعاد سبحانه ذكر القرآن في قوله : (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) [الزمر : ٣٣] . قال البخاري في صحيحه : عن مجاهد قال : (والذي جاء بالصدق) القرآن (وصدق به) المؤمن يجيء يوم القيامة يقول: «هذا الذي أعطيتني عملت بما فيه»[1] فذكر سبحانه الصدق، والمصدق به مثنياً عليه ثم ذكر ضدهما وهما الكاذب والمكذب بالحق وهما نوعان ملعونان من القول ، أعني الكذب والتكذيب بالحق ، فكيف يكون من استمعهما ممدوحاً مستحقاً للثناء ولا ريب أن البدع القولية والسماعية المخالفة لما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق تتضمن أصلين : الكذب على الله والتكذيب بالحق ، بل الانتصار لما خالف ذلك سواء كان سماعاً أو غيره ، يتضمن الأصلين الباطلين .

---

(١) البخاري (٨ / ٤٠٩ - ٤١٠) في التفسير ، باب سورة الزمر .

الوجه السادس : أنه سبحانه قال بعد ذلك : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) [الزمر : ٥٣-٥٥] . فهذا الأحسن الذي أمر باتباعه هنا هو الأحسن الذي بشر من اتبعه في أول السورة وهو أحسن المنزل في الموضوعين ونظير هذا قوله تعالى لموسى في التوراة : (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) .

فهذا كله إذا تدبره المؤمن الناصح لنفسه ؛ علم علماً يقينياً أن الكتاب والقول والحديث الذي أمر الله باستماعه وتدبره وفهمه واتباع أحسنه هو كلامه المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وأما مدح الاستماع لكل قول فهذا لايليق نسبته إلى العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء يوضحه :

الوجه السابع : وهو أن الله سبحانه في كتابه إنما أثنى على المستمعين للقرآن وحمد هذا السماع وذم المعرضين عنه ، وجعلهم أهل الكفر والجهل ، الصم البكم الذين لا يعقلون قال تعالى : (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) [الأعراف : ٢٠٤] . وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) [الأنفال : ٢].

وقال تعالى في حق المنعم عليهم : (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) [مريم : ٥٨] . وقال تعالى : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) [المائدة : ٨٣] . وقال : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً) [الإسراء : ١٠٧] . وقال في

ذم المعرضين عن هذا السماع : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [الأنفال : ٢٢،٢٣] . وقال : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) [البقرة : ١٧١] . وقال : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً) [الفرقان : ٧٣] .

وهذا كثير في القرآن وكتاب الله يبين بعضه بعضاً .

الوجه الثامن : أن المعروف في القرآن إنما هو ذم استماع القول الذي هو الغناء ، كما قال تعالى : (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون) [النجم: ٥٩- ٦١] . قال غير واحد من السلف : هو الغناء يقال : سمد لنا أي غنى لنا .

فذم المعرضين عن سماع القرآن المتعوضين عنه بسماع الغناء ، كما هو حال السماعاتية المؤثرين لسماع المكاء والتصدية على سماع القرآن المتعوضين عنه بسماع الغناء وهم نظير الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات . وقال غير واحد من السلف في قوله تعالى : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) : إنه الغناء.

إنكم معاشر السماعاتية المحتجين بهذه الآية لا تحسنون استماع كل منظوم ومنثور ، بل أنتم من أعظم الناس كراهة لما تحبونه من الأقوال منثورها ومنظومها وأشدهم نفرة عن ذلك ، ونفوركم عما لا تحبونه من الأقوال أعظم من نفور المنازع لكم في سماع المكاء والتصدية فهلا أدخلتم الأقوال التي تخالف أهواءكم وما تحبونه في القول الذي أثنى الله على من استمعه واتبع أحسنه ؛ هذا مع أنه قطعاً أحسن من أقوال المغنين وأنفع للقلب في الدنيا والآخرة ، ولكن ذنب هذا القول مخالفته لهواكم وما ابتدعتموه .

فإن كان العموم في الآية مراداً فقد بطلت حجتكم ، وإن لم يكن مراداً فقد بطلت أيضاً ، فتبين بطلان استدلالكم على التقديرين . وبالله التوفيق .

الوجه العاشر : أنه سبحانه قال : ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول**

فيتبعون أحسنه ﴾ [الزمر : ١٧، ١٨] . فمدحهم باستماع القول واتباع أحسنه ، ومن المعلوم أن كثيراً من القول بل أكثره ليس فيه حسن فضلاً عن أن يكون أحسن بل غالب القول يكب قائله في النار على منخره .

والأقوال التي ذمها الله في كتابه أكثر من أن تعد، كالقول الخبيث، والقول الباطل، والقول عليه بما لا يعلم القائل، والكذب والافتراء والغيبة والتنابز بالألقاب والتناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتبييت ما لا يرضى من القول وقول العبد بلسانه ما ليس في قلبه ، وقوله ما لا يفعله ، وقول اللغو وقول ما لم ينزل به سلطاناً ، والقول المتضمن للشفاعة السيئة والقول المتضمن للمعاونة على الإثم والعدوان وأمثال ذلك من الأقوال المسخوطة والمبغوضة للرب تعالى التي كلها قبيحة لا حسن فيها ولا أحسن فادعاء العموم في الآية في غير القول الذي أنزله الله على رسوله من الكتاب والسنة من أبطل الباطل .

الوجه الحادي عشر : أنه سبحانه علق الهداية على اتباع أحسن هذا القول فقال : ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ ومن المعلوم بالاضطرار أن الهداية إنما حصلت لمن اتبع القرآن ، فهو الذي هداه الله فأين الهدي في أقوال المغنين والمغنيات ؟

وبالجملة ففساد هذا القول ، الذي حملتم عليه كتاب الله وألصقتموه به وهو منه بريء وحملتموه إياه وليس خليقاً بحمله معلوم لكل من في قلبه حياة ونور ، (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) [النور : ٤٠][(١)] .

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩] .

احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له فهل يصح

(١) السماع (٢٣٤ - ٢٤٦) .

في العقول استواء حال العبدين فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق ؟ لا يستويان[1]

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

فهذا مثل ضربه يتضمن قياس الأول يعني إذا كان المملوك فيكم له ملاك مشتركون فيه وهم متنازعون ومملوك آخر له مالك واحد فهل يكون هذا وهذا سواء فإذا كان هذا ليس عندكم كمن له رب واحد ومالك واحد فكيف ترضون أن تجعلوا لأنفسكم آلهة متعددة تجعلونها شركاء لله تحبونها كما يحبونه وتخافونها كما يخافونه وترجونها كما يرجونه[2] .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] .

قال أبو عبد الله بن منده : حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم حدثنا عبد الله ابن حسين الحراني حدثنا جدي أحمد بن شعيب حدثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال : « بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها »[3] وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا الحسين حدثنا عامر حدثنا أسباط عن السدي وفي قوله تعالى: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ قال: يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت فيتذكران ويتعارفان قال : فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها » .

وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس .

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٤٠) .
(٢) مفتاح دار السعادة (٤١٠) .
(٣) رواه الطبري عن سعيد بن جبير (٢٤ / ٩) .

وهذا أحد القولين في الآية وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً والمرسلة من توفيت وفاة النوم والمعنى على هذا القول أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى .

والقول الثاني :في الآية أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توفى وفاة النوم فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله .

واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال : عليه يدل القرآن والسنة ، قال : فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة النوم وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال بل هي قسم ثالث والذي يترجح هو القول الأول ؛ لأنه سبحانه أخبر بوفاتين وفاة كبرى وهي وفاة الموت ووفاة صغرى وهي وفاة النوم ، وقسم الأرواح قسمين قسماً قضى عليها بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفاها وفاة الموت وقسماً لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً فهذه ممسكة وهذه مرسلة وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين وفاة موت ووفاة نوم لم يقل ﴿ **والتي لم تمت في منامها** ﴾ ، فإنها من حين قبضت ماتت وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك : ﴿ **فيمسك التي قضى عليها الموت** ﴾ .

ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى : ﴿ **فيمسك التي قضى عليها الموت** ﴾ بعد أن توفاها وفاة الموت فهو سبحانه توفاها أولاً وفاة نوم ثم قضى عليها الموت بعد ذلك .

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين فإنه سبحانه ذكر وفاتين وفاة نوم ووفاة موت وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة ويرسل نفس من لم يمت فقوله : ﴿ **يتوفى**

الأنفس حين موتها ﴾ يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام(١) .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الزمر : ٤٣ - ٤٤] .

أخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض وهو الله وحده فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه بقوله : (واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) [البقرة : ١٢٣] . وقوله : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) [البقرة : ٢٥٤] . وقال تعالى : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) [الأنعام : ٥١] . وقال : (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع) [السجدة : ٤] . فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه كما قال تعالى : (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) [يونس : ٣] . وقال : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) [البقرة : ٢٥٥] . فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه بل شفيع بإذنه والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور فالشفاعة التي أبطلها الله : شفاعة الشريك فإنه لا شريك له والتي أثبتها شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له ويقول : اشفع في فلان ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه وهم الذين ارتضى الله سبحانه

(١) الروح (٢٠ - ٢١) .

قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] . وقال : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ [طه : ١٠٩] . فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له وإذنه للشافع فيه فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه علقها بأمرين : رضاه عن المشفوع له وإذنه للشافع فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة وسر ذلك : أن الأمر كله لله وحده فليس لأحد معه من الأمر شيء وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده : هم الرسل والملائكة المقربون وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم وأمرهم ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً فهم مملوكون مربوبون أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه فإن هذا محال ممتنع شبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق والرب والمربوب والسيد والعبد والمالك والمملوك والغني والفقير والذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجه إلى غيره فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنتقض طاعتهم ويذهبون إلى غيرهم فلا يجدون بداً من قبول شفاعتهم على الكره والرضى فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته وكل من في السموات والأرض عبيد له مقهورون بقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السموات

والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير) [المائدة : ١٧] . وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي : (له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) [البقرة : ٢٥٥] . وقال ﴿ **قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض** ﴾ [الزمر : ٤٤] . فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه فإنه ليس بشريك بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ويفعلها بعضهم مع بعض ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه فإنه الذي أذن والذي قبل والذي رضي عن المشفوع والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه ومرجوه ومخوفه الذي يتقرب إليه وحده ويطلب رضاه ويتباعد من سخطه هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه قال تعالى : ﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً** ﴾[1] [الزمر : ٤٣،٤٤] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٤٩] .

وقال البغوي[2] : على علم من الله أني له أهل .

وقال مقاتل : على خير علمه الله عندي .

وقال آخرون : على علم من الله أني له أهل . ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه بأني أهله .

وقال آخرون : بل العلم له نفسه ومعناه أوتيته على علم مني بوجوه

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٢٠ – ٢٢٢) .
(٢) تفسير البغوي (٧ / ٧٩) .

المكاسب . قاله قتادة وغيره ، وقيل المعنى : قد علمت أني لما أوتيت هذا في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف . وهذا معنى قول مجاهد أوتيته على شرف . قال تعالى : ﴿ **بل هي فتنة** ﴾ أي : النعم التي أوتيها فتنة نختبره فيها ومحنة نمتحنه بها لايدل على اصطفائه واجتبائه وأنه محبوب لنا مقرب عندنا[١] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر : ٥٣] .

فعباده ها هنا الذين يغفر ذنوبهم جميعاً هم المؤمنون التائبون والانقطاع في هذا قول ابن خروف وهو الصواب .

وقال الزمخشري[٢] : هو متصل وجعل لفظ العباد عاماً ، وقد عرفت غلطه ، وعلى تقدير الانقطاع فإن لم يقدر دخوله في الأول فظاهر وإن قدرنا دخوله فقالوا : تقديره إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ولا على غيرهم إلا من اتبعك من الغاوين ولا يخفى التكلف الظاهر عليه بل الأحسن أن يقال لما ذكر العباد وأضافهم إليه والإضافة يحتمل أن تكون إلى ربوبيته العامة فتكون إضافة ملك وأن تكون إلى إلهيته فتكون إضافة اختصاص ومحبة والغاوون داخلون في العباد عند التعميم والإطلاق لقوله تعالى : (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً) [مريم : ٩٣] . فالأول متناول له بوجه فصح إخراجه[٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [الزمر : ٥٣] . فهي في حق التائب لأنه أطلق وعمم فلم يخصها بأحد ولم يقيدها بذنب ، ومن المعلوم بالضرورة أن الكفر لا يغفره ، وكثير من الذنوب لا يغفرها .

---

(١) شفاء العليل (٣٧) .

(٢) انظر الكشاف للزمخشري (٣ / ٣٥١) .

(٣) بدائع الفوائد (٣ / ٦٧) .

فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم في حق التائب فكل من تاب من أي ذنب كان ؛ غفر له[1] .

وقال أيضاً رحمه الله :

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ، ولكن هذا في حق التائبين خاصة[2] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢].

وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته ، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته ، فإنه الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق وصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال المنزه عن كل صفة نقص ومثال .

والعالم قسمان : أعيان وأفعال ، وهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال كما أنه العالم بتفاصيل ذلك فلا يخرج شيء منه عن علمه ولا عن قدرته ولا عن خلقه ومشيئته .

قالت القدرية : نحن نقول : إن الله خالق أفعال العباد لا على أنه محدثها ومخترعها لكن على معنى أنه مقدرها فإن الخلق التقدير كما قال تعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين) [المؤمنون : ١٤] . وقال الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

أي لأنت تمضي ما قدرته وتنفذه بعزمك وقدرتك وبعض القوم يقدر ثم لا قوة له ولا عزيمة على إنفاذ ما قدره وإمضائه فالله تعالى مقدر أفعال العباد وهم الذين أوجدوها وأحدثوها قال أهل السنة : قدماؤكم ينكرون تقدير الله سبحانه

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٢٦) .
(٢) الجواب الكافي (٢٥٠) .

لأعمال العباد البتة فلا يمكنهم أن يجيبوا بذلك ومن اعترف منكم بالتقدير فهو تقدير لا يرجع إلى تأثير وإنما هو مجرد العلم بها والخبر عنها وليس التقدير عندكم جعلها على قدر كذا وكذا فإن هذا عندكم غير مقدور للرب ولا مصنوع له وإنما هو صنع العبد وإحداثه فرجع التقدير إلى مجرد العلم والخبر وهذا لا يسمى خلقاً في لغة أمة من الأمم ولو كان هذا خلقاً لكان من علم شيئا وعلم أسماءه وصفاته وأخبر عنه بذلك خالقاً له ، فالتقدير الذي أثبتموه إن كان متضمناً للتأثير في إيجاد الفعل فهو خلاف مذهبكم وإن لم يتضمن تأثيراً في إيجاده فهو راجع إلى محض العلم والخبر .

قالت القدرية : قوله الله خالق كل شيء من العام المراد به الخاص ولاسيما فإنكم قلتم : إن القرآن لم يدخل في هذا العموم وهو من أعظم الأشياء وأجلها فخصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم ومنعهم .

قالت أهل السنة : القرآن كلام الله سبحانه وكلامه صفة من صفاته وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق فإن الخالق غير المخلوق فليس ها هنا تخصيص البتة بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالق وكل ما عداه مخلوق وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه إذ ليس إلا الخالق والمخلوق والله وحده الخالق وما سواه كله مخلوق وأما الأدلة الدالة على أن أفعال العباد صنع لهم وإنما أفعالهم القائمة بهم وأنهم هم الذين فعلوها فكلها حق نقول بموجبها ، ولكن لا ينبغي أن تكون أفعالا لهم ومخلوقة مفعولا لله فإن الفعل غير المفعول ولا نقول إنها فعل لله والعبد مضطر مجبور عليها ولا نقول إنها فعل للعبد والله غير قادر عليها ولا جاعل للعبد فاعلاً لها ولا نقول إنها مخلوقة بين مخلوقين مستقلين بالإيجاد والتأثير ، وهذه الأقوال كلها باطلة .

قالت القدرية : يعني قوله تعالى : ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ مما لايقدر عليه غيره وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه وإلا لزم وقوع مفعولين بين فاعلين وهو محال .

قالت أهل السنة : إضافتها إليهم فعلاً وكسباً لا ينفي إضافتها إليه سبحانه

خلقاً ومشيئة فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقه لاستحال وقوعها منهم إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه الله و لم يقدر عليه ولا خلقه[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى : ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر : ٦٢] . ونحو ذلك من الآيات .

فأجاب الأكثرون بأنه عام مخصوص يخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه .

قال ابن عقيل في الإرشاد[٢] : ووقع لي أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله ، قال : لأن به حصل عقد الإعلام بكونه خالقاً لكل شيء وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلاً تحت الخبر قال : ولو أن شخصاً قال : لا أتكلم اليوم كلاماً إلا كان كذباً . لم يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به .

قلت : ثم تدبرت هذا فوجدته مذكوراً في قوله تعالى في قصة مريم : (فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً) [مريم : ٢٦] . وإنما أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها فقولها : (فلن أكلم اليوم إنسيا) به حصل إخبار بأنها لا تكلم الإنس و لم يكن ما أخبرت به داخلاً تحت الخبر وإلا كان قولها هذا مخالفاً لنذرها[٣] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [الزمر : ٦٧] .

فكان هذا رداً على المشركين والمعطلين الجاحدين لتوحيده ولصفاته كما كان

(١) شفاء العليل (٥٣ – ٥٤) .
(٢) « الإرشاد في أصول الدين » انظر : الذيل على طبقات الحنابلة (١ / ١٥٦) .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٢١٨) .

ذلك رداً على منكري كتبه ورسله .

وهذان أصلا الإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهذا الذي وصف به نفسه ها هنا يتضمن من اقتداره على تغيير العالم وتبديله ما يبطل قول أعدائه الملاحدة المكذبين بالمبدأ والمعاد أئمة هؤلاء المعارضين للوحي بالعقل والرأي[1] .

فإن قيل : فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا ؟ قيل : قد قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر : ٦٨] .

فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق فقيل : هم الشهداء هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير .

وقيل : هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . وهذا قول مقاتل وغيره .

وقيل : هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها .

قاله أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة : (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان .

أما قول أهل النار: (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) [غافر: ١١] فتفسير هذه الآية التي في البقرة وهي قوله تعالى : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) [البقرة : ٢٨] . فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور ، وليس في

(١) الصواعق المرسلة (٤ / ١٣٦٣) .

ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها ، ففي الحديث الصحيح « أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور »[1] فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى: (**فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون**) [الطور:٤٥] ولو كان هذا الصعق موتاً لكانت موتة أخرى وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء ، فقال أبو عبد الله القرطبي ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور قال : وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو : ظاهر حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ولما كان هذا قال بعض العلماء يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء ، وهذا باطل .

وقال القاضي عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السموات والأرض قال : فتستقل الأحاديث والآثار .

ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال : يرد هذا قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذاً بقائمة العرش ، قال : وهذا إنما عند نفخة الفزع قال أبو عبد الله : وقال شيخنا أحمد بن عمرو : الذي يزيح هذا الإشكال – إن شاء الله تعالى – أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين وهذه صفة الأحياء في الدنيا وإذا كان هذا في الشهداء

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣ / ٣٣) .
رواه البخاري (١١ / ٣٧٥) في الرقاق ، باب : نفخ الصور .
ومسلم (٥ / ٢٢٥) في الفضائل ، باب : من فضائل موسى عليه السلام .
وابن ماجه (٢ / ٤٢٣) .
وقال الألباني حسن صحيح .

كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء »[1] وأنه صلى الله عليه وآله وسلم « اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصاً بموسى »[2] .

وقد أخبر أنه « ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام »[3] إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا تراهم وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء فموت وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتفق على صحته : « فأكون أول من يفيق » فنبينا أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً لأنه حوسب بصعقة يوم الطور وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقاً، لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً. انتهى.

---

(١) حديث صحيح .
رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤ / ٨) .
وأبو داود (٣ / ٣٧٠ – ٣٧١) في الصلاة ، تفريع أبواب الجمعة باب : فضل يوم الجمعة وليلتها .
والنسائي (٣ / ٩١ – ٩٢) في الجمعة ، باب : إكثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة .
وابن ماجه (١ / ١٧٨) صحيح ابن ماجه .
في الصلاة ، باب : فضل الجمعة – كلهم من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه .
وصححه الألباني كما في فضل الصلاة ، برقم (٢٢ / ٢٣) والإرواء (١ / ٣٤)

(٢) سبق التعليق عليه .

(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢ / ٥٢٧) .
وأبو داود (٦ / ٣١) في المناسك ، باب زيارة القبور .
قال النووى في رياض الصالحين : « إسناده صحيح » (رقم ١٤٠٩) .
وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٥ / ٣٣٨) برقم (٢٢٦٦) .

قال أبو عبد الله القرطبي : إن حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال ، وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله فالمعنى إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور .

قلت : وحمل الحديث على هذا لا يصح لأنه صلى الله عليه وآله وسلم تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزي بصعقة الطور فالمعنى لا أدري أصعق أم لم يصعق وقد قال في الحديث فأكون أول من يفيق وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم يصعق فيمن يصعق ، وأنّ التردد حصل في موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان صلى الله عليه وآله وسلم قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت وهذا باطل لوجوه كثيرة فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت ، وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية . والله أعلم .

فإن قيل : فكيف تصنعون بقوله في الحديث « إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عليه الأرض فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش » .

قيل : لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا والحديثان هكذا :

أحدهما : « إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق » .

والثاني : هكذا : « أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة » . ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح[1] .

فدخل على الراوي هذا الحديث في الحديث الآخر وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ[2] يقول ذلك (فإن قيل) فما تصنعون بقوله : « فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل » والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة لا من صعقة يوم القيامة كما قال الله تعالى : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة قيل : هذا – والله أعلم – غير محفوظ وهو وهم من بعض الرواة[3] والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله : « فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة وأن موسى داخل فيمن استثنى منها وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعاً ، فإن الإفاقة حينئذ هي إفاقة البعث فكيف يقول : لا أدري أبعث قبلي أم جوزي بصعقة الطور فتأمله وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم فإنهم يصعقون جميعاً وأما موسى صلى الله عليه وسلم فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكاً فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة فتأمل هذا المعنى العظيم ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقاً أن يعض عليه بالنواجذ ولله الحمد والمنة وبه التوفيق[4] .

---

(١) رواه الترمذي (٥ / ٥٤٨) في المناقب ، باب : في فضل النبي صلى الله عليه وسلم .
وابن ماجه (٢ / ٤٣٠) صحيح ابن ماجه للألباني في الزهد ، باب : ذكر الشفاعة .
وانظر : الصحيحة حديث رقم (١٥٧٢) .

(٢) ما نقله ابن القيم عن المزي – رحمهما الله تعالى – ذكره ابن حجر في فتح الباري دون تعليق (٦ / ٥١٢) في أحاديث الأنبياء ، في ذكر موسى عليه السلام .

(٣) انظر فتح الباري (٦ / ٥١٣) ، وفيه بحث نفيس لابن حجر رحمه الله تعالى .

(٤) الروح لابن القيم (٣٥ – ٣٧) .

قول الله تعالى ذكره: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر : ٦٩] .

فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقت بنوره الأرض وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر ، فإن الشمس تكور والقمر يخسف ويذهب نورهما وحجابه تبارك وتعالى النور . قال أبو موسى : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : « إن الله لا ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[1] ثم قرأ : (أن بورك من في النار ومن حولها) [النمل : ٨] . فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره[2] .

السر في حذف الواو في قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ [الزمر : ٧١] . ففاجأهم وبغتهم عذابها وما أعد الله فيها فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر إلا أنه متوقع منه شراً عظيماً ففتح في وجهه وفاجأه ما كان يتوقعه وهذا كما تجد في الدنيا من يساق إلى السجن فإنه يساق إليه وبابه مغلق حتى إذا جاءه فتح الباب في وجهه ففاجأته روعته وألمه بخلاف ما لو فتح له قبل مجيئه وهذا بخلاف أهل الجنة فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار فيجيء فيلقاه مفتوحاً فلا يلحقه ألم الانتظار فقال في أهل الجنة : ﴿ **حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها** ﴾ وحذف الجواب تفخيماً لأمره وتعظيماً لشأنه على عادتهم في حذف الجوابات لهذا المقصد وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو ، ومن دعوى كونها واو الثمانية ، لأن أبواب الجنة ثمانية فإن هذا لو صح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة في اللفظ واحداً بعد واحد فينتهون إلى السبعة ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو وهنا لا ذكر للفظ الثمانية في الآية ولا عدها فتأمله .

---

(١) رواه مسلم (١ / ٤٧٦) في الإيمان ، باب : الشفاعة ، عن أنس رضي الله عنه .
(٢) الوابل الصيب (٧٣ - ٧٤) .

على أن في كون الواو تجيء للثمانية كلام آخر قد ذكرناه في الفتح المكي وبينا المواضع التي ادعي فيها أن الواو للثمانية وأين يمكن دعوى ذلك وأين يستحيل .

فإن قيل : فهذا ينتقض عليكم بأن سيد الخلائق صلى الله عليه وسلم « **يأتي باب الجنة فيلقاه مغلقاً حتى يستفتحه** » قلنا : هذا من تمام إظهار شرفه وفضله على الخلائق أن الجنة تكون مغلقة فلا تفتح لأهلها إلا على يديه فلو جاءها وصادفها مفتوحة فدخلها هو وأهلها لم يعلم الداخلون أن فتحها كان على يديه ، وأنه هو الذي استفتحها لهم ألا ترى أن الخلق إذا راموا دخول باب مدينة أو حصن وعجزوا ولم يمكنهم فتحه حتى جاء رجل ففتحه لهم أحوج ما كانوا إلى فتحه كان في ذلك من ظهور سيادته عليهم وفضله وشرفه ما لا يعلم لو جاء هو وهم فوجدوه مفتوحاً وقد خرجنا عن المقصود وما أبعدنا ولا تستطل هذه النكت فإنك لا تكاد تجدها في غير هذا التعليق والله المان بفضله وكرمه[1] .

قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر : ٧١] . وكلمته سبحانه إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم فحقت عليهم كلمة حجته وكلمة عدله بعقوبته[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر : ٧٣] .

فأتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية وقال في النار ﴿ **حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها** ﴾ [الزمر : ٧١] . لما كانت سبعة وهذا في غاية البعد ولا دلالة في اللفظ على الثمانية حتى تدخل الواو لأجلها بل هذا من باب حذف الجواب لنكتة بديعة وهي أن تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها ففتحت في وجوههم

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٧٤ - ١٧٥) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٢١٩) .

لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه . وأما الجنة فلما كانت ذات الكرامة وهي مأدبة الله وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب أتى بالواو العاطفة ها هنا الدالة على أنها جاءوها بعد ما فتحت أبوابها وحذف الجواب تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقدره كعادتهم في حذف الأجوبة وقد أشبعنا الكلام على هذا فيما تقدم . والله أعلم[1] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقال في صفة النار : (حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) [الزمر : ٧١] . بغير واو فقالت طائفة : هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو وهذا قول ضعيف لا دليل عليه ولا تعرفه العرب ولا أئمة العربية وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين .

وقالت طائفة أخرى : الواو زائدة والجواب الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية . وهذا أيضاً ضعف فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة .

وقالت طائفة ثالثة : الجواب محذوف وقوله : وفتحت أبوابها عطف على قوله : جاءوها وهذا اختيار أبي عبيدة ، والمبرد ، والزجاج وغيرهم قال المبرد : وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم ، قال أبو الفتح ابن جني : وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه ويرون أن الجواب محذوف للعلم به بقي أن يقال : فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة وذكره في آية أهل النار ؟ فقال : هذا أبلغ في الموضعين فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم فيفجؤهم العذاب بغتة فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٥٤ : ٥٥) .

بلا مهلة فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط أن يكون عقيبه فإنها دار الإهانة والخزي فلم يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول ، وأما الجنة فإنها دار الله ودار كرامته ومحل خواصه وأوليائه فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم فيقول : « أنا لها فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجداً لربه فيدعه ما شاء أن يدعه ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيماً لخطرها وإظهاراً لمنزلة رسوله وكرامته عليه »[1]

وإن مثل هذه الدار التي هي دار ملك الملوك رب العالمين إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى إليها وما ركبه من الأطباق طبقاً بعد طبق وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم وهذا أبلغ وأعظم ، في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء فجنة الله عالية غالية بين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار ما لا تنال إلا به فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ولهذه الدار فليعد عنها إلى ما هو أولى به وقد خلق له وهيىء له وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير ، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً ويفرح بعضهم ببعض . وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمراً يلعن بعضهم بعضاً ويتأذى بعضهم ببعض وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحداً واحداً فلا تهمل تدبر قوله زمراً .

---

(١) رواه البخاري (١٣ / ٤٨١ - ٤٨٢) في التوحيد ، باب : كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء ...

ومسلم (١ / ٤٦٤ - ٤٦٨) في الإيمان ، باب : الشفاعة .

وقال خزنة الجنة لأهلها : (سلام عليكم) فبدءوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه أي سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون ثم قالوا لهم : ﴿ **طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ أي سلامتكم ودخلوها بطيبكم فإن الله حرمها إلا على الطيبين فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود ، وأما أهل النار فإنهم لما انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها وزيدوا على ما هم عليه من توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم : ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ [الزمر : ٧١] .

فاعترفوا وقالوا بلى فبشروهم بدخولها والخلود فيها وأنها بئس المثوى لهم .

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها : ادخلوها وقول خزنة النار لأهلها : ادخلوا أبواب جهنم ، تجد تحته سراً لطيفاً ومعنى بديعاً لا يخفى على المتأمل وهو : أنها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أفظع شيء وأشده حراً وأعظمه غماً يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها ويدنو من الغم والحزن والكرب بدخول الأبواب فقيل : ادخلوا أبوابها صغاراً لهم وإذلالاً وخزياً ، ثم قيل لهم : لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ولكن وراءها الخلود في النار وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه فبشروا من أول وهلة والدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] .

فحذف فاعل القول لأنه غير معين بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه ، فيحمده أهل السموات وأهل الأرض والأبرار والفجار والإنس والجن حتى أهل النار ، قال الحسن أو غيره : « لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً » .

---

(١) حادي الأرواح (٥١ – ٥٤) .

وهذا والله أعلم هو السر الذي حذف لأجله الفاعل في قوله : ﴿ **قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ [الزمر : ٧٢] . وقوله : (وقيل ادخلا النار مع الداخلين) [التحريم : ١٠] . كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم والله تعالى أعلم بالصواب[1]

قول الله تعالى ذكره: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] .

فأخبر عن حمد الكون أجمعه له عقيب قضائه بالحق بين الخلائق وإدخال هؤلاء إلى جنته وهؤلاء إلى ناره وحذف فاعل الحمد إرادة لعمومه وإطلاقه حتى لا يسمع إلا حامد له من أوليائه وأعدائه : كما قال الحسن البصري : « لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلاً »[2] .

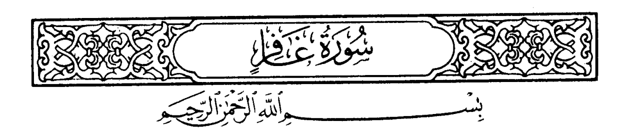
* * *

(١) روضة المحبين (٧٤ - ٧٥) .

(٢) الصواعق المرسلة (٤ / ١٤٩٦ - ١٤٩٧) .

سُورَةُ غَافِرٍ





بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول ﴾ [غافر : ١-٣] .

فأتى بالواو في الوصفين الأولين وحذفها في الوصفين الأخيرين ، لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما فمن غفر الذنب قبل التوب فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان وفعلان متغايران ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه .

أحدهما : يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة .

والثاني : يتعلق بالإحسان والإقبال على الله والرجوع إليه وهو التوبة فتقبل هذه الحسنة وتغفر تلك السيئة وحَسَّنَ العطف ها هنا هذا التغاير الظاهر وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن ، ولهذا جاء العطف في قوله : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) [الحديد : ٣] . وترك في قوله : (الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن) [الحشر : ٢٣] وقوله : (الخالق البارئ المصور) [الحشر : ٢٤] . وأما ﴿ **شديد العقاب ذي الطول** ﴾ فترك العطف بينهما لنكتة بديعة وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول وطوله لا ينافي شدة عقابه بل هما مجتمعان له ، بخلاف الأول والآخر فإن الأولية لا تجامع الآخرية ولهذا فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء »[1] فأوليته أزليته وآخريته

(١) رواه مسلم (٥ / ٥٦٤ - ٥٦٥) في الدعوات ، باب : الدعاء عند النوم .
والترمذي (٣ / ١٦٤) في الدعوات باب رقم (٦٨) الصحيح .
وابن ماجه (٢ / ٣٣٣) في الدعوات باب : ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه ، كلهم من حديث =

أبديته[١] .

قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ [غافر : ٣] .

فعطف في الاسمين الأولين دون الآخرين . فقال السهيلي : إنما حسن العطف بين الاسمين الأولين لكونهما من صفات الأفعال وفعله سبحانه في غيره لا في نفسه ، فدخل حرف العطف للمغايرة الصحيحة بين المعنيين ، ولتنزلهما منزلة الجملتين ، لأنه يريد تنبيه العباد على أنه يفعل هذا ويفعل هذا ، ليرجوه ويُؤمِّلوه ثم قال : ﴿ **شديد العقاب** ﴾ ، بغير واو ، لأن الشدة راجعة إلى معنى القوة والقدرة وهو معنى خارج عن صفات الأفعال فصار بمنزلة قوله : (العزيز العليم) وكذلك قوله : ﴿ **ذي الطول** ﴾ **لأن لفظ ذي عبارة عن ذاته**[٢] **هذا** جوابه وهو كما ترى غير شاف ولا كاف فإن شدة عقابه من صفات الأفعال وطوله من صفات الأفعال ولفظة ﴿ **ذي** ﴾ فيه لا تخرجه عن كونه صفة فعل كقوله : (عزيز ذو انتقام) بل لفظ الوصف بغافر وقابل أدل على الذات من الوصف بذي لأنها بمعنى صاحب كذا . فالوصف المشتق أدل على الذات من الوصف بها فلم يشف جوابه بل زاد السؤال سؤالا . فاعلم أن هذه الجملة مشتملة على ستة أسماء كل اثنين منها قسم فابتدأها بالعزيز العليم وهما اسمان مطلقان وصفتان من صفات ذاته وهما مجردان عن العطف . ثم ذكر بعدهما اسمين من صفات أفعاله فأدخل بينهما العاطف ثم ذكر اسمين آخرين بعدهما وجردهما من العاطف ، فأما الأولان فتجردهما من العاطف لكونهما مفردين صفتين جاريتين على اسم الله وهما متلازمان فتجريدهما عن العطف هو الأصل وهو موافق لبيان ما في الكتاب العزيز من ذلك كالعزيز العليم والسميع والبصير والغفور الرحيم وأما : ﴿ **غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ فدخل العاطف بينهما لأنهما في معنى الجملتين وإن كانا مفردين لفظا فهما يعطيان معنى يغفر الذنب ويقبل التوب أي هذا شأنه ووصفه في كل

= أبي هريرة رضي الله عنه . ورواه غيرهم .

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٥٢ - ٥٣) .

(٢) انظر « نتائج الفكر » للسهيلي رحمه الله تعالى (٢٣٩ - ٢٤٠) .

وقت فأتى بالاسم الدال على أن هذا وصفه ونعته المتضمن لمعنى الفعل الدال على أنه لا يزال يفعل ذلك فعطف أحدهما على الآخر على نحو عطف الجمل بعضها على بعض ولا كذلك الاسمان الأولان ولما لم يكن الفعل ملحوظا في قوله : ﴿ **شديد العقاب ذي الطول** ﴾ إذ لا يحسن وقوع الفعل فيهما وليس في لفظ ﴿ **ذي** ﴾ ما يصاغ منه فعل جرى مجرى المفردين من كل وجه و لم يعطف أحدهما على الآخر كما لم يعطف في العزيز العليم فتأمله فإنه واضح وأما العطف في قوله : (الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى) فلما كان المقصود الثناء عليه بهذه الأفعال وهي جملة دخلت الواو عاطفة جملة ، على جملة وإن كانت الجملة مع الموصول في تقدير المفرد فالفعل مراد مقصود والعطف يصير كلا منها جملة مستقلة مقصودة بالذكر بخلاف ما لو أتى بها في خبر موصول واحد فقيل : (الذي جعل لكم الأرض مهادا ، ونزل من السماء ماء ، وخلق الأزواج كلها) كانت كلها في حكم جملة واحدة فلما غاير بين الجمل بذكر الاسم الموصول في كل جملة دل على أن المقصود وصفه بكل من هذه الجمل على حدتها وهذا قريب من باب قطع النعوت والفائدة هنا كالفائدة ثم .

وقد تقدمت الإشارة إليها فراجعها بل قطع النعوت إنما كان لأجل هذه الفائدة فذلك المقدر في النعوت المقطوعة لهذا المحقق في النعوت المعطوفة والحمد لله على ما من به وأنعم فإنه ذو الطول والإحسان .

تتمة : تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفتي رحمة قبله وصفة رحمة بعده . فقبله ﴿ **غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ وبعده ﴿ **ذي الطول** ﴾ ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي »[1] وفي لفظ « سبقت غضبي »[2] وقد سبقت صفتا الرحمة هنا وغلبت .

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (١٣ / ٣٩٥) باب : قول الله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ . ومسلم (٥ / ٥٩٠) في التوبة ، باب : سعة رحمة الله تعالى .

(٢) رواه البخاري (١٣ / ٤١٤) في التوحيد ، باب : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ . ومسلم المصدر السابق .

وتأمل كيف افتتح الآية بقوله : ﴿ **تنزيل الكتاب** ﴾ والتنزيل يستلزم علو المنزل من عنده لا تعقل العرب من لغتها بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك .

وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه . فهذا يدل على شيئين :

أحدهما : علوه تعالى على خلقه .

والثاني : أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره فإنه أخبر أنه منه وهذا يقتضي أن يكون منه قولاً كما أنه منه تنزيلاً فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير فإن الكلام إنما يضاف إلى المتكلم به ومثل هذا : (ولكن حق القول مني) ومنه : (قل نزله روح القدس من ربك) ومثله : (تنزيل من حكيم حميد) فاستمسك بحرف (من) في هذه المواضع فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية .

وتأمل كيف قال ﴿ **تنزيل من** ﴾ ولم يقل تنزيله فتضمنت الآية إثبات علوه وكلامه وثبوت الرسالة ثم قال : ﴿ **العزيز العليم** ﴾ فتضمن هذان الاسمان صفتي القدرة والعلم وخلق أعمال العباد وحدوث كل ما سوى الله لأن القدرة هي قدرة الله كما قال « أحمد بن حنبل » فتضمنت إثبات القدر ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه أو أن يشاء ما لا يكون فكأن عزته تبطل ذلك وكذلك كمال قدرته توجب أن يكون خالق كل شيء وذلك ينفي أن يكون في العالم شيء قديم لا يتعلق به خلقه لأن كمال قدرته وعزته يبطل ذلك .

ثم قال : ﴿ **غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ مخالفة شرعه وأمره فتضمن هذان الاسمان إثبات شرعه وإحسانه وفضله ، ثم قال : ﴿ **شديد العقاب** ﴾ وهذا جزاؤه للمذنبين و ﴿ **ذو الطول** ﴾ جزاؤه للمحسنين فتضمنت الثواب والعقاب ثم قال : ﴿ **لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ فتضمن ذلك التوحيد والمعاد فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو والكلام والقدرة والعلم والقدر وحدوث العالم والثواب والعقاب والتوحيد والمعاد . وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله يتضمن الرسالة والنبوة فهذه عشر قواعد الإسلام والإيمان تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة

ولكن حور تزف إلى ضرير مقعد فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءاتك لها وسماعك إياها وهكذا سائر آيات القرآن فما أشدها من حسرة وأعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه . فالله المستعان[1] .

وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم فمن الأول :

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر : ٧] .

ومن الثاني : (والله عليم حليم) [النساء : ١٢] . فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم ومن رحمة إلى علم وحملة العرش أربعة اثنان يقولان : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك واثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك »[2] . فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم لأن العفو إنما يحسن عند القدرة وكذلك الحمد والرحمة إنما يحسنان مع العلم وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله : ﴿ **ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما** ﴾ ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير ، ولما كان دفع الشر مقدما على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع . ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور[3] .

---

(١) بدائع الفوائد (١ / ١٩١ - ١٩٤) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧ / ٢٧٤) عن هارون بن رئاب بلفظ : « حملة العرش ثمانية ... » وقال : أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان .
وذكره ابن كثير (٤ / ٧٨) عند تفسير الآية عن شهر بن حوشب .

(٣) بدائع الفوائد (١ / ٨٠) .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

قوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

فهذه رحمة الصفة التي وسعت كل شيء كما قال تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء) وسعتها عموم تعلقها بكل شيء كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلقه بكل معلوم[1] .

ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم : ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ [غافر : ٩] .

فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء وإن كان قوله : ﴿ **ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته** ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ .

فإن قيل : فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها : الأعمال السيئة يكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم[2] .

ولا يرد على هذا قوله : ﴿ **يومئذ** ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم وهي سيئات في أنفسها قيل : وقاية السيئات نوعان .

أحدهما : وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه .

والثاني : وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها ، فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٨٥) .

(٢) مر برقم (١) في سورة النساء (٢ /٤٤) ، وهو حديث خطبة الحاجة .

بالاستغفار لهم وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله تعالى بسعة علمه وسعة رحمته فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها وعلمه بهم ، إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه وأنه يحب العفو والمغفرة ؛ وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله[1] .

وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته ، فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل التي يحبها ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها . وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب من جملتها : دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالهم. وأقام ملائكته يدعون لهم بها.

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة : ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك فإن العزة كمال القدرة والحكمة كمال العلم ، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما شاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال شيخنا : وهذا أشبه إذا أريد السيئات من الأعمال ، فإن أريد ما وقع منها فالاستعاذة إنما تكون من عقوباتها . إذ الواقع من شر النفس ، وأيضاً

---

(١) الجواب الكافي (١٦٩ - ١٧١) .

(٢) الجواب الكافي (١٦٩ - ١٧١) .

فلا يقال في هذه التي لم توجد بعد سيئات أعمالنا فإنها لم تكن بعد أعمالا فضلا عن أن تكون سيئات ، وإضافة الأعمال إلينا تقتضي وجودها إذ لم يوجد بعد ليس هو من أعمالنا إلا أن يقال : من سيئات الأعمال التي إذا عملناها كانت سيئات . ولمن رجح التقدير الثاني أن يقول : العقوبات ليست لجميع الأعمال بل للمحرمات منها والأعمال أعم ، وحملها على المحرمات خاصة خلاف ظاهر اللفظ : بخلاف ما إذا كانت الإضافة على معنى « من » فتكون الأعمال على عمومها والسيئات بعضها فتكون السيئات على عمومها ويترجح أيضاً أن الاستعاذة تكون قد اشتملت على أصول الشر كله وهو شر النفس الكامن فيها الذي لم يخرج إلى العمل وشر العمل الخارج الذي سولته النفس فالأول شر الطبيعة والصفة التي في النفس والثاني شر العمل المتعلق بالكسب والإرادة ويلزم من المعافاة من هذين الشرين المعافاة من موجبهما وهو العقوبة فتكون الاستعاذة قد شملت جميع أنواع الشر بالمطابقة واللزوم ، وهذا هو اللائق بمن أوتي جوامع الكلم ، فإن هذا من جوامع كلمه البديعة العظيمة الشأن التي لا يعرف قدرها إلا أهل العلم والإيمان[1] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [غافر : ٣٧] .

قرأ أهل الكوفة على البناء للمفعول حملا على زين وقرأ الباقون وصد بفتح الصاد ويحتمل وجهين :

أحدهما : أعرض فيكون لازماً .

والثاني : يكون صد غيره فيكون متعديا والقراءتان كالآيتين لا يتناقضان وأما الشد على القلب ففي قوله تعالى : (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ﴾ [يونس : ٨٨،٨٩] . فهذا الشد على القلب هو الصد والمنع . ولهذا قال

(١) طريق الهجرتين (٨٨ - ٨٩) .

ابن عباس : يريدا منعها والمعنى قسها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان وهذا مطابق لما في التوراة أن الله سبحانه قال لموسى : اذهب إلى فرعون فإني سأقسي قلبه فلا يؤمن حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر وهذا الشد والتقسية من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم كعقوبته لهم بالمصائب ولهذا كان محمودا عليه فهو حسن منه وأقبح شيء منهم فإنه عدل منه وحكمة وهو ظلم منهم وسفه فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غني عليم يضع الخير والشر في أليق المواضع بهما والمقضي المقدر يكون ظلماً وجوراً وسفهاً وهو فعل جاهل ظالم سفيه[١] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : ٣٨-٤٠] .

ألا ترى كيف قال : ﴿ **أهدكم سبيل الرشاد** ﴾ فأبهم سبيل الرشاد فلم يبين أي سبيل هو ، ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها لأن الإخلاد إليها أصل الشر كله ، ثم ثنى ذلك بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها وأنها هي الوطن المستقر ، ثم ثلث بذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منها ليثبط عما يتلف ، وينشط لما يزلف ، فكأنه قال : سبيل الرشاد هو الإعراض عن الدنيا والرغبة في الآخرة والامتناع عن الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها والمسارعة إلى الأعمال الصالحة رجاء المجازاة عليها[٢] .

قول الله تعالى ذكره في حقهم: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] .

وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك ، لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعاً له فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه وغرهم فاتبعوه ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد ، قال تعالى : (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) [هود : ٩٨] .

---

(١) شفاء العليل (٩٦ – ٩٧) .
(٢) الفوائد المشوق (١٧٩ – ١٨٠) .

والمقصود : أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم وصدهم عن سبيل الله وعقوبتهم من آمن بالله فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم ولهذا كان في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لهرقل : « فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين »[١] .

والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع ، ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذاباً وهو أول من يكسى حلة من النار لأنه إمام كل كفر وشرك وشر . فما عصي الله إلا على يديه وبسببه ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته ولاريب أن الكفر يتفاوت فكفر أغلظ من كفر . كما أن الإيمان يتفاوت فإيمان أفضل من إيمان فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة ، بل هم درجات عند الله ، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما أن الجنة درجات ولا يظلم الله من خلقه أحداً وهو الغني الحميد[٢] .

قال تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر : ٥٥] . فالإبكار أول النهار والعشي آخره[٣] .

وأما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] .

وأن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة ، ففي غاية الفساد فإن **المراد من الخلق ها هنا الفعل لانفس المفعول وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد أي** أن الذي خلق السموات والأرض وخلقها أكبر من خلقكم كيف يعجزه خلقكم بعد ما تموتون خلقاً جديداً ونظير هذا في قوله في سورة يس : (أو ليس الذي

---

(١) رواه البخاري (١ / ٤٢ – ٤٤) في بدء الوحي ، باب : رقم (٦) .
ومسلم (٤ / ٣٩١ – ٣٩٨) في الجهاد ، باب : كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابه إلى هرقل .
والترمذي (٥ / ٦٥) في الاستئذان ، باب : ما جاء كيف يكتب إلى أهل الكتاب كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنه .
(٢) طريق الهجرتين (٣٨٠ – ٣٨١).
(٣) الوابل الصيب (١٢٧) .

خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) [يس : ٨١] . أي مثل هؤلاء المنكرين فهذا استدلال بشمول القدرة للنوعين وأنها صالحة لهما فلا يجوز أن يثبت تعلقها بأحد المقدورين دون الآخر فكذلك قوله : ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس** ﴾ أي من لم تعجز قدرته عن خلق العالم العلوي والسفلي كيف يعجز عن خلق الناس خلقاً جديداً بعد ما أماتهم ولا تعرض في هذه الأحكام النجوم بوجه قط ولا لتأثير الكواكب[1] .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر : ٦٩-٧٦] .

وأنت إذا تأملت أقوال هؤلاء وسيرتهم رأيت هذه الآيات منطبقة عليهم وهم المرادون بها ، ومن أعظم الجدال في آيات الله جدال من يعارض النقل بالعقل ثم يقدمه عليه فإن جداله يتضمن أربع مقامات :

أحدها : أنه تبين أن الأدلة النقلية من الكتاب والسنة لا تفيد علماً ولا يقيناً.

الثاني : أن ظاهرها يدل على الباطل والتشبيه والتمثيل .

الثالث : أن صريح العقل يخالفها .

الرابع : أنه يتعين تقديمه عليها ، ولا يصل إلى هذه المقامات إلا بأعظم الجدال . فهو مراد بهذه الآيات قطعاً وأعمالهم شاهدة عليهم لمن لم يطلع على حقيقة أقوالهم وهي التكبر والتجبر والفرح في الأرض بغير الحق والمرح وطلب العلو في الأرض والفساد ولا تجد من يعارض الوحي بالعقل ويقدمه عليه إلا بهذه المنزلة فهذه علومهم وعقائدهم ، وهذه إرادتهم وأعمالهم[2] .

* * *

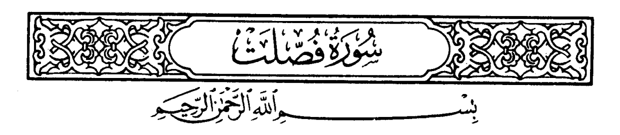
(١) مفتاح دار السعادة (٥٤١ – ٥٤٢) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣ / ١١٣٠ – ١١٣١) .



سُورَةُ فُصِّلَتْ





بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [فصلت : ٣و٤] .

وصف القرآن بالبشارة والنذارة وكلاهما بعض من أبعاضه لاشتماله على الأمر والنهي والحدود والحلال والحرام وسائر الأحكام ونسبة البشارة والنذارة إليه مجازية أيضا[1] .

قال تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت : ٧] .

أي لا يأتون ما تزكى به أنفسهم من التوحيد والإيمان ولهذا فسرها غير واحد من السلف بأن قالوا : ﴿ **لا يؤتون الزكاة** ﴾ لايقولون لا إله إلا الله ، فعبادة الله وحده لا شريك له وأن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه هو أعظم وصية جاءت بها الرسل ودعوا إليها الأمم[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم : هي التوحيد : شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وذلك طهارته وإثبات إلهيته سبحانه وهو أصل كل زكاة ونماء فإن التزكي – وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة – فإنه إنما يحصل بإزالة الشر . فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعاً فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح :

---

(١) الفوائد المشوق (٢٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٥٧) .

هو التوحيد . والتزكية : جعل الشيء زكياً إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه كما يقال : عدلته وفسقته إذا جعلته كذلك في الخارج وفي الاعتقاد والخبر[1] .

قوله تعالى : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت : ٩-١٠] .

فهي أربعة باليومين الأولين ولولا ذلك لكانت أيام التخليق ثمانية[2] .

وأما وصفه تعالى بعض الأيام بأنها أيام نحس كقوله : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت : ١٦] .

فلا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياماً نحسات عليهم لأن النحس أصابهم فيها وإن كانت أيام خير لأوليائه المؤمنين فهي نحس على المكذبين سعد للمؤمنين وهذا كيوم القيامة فإنه عسير على الكافرين يوم نحس لهم يسير على المؤمنين يوم سعد لهم .

قال مجاهد : أيام نحسات مشائيم .

وقال الضحاك : معناه شديد أي شديد البرد حتى كان البرد عذابا لهم .

قال أبو علي وأنشد الأصمعي في النحس بمعنى البرد :

كأن سلافه مزجت بنحس يحيل شفيفها الماء الزلالا

وقال ابن عباس : نحسات : متتابعات وكذلك قوله : (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر) [القمر : ١٩] . وكان اليوم نحساً عليهم لإرسال العذاب عليهم أي لا يقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن أهلها بل هذا النحس دائم على هؤلاء المكذبين للرسل . ومستمر : صفة للنحس لا لليوم ومن ظن أنه

---

(١) إغاثة اللهفان (٤٩) .

(٢) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٧) .

صفة اليوم وأنه كان يوم أربعاء آخر الشهر وأن هذا اليوم نحس[١] . أبداً فقد غلط وأخطأ فهم القرآن فإن اليوم المذكور بحسب ما يقع فيه وكم لله من نعمة على أوليائه في هذا اليوم وإن كان له فيه بلايا ونقم على أعدائه ، كما يقع ذلك في غيره من الأيام فسعود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل . واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفة كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين ويوم نحس على الكافرين .

فما للكوكب والطالع والقرانات وهذا السعد والنحس وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع لكان نحساً على العالم فأما أن يقتضي الكوكب نحساً لطائفة سعداً لطائفة فهذا هو المحال[٢] .

قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت : ٢٤] .

وأما استعتب فللطلب أي طلب الإعتاب فهو لطلب مصدر الرباعي الذي هو أعتب أي أزال عتبه لا طلب الثلاثي الذي هو العتب .

أي وإن يطلبوا إعتابنا وإزالة عتبنا عليهم ويقال : عتب عليه إذا أعرض عنه وغضب عليه ، ثم يقال : استعتب السيد عبده أي طلب منه أن يزيل عتب نفسه عنه بعوده إلى رضاه ، فأعتبه عبده أي أزال عتبه بطاعته ويقال : استعتب العبد سيده أي طلب منه أن يزيل غضبه وعتبه عنه ، فأعتبه سيده أي :

---

(١) رحم الله تعالى هذا الإمام النابه الحكيم ، فهذا من أفسد الأخلاق المبثوثة بين الناس ممن يدّعون – للأسف – الحضارة والمدنية شرقاً وغرباً ، ولا يتحرك أحدهم إلا بعد النظر في برجه وقراءة ما اطلع عليه منجمه – زعم – من غيب ، وما هذا إلا نوع من عبادة الشياطين واتباع الضالين والزنادقة الملحدين ، عن دين الله يصدون ، وللشرك يدفعون ، وأتباعهم في غفلة ساهون سكارى حائرون . فهذا ديننا يعلمنا حسن التوكل مع الحكمة في الأخذ بالأسباب ، ويحرم على المسلم الانصراف إلى هذه الضلالات فلا فأل إلا فأل الله ولا طير إلا طيره ولا إله غيره . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(٢) مفتاح دار السعادة (٥٣٧) .

فأزال عتب نفسه عنه وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ **وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** ﴾ أي وإن يطلبوا إعتابنا وهو إزالة عتبنا عنهم فما هم من المزال عتبهم لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم ولا يقبل فيها توبتهم وقوله : (لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون) أي لا يطلب منها إعتابنا وإعتابه تعالى إزالة عتبه بالتوبة والعمل الصالح فلا يطلب منهم يوم القيامة أن يعتبوا ربهم فيزيلوا عتبه بطاعته واتباع رسله وكذلك قوله : (فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) [الروم:٧٥] وقول النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الطائف: «لك العتبى »[1] هو اسم من الإعتاب لا من العتب أي أنت المطلوب إعتابه ولك عليَّ أن أعتبك وأرضيك بطاعتك فافعل ما ترضى به عني ، وما يزول به عتبك عليَّ . فالعتب منه على عبده والعتبى والإعتاب له من عبده فها هنا أربعة أمور :

العتب : وهو من الله تعالى ، فإن العبد لا يعتب على ربه فإنه المحسن العادل فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم ومن ظن من المفسرين خلاف ذلك فقد غلط أقبح غلط .

الثاني : الإعتاب وهو من الله ومن العبد باعتبارين فإعتاب الله عبده إزالة عتب نفسه عن عبده ، وإعتاب العبد ربه إزالة عتب الله عليه والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي تزول بها عتب الله عليه .

الثالث : الاستعتاب وهو من الله أيضاً ومن العبد بالاعتبارين فالله يستعتب عباده أي يطلب منهم أن يعتبوه ويزيلوا عتبه عليهم ومنه قول ابن مسعود وقد وقعت الزلزلة بالكوفة : « إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه » والعبد يستعتب ربه أي يطلب منه إزالة عتبه .

---

(١) رواه ابن إسحاق دون سند (٢ / ٢٩) .
وقال الهيثمي « رواه الطبراني .... عن عبد الله بن جعفر ... وفيه من لم أعرفه » مجمع الزوائد (٦ / ٣٥) .
وضعفه الألباني كما في « دفاع عن الحديث النبوي » صـ (١٩) وتعليقه على « فقه السيرة » صـ (١٣٤) .

الرابع : العتبى : وهي اسم الإعتاب ، فاشدد يديك بهذا الفصل الذي يعصمك من تخبيط كثير من المفسدين لهذه المواضع ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإما محسن فلعله أن يزداد وإما مسيء فلعله أن يستعتب »[١] . أي يطلب من ربه إعتاباً إياه بتوفيقه للتوبة وقبولها منه فيزول عتبه عليه .

والاستعتاب : نظير الاسترضاء وهو طلب الرضى ، وفي الأثر : إن العبد ليسترضي ربه فيرضى عنه وإن الله ليسترضى فيرضى . لكن الاسترضاء فوق الاستعتاب فإنه طلب رضوان الله والاستعتاب : طلب إزالة غضبه وعتبه وهما متلازمان[٢] .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [فصلت : ٢٥] .

ومعنى الآية أن الله قيض للمشركين – أي سبب لهم – قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب .

وقيل عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة .

وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده .

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها : (١٠ / ١٣٢) في المرضى ، باب : تمني المريض الموت .
ومسلم (٥ / ٥٣٧) في الذكر والدعاء ، باب كراهة تمني الموت .
وأبو داود (٨ / ٣٧٣) في الجنائز ، باب : كراهية تمني الموت .
والنسائي (٤ / ٢) في الجنائز ، باب : تمني الموت .

(٢) بدائع الفوائد (٤ / ١٨١ – ١٨٢) .

وفي الآية قول رابع : وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم فزينوا لهم ما بين أيديهم : أعمالهم التي عملوها ، وما خلفهم : الأعمال التي هم عازمون عليها و لم يعملوها بعد ، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق ، ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار ، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة ، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره[١] .

وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج : سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة ، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث .

والمقصود أن قوله تعالى : ﴿ **وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ [فصلت : ٢٥] .

أي وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم[٢] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾

[فصلت : ٣٠-٣٢] .

فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه ودفع عدوه عنه والاستغفار له إذا زل ، وتذكيره إذا نسي ، وتسليته إذا حزن ، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف ، وإيقاظه للصلاة إذا نام

(١) تفسير البغوى (٦ / ١١٠) .

(٢) طريق الهجرتين (٣٨٩ - ٣٩٠) .

عنها ، وإيعاد صاحبه بالخير ، وحضه على التصديق بالوعد ، وتحذيره من الركون إلى الدنيا وتقصير أمله ، وترغيبه فيما عند الله فهو أنيسه في الوحدة ووليه ومعلمه ومثبته ومسكن جأشه ومرغبه في الخير ومحذره من الشر يستغفر له إن أساء ويدعو له بالثبات إن أحسن وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه[١] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

فهذا لدفع شياطين الإنس ثم قال : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾ [فصلت : ٣٦] . فأكد بإن وبضمير الفصل وأتى باللام في « السميع العليم » وقال في الأعراف (إنه سميع عليم) [الأعراف : ٢٠٠] وسر ذلك – والله أعلم – أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم ، فيسمع استعاذتك فيجيبك ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك ، فالسمع لكلام المستعيذ والعلم بالفعل المستعاذ منه ، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة وهذا المعنى شامل للموضوعين ، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سمعه لقولهم وعلمه بهم كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال : « اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي ، كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم ، فقالوا : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال أحدهم : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ، فقال الآخر : إن سمع بعضه سمع كله ، فأنزل الله عز وجل . (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) [فصلت : ٢٢،٢٣][٢] .

---

(١) روضة المحبين (٢٤٦) .

(٢) رواه البخاري (٨ / ٤٢٤) في التفسير ، سورة فصلت باب ﴿ وما كنتم تسترون ...﴾ الآية . =

فجاء التوكيد في قوله : ﴿ **إنه هو السميع العليم** ﴾ في سياق هذا الإنكار : أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم ، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون أنه لا يسمع إن أخفوا وأنه لا يعلم كثيراً مما يعملون وحسن ذلك أيضاً : أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم ولهذا عقبه بقوله : ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ .

وأيضاً فإن السياق ها هنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربوبيته وشواهد توحيده ولهذا عقب ذلك بقوله : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار** ﴾ [فصلت : ٣٧] . وبقوله : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة** ﴾ [فصلت : ٣٩] . فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه ﴿ **السميع العليم** ﴾ كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرفة .

والذي في الأعراف في سياق وعد المشركين وإخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بأن له ربا يسمع ويعلم وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها فإنه سميع عليم وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم ، فكيف تسوونها به في العبادة فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير كما لا يليق بذلك غير التعريف والله أعلم بأسرار كلامه . ولما كان المستعاذ منه في سورة (حمٓ المؤمن)[1] هو شر مجادلة الكفار في آياته وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر قال : (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) [غافر : ٥٦] فإنه لما كان المستعاذ منه كلامه وأفعالهم المشاهدة عياناً قال : (إنه هو السميع البصير) وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا فإنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله[2] .

= ومسلم في صفة المنافقين (٥ / ٦٤٧) باب : صفة المنافقين وأحكامهم . ورواه غيرهما .

(١) أي سورة « غافر » .

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٩٦ - ٩٧) .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم ، وهم خلفاء الرسل في أممهم والناس تبع لهم والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه وضمن له حفظه وعصمته من الناس . وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه ولو آية[(١)] ، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً[(٢)] ، وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو ، ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه ، وهم كما قال فيهم عمر بن الخطاب في خطبته التي ذكرها ابن وضاح[(٣)] في كتاب « الحوادث والبدع » له قال : « الحمد لله الذي امتن على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويحيون بكتاب الله أهل العمى ، كم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وضال تائه قد هدوه بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد ، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ، يقبلونهم في سالف الدهر وإلى يومنا هذا فما نسيهم ربك وما كان ربك نسياً . جعل قصصهم هدى وأخبر عن حسن مقالتهم . فلا تقصد عنهم فإنهم في منزلة رفيعة وإن أصابتهم الوضيعة » .

---

(١) رواه البخاري (٦ / ٥٧٢) في أحاديث الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بني إسرائيل .
والترمذي (٥ / ٣٩) في العلم ، باب : ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل .

(٢) حديث صحيح . رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١ / ٤٣٧) ، (٥ / ١٨٣) وغيرها .
والترمذي (٥ / ٣٤) في العلم ، باب : ما جاء في تعظيم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وأبو داود (١٠ / ٩٤ - ٩٥) في العلم ، باب : فضل نشر العلم .
وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٤٠٤) .

(٣) انظر « البدع والنهي عنها » لابن وضاح صـ (٣) .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إن لله عند كل بدعة كيد بها الإسلام ولياً من أوليائه يذب عنها وينطق بعلاماتها فاغتنموا حضور تلك المواطن وتوكلوا على الله » .

ويكفي في هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي ولمعاذ أيضاً : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »[١] وقوله صلى الله عليه وسلم : « من أحيا شيئا من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين »[٢] وضم بين إصبعيه وقوله : « من دعا إلى هدى فاتبع عليه كان له مثل أجر من اتبعه إلى يوم القيامة »[٣] فمتى يدرك العامل هذا الفضل العظيم والحظ الجسيم بشيء من عمله وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فحقيق بالمبلغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أقامه الله في هذا المقام أن يفتتح كلامه بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده ، والاعتراف له بالوحدانيه وتعريف حقوقه على العباد ثم بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمجيده والثناء عليه وأن يختمه أيضاً بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم تسليماً[٤] .

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على

(١) رواه البخاري (٧ / ٨٧) في فضائل الصحابة باب : مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
ومسلم (٥ / ٢٧١) في الفضائل ، باب : من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي بلفظ قريب من هذا ، (٥ / ٤٤ - ٤٥) في العلم ، باب : ما جاء في الأخذ بالسنة ..
عن أنس رضي الله عنه ، وقال : حسن غريب من هذا الوجه ...
وفيه علي بن زيد - بن جدعان - صدوق إلا أنه ربما يرفع الشيء الذي يوقفه غيره ... » . اهـ .
قال ابن حجر في التقريب (٢ / ٣٧) « ضعيف » .

(٣) رواه مسلم (٥ / ٥٣٢) في العلم ، باب : من سن سنة حسنة ...
والترمذي (٥ / ٤٢) في العلم ، باب : ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع .
وأبو داود (١٢ / ٣٦٢) في السنة ، باب : لزوم السنة .

(٤) جلاء الأفهام (٢٤٩ - ٢٥٠) .

الإحياء الذي استبعدوه ، وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره والعلة الموجبة : هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته وإحياء الأرض دليل العلة[١] .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

قال ابن عباس : في آذانهم صمم عن استماع القرآن وهو عليهم عمى ، أعمى الله قلوبهم فلا يفقهون : ﴿ **أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾ مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء .

وقال مجاهد بعيد من قلوبهم .

وقال الفراء نقول للرجل الذي لا يفهم كذلك أنت تنادى من مكان بعيد . قال : وجاء في التفسير كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون . انتهى : [والمعنى أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم][٢] .

قوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله ولا يمنع المحسن من ثواب عمله[٣].

قوله : ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۞ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ [فصلت : ٤٩ - ٥٠] .

قال ابن عباس : يريد من عندي .

وقال مقاتل : يعني أنا أحق بهذا

(١) إعلام الموقعين (١ / ١٨٦) .
(٢) شفاء العليل (٩٦) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٢٣٦) .

وقال مجاهد : هذا بعملي وأنا محقوق به .

وقال الزجاج : هذا واجب بعملي استحقيته ، فوصف الإنسان بأقبح صفتين إن مسه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس ، فإذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المفضل بما أعطاه فبطر وظن أنه هوالمستحق لذلك ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال : وما أظن الساعة قائمة ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً[(١)] .

قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

أي أن القرآن حق فأخبر أنه لابد أن يريهم من آياتهم المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق .

ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله .

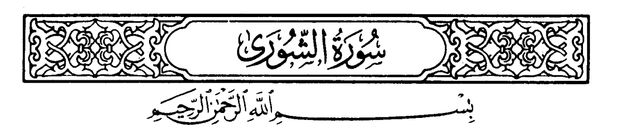
فآياته شاهدة بصدقه وهو مشاهد بصدق رسوله بآياته فهو الشاهد والمشهود له وهو الدليل والمدلول عليه ، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين : كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء ! فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه . ولهذا قال الرسل لقومهم : (أفي الله شك) [إبراهيم : ١٠] . فهو أعرف من كل معروف وأبين من كل دليل فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه[(٢)].

* * *

(١) شفاء العليل (٣٨) .
(٢) الفوائد (٢٣) .

سُورَةُ الشُّورَىٰ





وأرواحهم بإكرامه ولطفه وبسطه كان ذلك تنمية لها وتكثيراً وذرءاً . والله أعلم[١] .

قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى : ١١] . فإنه سبحانه ذكر ذلك بعد ذكر نعوت كماله وأوصافه فقال : ﴿ **حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ [الشورى : ١-٦] إلى قوله : ﴿ **فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ [الشورى : ١١] .

فهذا الموصوف بهذه الصفات والنعوت والأفعال والعلو والعظمة والحفظ والعزة والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشيئة والولاية وإحياء الموتى والقدرة التامة الشاملة والحكم بين عباده وكونه فاطر السموات والأرض وهو السميع البصير فهذا هو الذي ليس كمثله شيء لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله وثبوتها له على وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء فالمثبت للصفات والعلو والكلام والأفعال وحقائق الأسماء هو الذي يصفه سبحانه بأنه ليس كمثله شيء وأما المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه فإن وصفه له بأنه ليس كمثله شيء مجاز لا حقيقة كما يقول في سائر أوصافه وأسمائه ، ولهذا قال من قال من السلف : إن النفاة جمعوا بين التشبيه والتعطيل فسموا تعطيلهم تنزيهاً وسموا ما وصف به نفسه تشبيهاً وجعلوا ما يدل على ثبوت صفات الكمال وكثرتها دليلاً على نفيها وتعطيلها وراج ذلك على من لم يجعل الله له نوراً واغتر به من شاء وهدى الله من اعتصم بالوحي والعقل والفطرة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[٢] .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٩٩ - ٣٠٠) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣ / ١٠٢٨ : ١٠٣٠) .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون ولم يقصد به نفي صفات كماله وعلوه على خلقه وتكلمه بكتبه ، وتكليمه لرسله ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم ، كما ترى الشمس والقمر في الصحو . فإنه سبحانه إنما ذكر هذا في سياق رده على المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء يوالونهم من دونه فقال تعالى : ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون مالهم من ولي ولا نصير أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ [الشورى : ٦-١١] .

فتأمل كيف ذكر هذا النفي تقريراً للتوحيد وإبطالاً لما عليه أهل الشرك من تشبيه آلهتهم وأوليائهم به حتى عبدوهم معه ، فحرفها المحرفون وجعلوها ترساً لهم في نفي صفات كماله وحقائق أسمائه وأفعاله . وهذا التشبيه الذي أبطله الله سبحانه نفياً ونهياً : هو أصل شرك العالم وعبادة الأصنام ولهذا نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أن يسجد أحد لمخلوق مثله أو يحلف بمخلوق مثله أو يصلي إلى قبر أو يتخذ عليه مسجداً أو يعلق عليه قنديلاً أو يقول القائل : ما شاء الله وشاء فلان ونحو ذلك حذراً من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك وأما إثبات صفات الكمال فهو أصل التوحيد فتبين أن المشبهة هم الذين

يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع والحلف به والنذر له والسجود له والعكوف عند بيته وحلق الرأس له والاستغاثة به والتشريك بينه وبين الله في قولهم : ليس لي إلا الله وأنت وأنا متكل على الله وعليك ، وهذا من الله ومنك ، وأنا في حسب الله وحسبك وما شاء الله وشئت وهذا لله ولك وأمثال ذلك فهؤلاء هم المشبهة حقاً ، لا أهل التوحيد المثبتون لله ما أثبته لنفسه ، والنافون عنه ما نفاه عن نفسه . الذين لا يجعلون له نداً من خلقه ولا عدلاً ولا كفؤاً ولا سمياً وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع . فمن تدبر هذا الفصل حق التدبر تبين له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الأصنام وتبين له سر القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة ولاسيما إذا جمعوا إلى هذا التشبيه تعطيل الصفات والأفعال كما هو الغالب عليهم فيجمعون بين تعطيل الرب سبحانه عن صفات كماله وبين تشبيه خلقه به[1] .

قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى : ١٣-١٥] .

فأخبر تعالى أنه شرع لنا دينه الذي وصى به نوحاً والنبيين من بعده وهو دين واحد ونهانا عن التفريق فيه . ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا في الدين إلا بعد العلم الموجب للإثبات وعدم التفرق وأن الحامل على ذلك التفرق البغي من بعضهم على بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها، ولقولها دون غيرها.

(١) إغاثة اللهفان (٢ / ٢٣١ - ٢٣٢) .

وإذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادراً عن هذا بعينه ثم أمر سبحانه نبيه أن يدعو إلى دينه الذي شرعه لأنبيائه وأن يستقيم كما أمره ربه وحذره من اتباع أهواء المتفرقين وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب وهذه حال المحقق أن يؤمن بكل ما جمعه من الحق على لسان أي طائفة كانت ، ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر بالعدل بينهم وهذا يعمم العدل في الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب ونسبته منها إلى القدر المشترك بينهما من الحق فهو أولى به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد فما الحامل للتفرق والاختلاف وهو ربنا وربكم والدين واحد ولكل عامل عمله لا يعدوه إلى غيره ثم قال ﴿ **لا حجة بيننا وبينكم** ﴾ والحجة ها هنا هي الخصومة أي للخصومة لا وجه لخصومة بيننا وبينكم بعد ما ظهر الحق وأسفر صبحه وبانت أعلامه وانكشفت الغمة عنه وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول وأن الدين لا احتجاج فيه كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل قطعية يقينية وأجوبة لمعارضتهم وإفساد لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين وإخبار عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد لحجج الخصم وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن وقد ناظر النبي صلى الله عليه وسلم جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج حتى عدل بعضهم إلى محاربته بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حجته واختار بعضهم مسالمته ومتاركته وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة ولم يجد إلى ردها سبيلا وما خالفه أعداؤه إلا عناداً منهم وميلا إلى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه وأنها لا تدفع فما قام الدين إلا على ساق الحجة . فقوله : ﴿ **لا حجة بيننا وبينكم** ﴾ أي لا خصومة ، فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه ودينه واحد وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة

فائدة ، فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع فإذا ظهر وعانده المخالف وتركه جحوداً وعناداً لم يبق للاحتجاج فائدة فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار فقد وضح الحق واستبان ولم يبق إلا الإقرار به أو العناد والله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي للمحق على المبطل وإليه المصير[١] .

قوله تعالى : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى : ١٥] .

أي قد وضح الحق واستبان وظهر فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة فإن الجدال شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق فإذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة والجدال على بصيرة مخاصمة المنكر ومجادلته عناء لا غنى فيه هذا معنى هذه الآية وقد يقع في وهم كثير من الجهال أن الشريعة لا احتجاج فيها وأن المرسل بها صلوات الله وسلامة عليه لم يكن يحتج على خصومه ولا يجادلهم ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة والحجج للخواص وهم أهل البرهان يعنون نفوسهم ومن سلك طريقتهم وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن فإن القرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدوث العالم فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلا وهو في القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده عن الإيرادات والأسئلة وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين[٢] .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

فأمره سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه وأن يستقيم في نفسه كما أمره ، وأن لا يتبع هوى أحد من الفرق وأن يؤمن بالحق جميعه لا يؤمن ببعضه دون

(١) مفتاح دار السعادة (٣٨٩ - ٣٩١) .
(٢) مفتاح دار السعادة (١٥٨) .

بعض وأن يعدل بين أرباب المقالات والديانات . وأنت إذا تأملت هذه الآية وجدت أهل الكلام الباطل وأهل الأهواء والبدع من جميع الطوائف أبخس الناس منها حظاً وأقلهم نصيباً ووجدت حزب الله ورسوله وأنصار سنته هم أحق بها وأهلها وهم في هذه المسئلة وغيرها من المسائل أسعد بالحق من جميع الطوائف فإنهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ومشيئته العامة وينزهونه أن يكون في ملكه مالا يقدر عليه ولا هو واقع تحت مشيئته ويثبتون القدر السابق وأن العباد يعملون على ما قدره الله وقضاه وفرغ منه وأنه لا يشاؤون إلا أن يشاء الله ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا تخصيص عندهم في هاتين القضيتين بوجه من الوجوه والقدر عندهم قدرة الله تعالى وعلمه ومشيئته وخلقه فلا يتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته فهم المؤمنون بلا حول ولا قوة إلا بالله على الحقيقة إذا قالها غيرهم على المجاز إذ العالم علويه وسفليه وكل حي يفعل فعلاً فإن فعله بقوة فيه على الفعل وهو في حول من ترك إلى فعل ومن فعل إلى ترك ومن فعل إلى فعل وذلك كله بالله تعالى لا بالعبد ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأنه هو الذي يجعل المسلم مسلماً والكافر كافراً والمصلي مصلياً والمتحرك متحركاً وهو الذي يسير عبده في البر والبحر ، وهو المسير والعبد السائر ، وهو المحرك والعبد المتحرك ، وهو المقيم والعبد القائم ، وهو الهادي والعبد المهتدي ، وأنه المطعم والعبد الطاعم ، وهو المحيي المميت والعبد الذي يحيٰي ويموت ، ويثبتون مع ذلك قدرة العبد وإرادته واختياره وفعله حقيقة لا مجازاً وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول كما حكاه عنهم البغوي وغيره فحركاتهم واعتقاداتهم أفعال لهم حقيقة وهي مفعولة لله سبحانه مخلوقة له حقيقة والذي قام بالرب عز وجل علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه والذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم فهم المسلمون المصلون القائمون القاعدون حقيقة وهو سبحانه هو المقدر لهم على ذلك القادر عليه الذي شاءه منهم وخلقه لهم ومشيئته وفعله بعد مشيئته فما يشاؤون إلا أن يشاء الله وما يفعلون إلا أن يشاء الله ، وإذا وازنت بين هذا المذهب وبين ما عداه من المذاهب وجدته هو المذهب الوسط والصراط

المستقيم ووجدت سائر المذاهب خطوطاً عن يمينه وعن شماله فقريب منه وبعيد وبين ذلك[١] .

إن استشهاده[٢] بقوله : ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ [الشورى : ٢٢] .

ليس استشهاداً صحيحاً ، فإن هذا وصف لحالهم في الآخرة عند معاينة العذاب ، أو عند الموت فهذا إشفاق مقرون بالاستيحاش ؛ لأنه قد علم أنه صائر إليه ، كمن قدم إلى العقوبة ورأى أسبابها فهو مشفق منها إذا رآها لعلمه بأنه صائر إليها فليست الآية من الخوف المأمور به في شيء[٣] .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الشورى : ٢٤] .

وفي معنى الآية للناس قولان :

أحدهما : قول مجاهد ومقاتل : إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك .

والثاني : قول قتادة : إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي ، وهذا القول دون الأول لوجوه :

أحدها: أن هذا خرج جواباً لهم وتكذيباً لقولهم: أن محمداً كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن فأجابهم بأحسن جواب وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شيء فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه فيعود المعنى إلى أنه لو افترى علي لم أمكنه ولم أقره .

---

(١) شفاء العليل (٥٢) .

(٢) أي الهروي رحمه الله تعالى .

(٣) طريق الهجرتين (٢٦٥) .

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه فإن فيه من علوم الأولين والآخرين وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة والعلم الذي لا يعلمه إلا الله والبيان التام والجزالة والفصاحة والجلالة والإخبار بالغيوب ما لم يكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه فلولا أني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون ؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم ؟ وكيف يتضمن الرد عليهم ؟ .

الوجه الثاني : أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ولا يكون فيه رد لقولهم فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر .

الثالث : أن الرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب ولا هو المعهود في القرآن بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله : (ختم الله على قلوبهم) [البقرة : ٧] وقوله : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) [الجاثية : ٢٣] . ونظائره ، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله : (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض) [الكهف : ١٤] . وقوله : (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها) [القصص : ١٠] . والإنسان يسوغ له في الدعاء أن يقول : اللهم اربط على قلبي ولا يحسن ، أن يقول : اللهم اختم على قلبي .

الرابع : أنه سبحانه حيث يحكي أقوالهم : « إنه افتراه » لايجيبهم عليه هذا الجواب بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئاً بل كان يأخذوه ولا يقدرون على تخليصه كقوله : (أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً) [الأحقاف : ٨] . وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر .

الخامس : أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنه وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير .

السادس : أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة ولا التضمن ولا اللزوم فمن أين يعلم أنه أراد ذلك ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى فيحمل عليه بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه فقد ذكره في مواضع .

السابع : أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه كما قال تعالى : (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) [يونس : ١٦] . وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ولا أقدر أن أفتريه على الله ولو كان ذلك مقدوراً لي لكان مقدوراً لمن هو من أهل العلم والكتابة ومخالطة الناس والتعلم منهم ولكن الله بعثني به ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به البتة لا على لساني ولا على لسان غيري ولكن أوحاه إلي وأذن لي في تلاوته عليكم وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به ، فلو كان كذباً وافتراءً كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته لأن الكذب لا يعجز عنه البشر وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني ولم تسمعوه من بشر غيري ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه فقال : (فقد لبثت فيكم عمراً من قبله) [يونس : ١٦] . تعلمون حالي ولا يخفى سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي ومن هذا لم أتمكن من قول شيء ألبتة ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه ولا من بعضه وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إلي وأنزله علي ولو شاء ما فعل فلم يمكني من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه ولم أكن قبل أن يوحى إلي تالياً له ، ولا لبعضه فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته ومن هذا قوله سبحانه :

(ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) [الإسراء : ٨٦] . وهذا هو المناسب لقوله : ﴿ **أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك** ﴾ [الشوري : ٢٤] . ولقوله : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين) [الحاقة : ٤٤،٤٥] . وبرهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة . والله أعلم .

الثامن : أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات كقوله تعالى : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) [الإسراء : ٨٦] . وقوله : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) [النساء : ١٣٣] . وقوله : (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) [الشورى : ٣٣] . وقوله : (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء) [سبأ : ٩] . ونظائره لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفياً .

التاسع : أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر كما قال تعالى : (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم) [الأنفال : ١١] . ومعنى الربط في اللغة . الشد ولهذا يقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه كأنه حبس قلبه عن الاضطراب ومنه يقال : هو رابط الجأش وقد ظن الواحدي أن « على » زائدة والمعنى يربط قلوبكم وليس كما ظن بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر فإنه يقال : ربط الفرس والدابة ولا يقال : ربط عليها فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل : ربط عليه كأنه أحاط عليه بالرباط فلهذا قيل : « ربط على قلبه » وكان أحسن من أن يقال : ربط قلبه والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم .

العاشر : أن الختم هو شد القلب حتى لا يشعر ولا يفهم فهو مانع يمنع العلم والتقصد والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم قول أعدائه : إنه افترى القرآن ويشعر به فلم يجعل الله على قلبه مانعاً من شعوره بذلك وعلمه به فإذا قيل :

الأمر كذلك ولكن جعل الله على قلبه مانعاً من التأذي بقولهم قيل : هذا أولى أن يسمى ختماً وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنه كما قال تعالى : (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون) [الأنعام : ٣٣] .

وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة الله له فإنه لم يؤذ نبي ما أوذي ، فالقول في الآية هو قول قتادة . والله أعلم[١] .

قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٦،٣٧] .

فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه وهذا هو التوحيد ثم قال : ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش** ﴾ [الشورى : ٣٧] . فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية ثم قال : ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ [الشورى : ٣٧] . فهذا مخالفة القوة الغضبية فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله[٢] .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٩] .

فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح فقال : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين** ﴾ [الشورى : ٤٠] . فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه ، والظلم وحرمه .

فإن قيل : فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان ؟

قيل : لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام وإنما مدحهم على الانتصار وهو

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٨٥ - ١٩٠) .
(٢) الفوائد (٨١) .

القدرة والقوة على استيفاء حقهم فلما قدروا ندبهم إلى العفو قال بعض السلف في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا ، فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة ، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله : (وكان الله عفوا قديراً) (والله غفور رحيم) وفي أثر معروف[١] : « حملة العرش أربعة اثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك . واثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك » ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) [المائدة : ١١٨] . أي إن غفرت لهم غفرت عن عزة وهي كمال القدرة ، وحكمة وهي كمال العلم ، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر عن المسيء والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهانة وانتقام ظاهره عز وباطنه ذل ، فما زاد الله بعفو إلا عزاً ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو ، ولهذا ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه قط[٢] وتأمل قوله سبحانه: ﴿ وهم ينتصرون ﴾ كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً بل لابد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو[٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية : مقام العدل وأذن فيه ، ومقام الفضل

---

(١) انظر هامش (١) (٣/٤٣٤) من سورة سبأ .

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٦/٦٥٤) . في المناقب ، باب : صفة النبي صلى الله عليه وسلم . ومسلم (٥/١٨٠) في الفضائل ، باب : مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام . ورواه غيرهما .

(٣) الروح لابن القيم (٢٤٢) .

وندب إليه ، ومقام الظلم وحرمه[١] .

قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

أي أن ذلك الصبر والغفر مما يعزم عليه من الأمور[٢] .

تدبر قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى : ٤٨] .

كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى بإذا وأتى في إصابة السيئة بإن فإن ما يعفو الله عنه أكثر . وأتى في الرحمة بالفعل الماضى الدال على تحقيق الوقوع وفي حصول السيئة بالمستقبل الدال على أنه غير محقق ولابد وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم وإنها مذوقة لهم والذوق هو أخص أنواع الملابسة وأشدها وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه فقال ﴿ **منا رحمة** ﴾ وأتى في السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف إن دون الجملة الثانية وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر وتأمل قوله تعالى : (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) [الإسراء : ٦٧] . كيف أتى بإذا ها هنا لما كان مس الضر لهم في البحر محققا بخلاف قوله : (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤس قنوط) [فصلت : ٤٩] . فإنه لم يقيد مس الشر هنا بل أطلقه ولما قيده بالبحر الذي هو متحقق فيه ذلك أتى بأداة إذا وتأمل قوله تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤساً)[٣] كيف أتى هنا بإذا المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له فكان الإتيان بإذا ها هنا أدل على المعنى المقصود من إن بخلاف قوله: (وإن مسه الشر فذو دعاء عريض) [فصلت: ٥١]، فإنه بقلة صبره وضعف احتياله متى توقع الشر أعرض وأطال في الدعاء فإذا تحقق وقوعه كان يؤساً[٤].

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٩٦) .

(٢) الفوائد المشوق (١٥) .

(٣) الإسراء : (٨٣) .

(٤) بدائع الفوائد (١ / ٤٧ - ٤٨) .

قال الله تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٤٩ – ٥٠] .

فقسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه وكفى بالعبد تعرضاً لمقته أن يتسخط ما وهبه وبدأ سبحانه بذكر الإناث فقيل : جبراً لهن لأجل استقبال الوالدين لمكانهما .

وقيل : – هو أحسن – إنما قدمهن لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالباً ، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان .

وعندي وجه آخر : وهو أنه تعالى قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن أي هذا النوع المؤخر الحقير عندكم مقدم عندي في الذكر وتأمل كيف نكر سبحانه الإناث وعرف الذكور فجبر نقص الأنوثة بالتقديم وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنزيه كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ثم لما ذكر الصنفين معاً قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير . والله أعلم بما أراد من ذلك .

والمقصود أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله سبحانه في قوله : (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) [النحل : ٥٩] . وقال : (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) [الزخرف : ١٧] . ومن هنا عبر بعض المعبرين لرجل قال له : رأيت كأن وجهي أسود فقال له : ألك امرأة حامل قال : نعم ، قال : تلد لك أنثى[1] .

(١) تحفة الودود في أحكام المولود (٢٣ – ٢٤) .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

ذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال .

إحداها : من تلد الإناث فقط .

الثانية : من تلد الذكور فقط .

الثالثة : من تلد الزوجين الذكر والأنثى ، وهو معنى التزويج هنا أن يجعل ما يهب له زوجين ذكراً وأنثى .

الرابعة : العقيم التي لا تلد أصلاً ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يدرك بالقياس والفكر وإنما يعلم بالوحي ، ما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول : يارسول الله ! فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي » قال اليهودي : جئت أسألك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أينفعك شيء إن حدثتك ؟» قال أسمع بأذني فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه فقال : « سل » فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في الظلمة دون الجسر » قال : فمن أول الناس إجازة قال : « فقراء المهاجرين » قال اليهودي : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ فقال : « زيادة كبد حوت ذي النون » قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها » قال فما شرابهم عليه ؟ قال : « من عين تسمى سلسبيلا » قال : صدقت ، وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان . قال : « ينفعك إن حدثتك ؟ » قال : أسمع بأذني : قال : جئت أسألك عن الولد ؟ قال : « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل منيَّ المرأة ذكرا بإذن الله وإن علا مني المرأة مني الرجل أنثى بإذن الله» قال اليهودي : لقد صدقت وإنك لنبي ، ثم انصرف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لقد سألني عن هذا الذي سألني عنه ومالي علم به حتى أتاني الله به »[1] والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعاً فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه فيلتقي الماءان على أمر قد قدره الله وشاءه، فيخلق الولد بينهما جميعاً وأيهما غلب كان الشبه له .

كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال : بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخبرني بهن : آنفاً جبريل » فقال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة وسبقها ماؤه كان – الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها» فقال: أشهد أنك رسول الله[2] . وذكر الحديث .

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت : يارسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت ؟ قال : « نعم إذا رأت الماء الأصفر » فضحكت أم سلمة ، فقالت : أوتحتلم المرأة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فبم يشبهها الولد »[3] فهذه الأحاديث الثلاثة تدل على أن الولد يخلق من الماءين وإن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين وقهره الآخر وعلوه

---

(١) صحيح مسلم (٦١٠/١-٦١٢) في الحيض ، باب : صفة مني الرجل والمرأة .
(٢) رواه البخاري (٤١٨/٦) في أحاديث الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته .
(٣) رواه البخاري في مواضع منها (٤٦٢/١) في الغسل ، باب : إذا احتلمت المرأة .
ومسلم (٦٠٨/١) في الحيض ، باب : وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها .
والترمذي (٢٠٩/١) في الطهارة ، باب : ما جاء في المرأة ترى في المنام ...
وأبو داود (٤٠١/١) في الطهارة ، باب : المرأة ترى ما يرى الرجل .
والنسائي (١١٢/١) في الطهارة ، باب : غسل المرأة ترى في منامها ..

عليه وأن الشبه يكون بالسبق فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحي وليس في صناعتهم أيضاً ما ينافيها على أن في النفس من حديث ثوبان[1] ما فيها وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفظه كما ينبغي وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث كما سأل عنه عبد الله بن سلام ولذلك لم يخرجه البخاري .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي بكر بن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول : يارب نطفة يارب علقة يارب مضغة فإذا أراد أن يخلقها قال : قال : يارب أذكر أم انثى ؟ شقي أم سعيد ؟ فما الرزق فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه »[2] أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل، و لم يتعرض الملك لكتبه الذي للطبيعة فيه مدخل أولا ترى عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه و لم يسأل عن الإذكار والإيناث مع أنه أبلغ من الشبه والله أعلم وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاله فهو عين الحق وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث . والله أعلم[3] .

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] .

فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة والنور الذي يحصل به الإضاءة

---

(١) قال ابن القيم في الطرق الحكمية (٢٢٩) : « وسمعت شيخنا رحمه الله يقول: في صحة هذا اللفظ نظر . قلت : لأن المعروف المحفوظ في ذلك ، إنما هو تأثير سبق الماء في الشبه ، وهو الذي ذكره البخاري من حديث أنس .. » اهـ .

(٢) رواه البخاري (٤١٩/٦) في بدء الخلق ، باب : خلق آدم وذريته .
ومسلم (٥٠٠/٥) في القدر ، باب : كيفية خلق الآدمي في بطن أمه .

(٣) مفتاح دار السعادة (٢٧٨ - ٢٨٠) .

والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم متضمن للأمرين فهو روح تحيا به القلوب ونور تستضيء وتشرق به[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

فجعله روحاً لما يحصل به من الحياة ونوراً لما يحصل به من الهدى والإضاءة وذلك نور وحياة زائدة على نور الفطرة وحياتها فهو نور على نور وحياة إلى حياة[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقد اختلف في الضمير في قوله عز وجل : ﴿ **ولكن جعلناه نوراً** ﴾ فقيل : يعود على الكتاب وقيل : على الإيمان . والصحيح أنه يعود على الروح في قوله ﴿ **روحاً من أمرنا**﴾ فأخبر تعالى أنه جعل أمره روحاً ونوراً وهدى ولهذا ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره ، كما قال الحسن رحمه الله : « إن المؤمن من رزق حلاوة ومهابة » وقال الله تعالى : (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) [البقرة : ٢٥٧] . فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات[٣] .

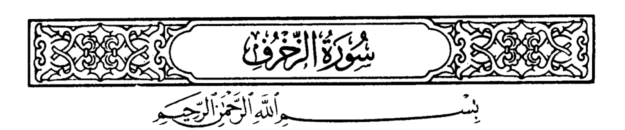
* * *

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٢١) .
(٢) شفاء العليل (١٠٤ - ١٠٥) .
(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية (٥) .



سُورَةُ الزُّخْرُفِ





بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ [الزخرف : ١-٤] .

قال ابن عباس : في اللوح المحفوظ المقري عندنا : قال مقاتل : إن نسخته في أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ . وأم الكتاب : أصل الكتاب . وأم كل شيء : أصله والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض كما قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) [البروج : ٢١،٢٢] . وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب ، وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله فكتب في اللوح أفعاله وكلامه فتبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب .

وقوله ﴿ لدينا ﴾ يجوز فيه أن تكون من صلة أم الكتاب أي أنه في الكتاب الذي عندنا ، وهذا اختيار ابن عباس ، ويجوز أن يكون من صلة الخبر أنه علي حكيم عندنا ليس هو كما عند المكذبين به أي وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والإحكام[1] .

قوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ﴾ [الزخرف : ٥] .

على أحد التأويلين أي نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم

(١) شفاء العليل (٤١ - ٤٢) .

إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : ١٧،١٨] .

احتج سبحانه على هؤلاء الذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضى بالبنات وإذا بشر بالأنثى حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر فيه السواد على وجهه فإذا كان أحدكم لا يرضى بالإناث بناتاً فكيف تجعلونها لي كما قال تعالى : (ويجعلون لله ما يكرهون) [النحل : ٦٢] . ثم ذكر سبحانه ضعف هذا الجنس الذي جعلوه له وأنه أنقص الجنسين ولهذا يحتاج في كماله إلى الحلية وأضعفهما بياناً فقال تعالى : ﴿ **أومن ينشؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين** ﴾ [الزخرف : ١٨] . فأشار بنشأتهن في الحلية إلى أنهن ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها وأنهن عييات فلا يبن عن حجتهن وقت الخصومة مع أن في قوله : ﴿ **أو من ينشؤا في الحلية** ﴾ تعريضاً بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفترشهن ويطأهن ، وتعريضاً بأنهن لا ينشأن في الحرب والطعان والشجاعة ، فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز والوهن[(٢)] .

وقال رحمه الله تعالى :

يعني أن أحدكم لا يرضى أن يكون له بنت فكيف تجعلون لله ما لا ترضونه لأنفسكم[(٣)] .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف :٢٦-٢٨] .

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٤) .

(٢) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٨٣ - ٤٨٥) .

(٣) مفتاح دار السعادة (٤١٠) .

أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة : لا إله إلا الله وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة[1] .

قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٦،٣٧] .

فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه وهو يحسب أنه مهتد حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه وعاين هلاكه وإفلاسه قال : ﴿ **ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** ﴾ وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلابد أن يقول هذا يوم القيامة .

فإن قيل : فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى : ﴿ **ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ . قيل : لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو ظن أنه مهتد فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى فإذا ضل فإنما أتي من تفريطه وإعراضه وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها فذاك له حكم آخر والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول وأما الثاني فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) [الإسراء : ١٥] . وقال تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) [النساء : ١٦٥] . وقال تعالى في أهل النار : (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) [الزخرف : ٧٦] . وقال تعالى : (أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب

(١) الجواب الكافي (٢٩٤ – ٢٩٥) .

لو أن لي كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) [الزمر : ٥٦-٥٩] . وهذا كثير من القرآن[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر سبحانه أن من عشا عن ذكره وهو كتابه الذي أنزله على رسوله فأعرض عنه ، وعمي عنه ، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه ؛ قيض الله له شيطاناً عقوبة له بإعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذي لا يفارقه في الإقامة ولا في المسير ، ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير :

رضيعاً لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج عوض لا نتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين كنت لي في الدنيا ، أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني ، وصددتني عن الحق وأغويتني حتى هلكت ، وبئس القرين أنت لي اليوم ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته ، حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية ؛ أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود غير حاصل في حق المشتركين في العذاب وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء في أخيها صخر :

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال : ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف : ٣٩][٢] .

(١) مفتاح دار السعادة (٤٧ – ٤٨) .
(٢) الجواب الكافي (١٣٦ – ١٣٧) .

وقال رحمه الله تعالى :

فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا ، فله أسوة بهم ، ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿ **ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون** ﴾ [الزخرف : ٣٩] .

فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم ببعض في العذاب ، فإن مصائب الدنيا إذا عمَّت صارت مسلاة ، وتأسى بعض المصابين ببعض ، كما قالت الخنساء :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مِثْلَ أخي ولكن ... أسلي[1] النفس عنهم بالتأسي

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشتركين في العذاب يوم القيامة[2] .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ ﴾ [الزخرف : ٤٠] .

وليس إسماع الصم مما يدعيه أحد فيكون لذلك الإنكار وإنما المعنى فيه تنزيل من يحاول إسماعهم منزلة من يحاول إسماع الصم وإنما قدم الاسم في هذه الآية ولم يقل - أفتسمع الصم - لمعنى وهو اختصاصه صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى قال له صلى الله عليه وسلم أنت خصوصاً تظن أنك تقدر على إسماعهم فتكون بمنزلة من ظن أن لنفسه قدرة على إسماع الصم[3] .

قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزخرف : ٨٦] .

أي أخبر به وتكلم به من علم والمراد به التوحيد[4] .

---

(١) في الجواب الكافي (أعزي) (١٣٧) .
(٢) الرسائل التبوكية (٦٩ - ٧٠) .
(٣) الفوائد المشوق (١٥٨ - ١٥٩) .
(٤) الطرق الحكمية (٢١٣) .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٧] .

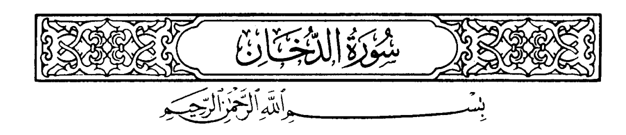
أي فأين يصرفون عن شهادة لا إله إلا الله وعن عبادته وحده وهم يشهدون : أنه لا رب غيره ولا خالق سواه[٣] .

* * *

(٣) مدارج السالكين (١ / ٤١١) .

سُورَةُ الدُّخَانِ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ [الدخان : ٢٤] .

والرهو : الساكن شبه ذهاب حركة البحر بذهاب حركة الخيل عند سكونها ، تقول العرب : جاءت الخيل رهواً أي ساكنة فشبه البحر بها وذلك أنه قام فرقاه ساكنين فقال لموسى عليه الصلاة والسلام : دع البحر ساكناً قائماً ماؤه كما أخبر الله سبحانه وتعالى : (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) [الشعراء : ٦٣](١) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان : ٣٢] .

لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار فالجملة في موضع نصب على الحال أي اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم وما يقتضي اختيارهم من قبل . خلقهم ذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره إياهم وذكر علمه الدال على مواضع حكمته واختياره(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الدخان : ٣٨،٣٩] .

والحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله وهو أنواع كثيرة .

منها : أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته .

---

(١) الفوائد المشوق (٦٥) .

(٢) شفاء العليل (٣٢) .

ومنها : أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع .

ومنها : أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع .

ومنها : أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات .

ومنها : أن يثيب ويعاقب فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فيوجد أثر عدله وفضله موجوداً مشهوداً فيحمد على ذلك ويشكر .

ومنها : أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

ومنها : أن يصدق الصادق فيكرمه ويكذب الكاذب فيهينه .

ومنها : ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي فيعلم عباده ذلك علما مطابقا لما في الواقع .

ومنها : شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها وأنه وحده إلهها ومعبودها .

ومنها : ظهور أثر كماله المقدس فإن الخلق والصنع لازم كماله فإنه حي قدير ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلا مختارا .

ومنها : أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به ومجيئه على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه فتشهد حكمته الباهرة .

ومنها : أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح ولابد من لوازم ذلك خلقا وشرعا .

ومنها : أنه يحب أن يثني عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم .

ومنها : كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلهيته إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق فخلق مخلوقاته بسبب الحق ولأجل الحق وخلقها ملتبس بالحق وهو في نفسه حق فمصدره حق وغايته حق وهو يتضمن للحق ، وقد أثنى على

عباده المؤمنين حيث نزهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية فقال تعالى : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) [آل عمران : ١٩١] . وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه فقال : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) [ص : ٢٧] .

وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول : إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له ولا أمر لحكمة ولا نهى لحكمة وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة لا لحكمة ولا لغاية مقصودة وهل هذا إلا إنكار لحقيقة حمده بل الخلق والأمر إنما قام بالحكم والغايات فهما مظهران بحمده وحكمته فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره الذي أثبته المنكرون من ذلك ينزه عنه الرب ويتعالى عن نسبته إليه فإنهم أثبتوا خلقا وأمرا لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فيه البتة وينهى عما فيه مصلحة والجميع بالنسبة إليه سواء ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه وينهى عن جميع ما أمر به ولا فرق بين هذا وهذا إلا لمجرد الأمر والنهي ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره وينعم على من لم يطعه طرفة عين بل أفنى عمره في الكفر به والشرك والظلم والفجور فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول وإلا فهو جائز عليه وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه وتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور ، بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه . والعجب العجاب أن كثيراً من أرباب هذا المذهب ينزهونه عما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه ولا ينزهونه عن هذا الظلم والجور ويزعمون أنه عدل وحق وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به كما لا يتم إلا بإنكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سمواته وتكلمه وتكليمه وصفات كماله فلا يتم التوحيد عند هذه الطائفة إلا بهذا النفي وذلك الإثبات . والله ولي التوفيق[1] .

(١) شفاء العليل (١٩٨ - ١٩٩) .

وقال رحمه الله تعالى :

وفسر الحق : بالثواب والعقاب وفسر : بالأمر والنهي ، وهذا تفسير له ببعض معناه .

والصواب أن الحق هو إلهيته وحكمته المتضمنة للخلق والأمر والثواب والعقاب فمصدر ذلك كله الحق وبالحق وجد وبالحق قام وغايته الحق ، وبه قيامه ، فمحال أن يكون على غير هذا الوجه فإنه يكون باطلاً وعبثاً فتعالى الله عنه لمنافاته إلهيته وحكمته وكمال ملكه وحمده[1] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان :٥١-٥٦] .

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه واشتماله على الثمار والأنهار وحسن اللباس وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضاً وتمام اللذة بالحور العين ، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتاً .

والحور: جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين .

وقال زيد بن أسلم : الحوراء التي يحار فيها الطرف . وعين : حسان الأعين .

وقال مجاهد : الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون .

وقال الحسن : الحوراء شديدة بياض العين شديدة سواد العين .

واختلف في اشتقاق هذه اللفظة قال ابن عباس : الحور في كلام العرب

(١) مفتاح دار السعادة (٤١٩) .

البيض ، وكذلك قال قتادة : الحور البيض ، وقال مقاتل : الحور البيض الوجوه . وقال مجاهد : الحور العين التي يحار فيهن الطرف باديا مخ سوقهن من وراء ثيابهن ، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة وصفاء اللون .

وهذا من الاتفاق وليست اللفظة مشتقة من الحيرة .

وأصل الحور : البياض ، والتحوير : التبييض .

والصحيح : أن الحور مأخوذ من الحور في العين وهو شدة بياضها مع قوة سوادها فهو يتضمن الأمرين .

وفي الصحاح : الحور شدة بياض العين في شدة سوادها . امرأة حوراء : بينة الحور .

وقال أبو عمر : الحور : أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر ، وليس في بني آدم حور وإنما قيل : النساء حور العين لأنهن شبهن بالظباء والبقر وقال الأصمعي : ما أدري ما الحور في العين ؟ قلت : خالف أبو عمرو أهل اللغة في اشتقاق اللفظة ورد الحور إلى السواد والناس غيره إنما ردوه إلى البياض أو إلى بياض في سواد والحور في العين : معنى يلتئم من حسن البياض والسواد وتناسبهما واكتساب كل واحد منهما الحسن من الآخر ، عين حوراء : إذا اشتد بياض أبيضها وسواد أسودها ، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينيها بياض لون الجسد ، والعين جمع عيناء وهي العظيمة العين من النساء ، ورجل أعين إذا كان ضخم العين ، وامرأة عيناء ، والجمع عين ، والصحيح أن العين اللائي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة ، قال مقاتل : العين حسان الأعين ومن محاسن المرأة اتساع عينها في طول ، وضيق العين في المرأة من العيوب وإنما يستحب الضيق منها في أربعة مواضع : فمها، وخرق أذنها، وأنفها، وما هنالك .

ويستحب السعة منها في أربعة مواضع : وجهها ، وصدرها ، وكاهلها وهو ما بين كتفيها ، وجبهتها .

ويستحسن البياض منها في أربعة مواضع : لونها وفرقها وثغرها وبياض

عينها ، ويستحب السواد منها في أربعة مواضع : عينها وحاجبها وهدبها وشعرها ويستحب الطول منها في أربعة : قوامها وعنقها وشعرها وبنانها . ويستحب القصر منها في أربعة : وهي معنوية لسانها ويدها ورجلها وعينها فتكون قاصرة الطرف قصيرة الرجل واللسان عن الخروج وكثرة الكلام ، قصيرة اليد عن تناول ما يكره الزوج وعن بذله ، وتستحب الرقة منها في أربعة : خصرها وفرقها وحاجبها وأنفها[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان : ٥١] و (المقام) : موضع الإقامة و (الأمين) : الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي جمع صفات الأمن كلها فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص ، وأهله آمنون من الخروج والنغص والنكد (والبلد الأمين) الذى قد أمن أهله فيه مما يخاف منه سواهم وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين في مقام أمين** ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ **يدعون فيها من كل فاكهة ءامنين** ﴾ [الدخان : ٥٥] . فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها وأمن الخروج منها، فلا يخافون ذلك وأمن الموت فلا يخافون فيها موتا[(٢)].

وقال رحمه الله تعالى :

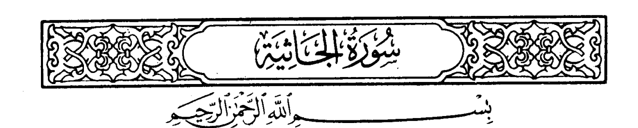
﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان : ٥٦] .

فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت . وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة . إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع . فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد ، والتنصيص على حفظ العموم . وهذا جار في كل منقطع . فتأمله فإنه من أسرار العربية[(٣)] .

(١) حادي الأرواح (١٧٨ - ١٧٩) .
(٢) حادي الأرواح (٨٩) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٣١٩) .

سُورَةُ الجَاثِيَةِ





بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الجاثية : ١٦،١٧] .

فأخبر سبحانه أن المختلفين بالتأويل لم يختلفوا لخفاء العلم الذي جاءت به الرسل عليهم ، وإنما اختلفوا بعد مجيء العلم ، وهذا كثير في القرآن[١] .

قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية : ١٨،١٩] .

فالشريعة التي جعله ربه عليها تتضمن ما أمره به ، ورضيه له ، وكل عمل وحب وذوق ووجد وحال لا تشهد له هذه الشريعة التي جعله عليها فباطل وضلال ، وهو من أهواء الذين لا يعلمون فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به ، ويتخذه ديناً ، وينهى عما يبغضه ويذمه إلا بهدى من الله ، وهو شريعته التي جعل عليها رسوله وأمره والمؤمنين باتباعها ولهذا كان السلف يسمون كل من خرج عن الشريعة في شيء في الدين من أهل الأهواء ، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء ؛ فيذمونهم بذلك ويحذرون عنهم ولو ظهر عنهم ما ظهر من العلم والعبادة والزهد والفقر والأحوال والخوارق . قال يونس بن عبد الأعلى :

---

(١) الصواعق المرسلة (٥١٢/٢ - ٥١٣) .

قلت للشافعي : تدري ما قال صاحبنا ؟ - يريد الليث بن سعد - كان يقول لو رأيته يريد - صاحب البدعة - يمشي على الماء لا تثق به ولا تعبأ ولا تكلمه . قال قصر والله ، يريد أقبح من ذلك[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها ، وأوحى إليه العمل بها ، وأمر الأمة بها وبين اتباع أهواء الذين لا يعلمون فأمر بالأول ونهى عن الثاني[٢] .

قول الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١]

فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه ، وأنه حكم سيء ، والحاكم به مسيء ظالم . ولو كان قبحه لكونه خلاف ما أخبر به لم يكن الإنكار لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسوية بين المحسن والمسيء ، المستقر قبحه في فطر العالمين كلهم . ولا كان هنا حكم سيء في نفسه ينكر على من حكم به[٣] .

قول الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

قال ابن عباس علم ما يكون قبل أن يخلقه ، وقال أيضاً : على علم قد سبق عنده ، وقال أيضاً : يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب .

وقال سعيد بن جبير ، ومقاتل : على علمه فيه .

---

(١) الكلام في مسألة السماع (٢٨١ - ٢٨٢) .

(٢) إعلام الموقعين (٨١/١ - ٨٢) .

(٣) مدارج السالكين (٢٣٨/١) .

وقال أبو إسحاق : أي : على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه ، وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين .

وقال الثعلبي : على علم منه بعاقبة أمره ، قال : وقيل : على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه ، وكذلك ذكر البغوي وأبو الفرج بن الجوزي قال : على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي[1] .

وذكر طائفة منهم المهدوي وغيره قولين في الآية هذا أحدهما ، قال المهدوي : فأضله الله على علم علمه منه بأنه لا يستحقه ، قال : وقيل على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر ، وعلى الأول ؛ يكون على علم حال من الفاعل المعنى أضله الله عالماً بأنه من أهل الضلال في سابق علمه .

وعلى الثاني : حال من المفعول أي : أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال .

قلت : وعلى الوجه الأول ؛ فالمعنى : أضله الله عالماً به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له لغيره قبل خلقه وبعده ، وأنه أهل للضلال وليس أهلا أن يهدى وأنه لو هدي ؛ لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه ، والرب تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها ، فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه الضلال ، وذكر العلم إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور ووضع الشيء في مواضعه ، وإعطاء الخير من يستحقه ، ومنعه من لا يستحقه ، فإن هذا لا يحصل بدون العلم ، فهو سبحانه أضله على علمه بأحواله التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه ، وهو سبحانه كثيراً ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر كما قال : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون)[2] [الأنعام: ١٢٥] .

---

(١) انظر تفسير البغوي (٤/١٥٩ - ١٦٠) .
وزاد المسير لابن الجوزي (/٨) .
(٢) شفاء العليل (٣٠) .

وقال رحمه الله تعالى :

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

قول آخر أنه على علم الضال، كما قيل: على علم منه أن معبوده لا ينفع ولا يضر، فيكون المعنى: أضله الله مع علمه الذي تقوم به عليه الحجة ، لم يضله على جهل وعدم علم هذا يشبه قوله : (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) [البقرة : ٢٢] . وقوله : (فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) [العنكبوت : ٣٨] . وقوله : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) [النمل : ١٤] . وقوله : (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) [الإسراء : ٥٩] . وقول موسى لفرعون : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) [الإسراء : ١٠٢] . وقوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) [البقرة : ١٤٦] . وقوله : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) [الأنعام : ٣٣] . وقوله : (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) [التوبة : ١١٥] . ونظائره كثيرة وعلى هذا التقدير فهو ضال عن سلوك طريق رشده وهو يراها عيانا ، كما في الحديث : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه »[1] . فإن الضال عن الطريق قد يكون متبعاً لهواه عالما بأن الرشد والهدى في خلاف ما يعمل ، ولما كان الهدى هو معرفة الحق والعمل به كان له ضدان الجهل وترك العمل به :

فالأول : ضلال في العلم .

والثاني : ضلال في القصد والعمل .

فقد وقع قوله ﴿ **على علم** ﴾ في قوله تعالى : (ولقد اخترناهم على علم)

---

(١) ضعيف .
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٤/١) :
« رواه الطبراني في الصغير وفيه عثمان البري قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة ضعفه أحمد والنسائي والدارقطني » . وضعفه الألباني كما في الضعيفة (١٣٨/٤) رقم (١٦٣٤) . فانظره مفصلاً .

[الدخان : ٣٢] . وفي قوله ﴿ **وأضله الله على علم** ﴾ وفي قوله : (قال إنما أوتيته على علم) :

فالأول : يرجع العلم فيه إلى الله قولاً واحداً .

والثاني والثالث : فيهما قولان .

والراجح في قوله ﴿ **وأضله الله على علم** ﴾ أن يكون كالأول وهو عامة السلف ، والثالث فيه قولان محتملان وقد ذكر توجههما والله أعلم . والمقصود ذكر مراتب القضاء والقدر علماً وكتابة ومشيئة وخلقاً[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

الغشاوة فهو غطاء العين ، وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب ، فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر ، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه ، وأنت إذا أبغضت رجلاً بغضاً شديداً أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته ، فتلك أثر البغض والإعراض عنه ، وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول ، وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته ؛ كالعمامة ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك الغشاوة غشاوة على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى[(٢)] .

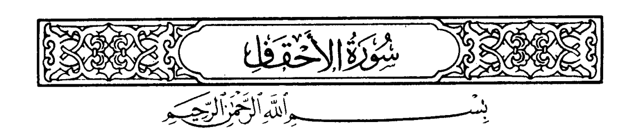
قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الجاثية : ٢٩] والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم[(٣)] .

* * *

(١) شفاء العليل (٣٩) .
(٢) شفاء العليل (٩٦) .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٢) .



سُورَةُ الأَحْقَافِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

قال ابن عباس والمفسرون بعده : ألهمني ، قال أبو إسحاق : وتأويله في اللغة كفني عن الأشياء إلا نفس شكر نعمتك ، ولهذا يقال في تفسير الموزع : المولع ومنه الحديث : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم موزعاً بالسواك »[١] أي : مولعاً به ، كأنه كف ومنع إلا منه ، وقال في الصحاح : وزعته أزعه وزعاً : كففته فاتزع عنه أي : كف وأوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به فهو موزع به ، واستوزعت الله شكره فأوزعني ، أي : استلهمته فألهمني فقد دار معنى اللفظة على معنى ألهمني ذلك واجعلني مغرى به وكفني عما سواه ، وعند القدرية أن هذا غير مقدور للرب بل هو غير مقدور العبد[٢] .

قوله تعالى في الريح التي سلطها على قوم عاد : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٥] .

أي : كل شيء يقبل التدمير ومن شأن الريح أن تدمره ونظائره كثيرة[٣] .

---

(١) في المطبوع « بالسؤال » والصحيح ما أثبته كما في الفائق للزمخشري (٤/٥٧) .
« وقال : أي مولعاً » .
وكذا في النهاية لابن الأثير (٥/١٨١) .
واللسان مادة « وزع » .
ولم أستطع معرفة مخرجي الحديث ، مع دلالة الأحاديث الصحيحة عليه .

(٢) شفاء العليل (٥٧) .

(٣) زاد المعاد (٤/١٠) .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

[الأحقاف : ٢٩،٣٢]

فهذا يدل على تكليف الجن من وجوه متعددة :

(**أحدها**) : أن الله سبحانه وتعالى صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه .

(**الثاني**) : أنهم ولوا إلى قومهم منذرين ، والإنذار هو الإعلام للخوف بعد انعقاد أسبابه . فعلم أنهم منذورن لهم بالنار إن عصوا الرسول .

الثالث : أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه ، وأنه يهدي إلى الحق ، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه ، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم ، وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة وهم قادرون على امتثال ما فيه ، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة .

الرابع : أنهم قالوا لقومهم : ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به** ﴾ [الأحقاف : ٣١] . وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر .

الخامس : أنهم قالوا : ﴿ **من ذنوبكم** ﴾ والذنب مخالفة الأمر .

السادس : أنهم قالوا : ﴿ **ويجركم من عذاب أليم** ﴾ وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم . وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم .

السابع : أنهم قالوا : ﴿ **ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء** ﴾ [الأحقاف : ٣٢] . وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن

إجابة داعي الله منهم . وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن والآية لا تستلزمه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وأما ذكره له بلفظ الطريق في سورة الأحقاف خاصة ؛ فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمني الجن أنهم قالوا لقومهم : ﴿ **إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم** ﴾ [الأحقاف : ٣٠] .

وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى وأن الكتاب الذي سمعوه مصدقا لما بين يديه من كتاب موسى وغيره ؛ فكان فيه كالنبأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في قوله لقومه : ﴿ **ما كنت بدعا من الرسل** ﴾ [الأحقاف : ٩] . أي لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض ؛ بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم وإنما بعثت مصدقا لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان فقال مؤمنو الجن : ﴿ **إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم** ﴾ .

أي إلى سبيل مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه فذكر الطريق ههنا إذا أولى ؛ لأنه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعين اتباعه ، والله أعلم[2] .

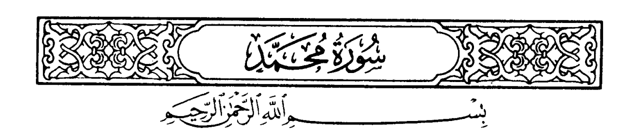
* * *

(١) طريق الهجرتين (٣٩٠ - ٣٩١) .

(٢) بدائع الفوائد (٢/١٦ - ١٧) .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٤،٥] .

فيحتمل أن لا يكوّن من هذا[1] ، وتكون الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة فإنه رتب هذا الجزاء على قتلهم ، ويحتمل أن يكون منه ويكون قوله سيهديهم ويصلح بالهم إخباراً منه سبحانه عما يفعله بهؤلاء الذين قتلوا في سبيله قبل أن قتلوا ، وأتى به بصيغة المستقبل إعلاماً منه بأنه يجدد له كل وقت نوعاً من أنواع الهداية وإصلاح البال شيئاً بعد شيء ، فإن قلت فكيف يكون ذلك المستقبل خبرا عن الذين قتلوا ؟ قلت : الخبر قوله فلن يضل أعمالهم ، أي : أنه لا يبطلها عليهم ولا يترهم إياها ، هذا بعد أن قتلوا ثم أخبر سبحانه خبراً مستأنفاً عنهم أنه سيهديهم ويصلح بالهم لما علم أنهم سيقتلون في سبيله ، وأنهم بذلوا أنفسهم له ، فلهم جزاآن جزاء في الدنيا بالهداية على الجهاد ، وجزاء في الآخرة بدخول الجنة فيرد السامع كل جملة إلى وقتها لظهور المعنى وعدم التباسه ، وهو في القرآن كثير ، والله أعلم[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقال تعالى : ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم** ﴾ [محمد: ٤،٥] .

---

(١) أي من باب : أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الحسنة الأولى ، وأن المعصية قد تكون عقوبة للمعصية الأولى وراجع هذا الفصل في المصدر الآتي .

(٢) شفاء العليل (١٦١) .

فهذه هداية بعد قتلهم فقيل : المعنى : سيهديهم إلى طريق الجنة ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم . وقال ابن عباس : سيهديهم إلى أرشد الأمور ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا . واستشكل هذا القول ؛ لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنهم سيهديهم ، واختاره الزجاج وقال : يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا . قال : وأراد به يجمع لهم خير الدنيا والآخرة وعلى هذا القول فلابد من حمل قوله قتلوا في سبيل الله على معنى يصح معه إثبات الهداية وإصلاح البال[1] .

قال تعالى في حق المنافقين : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ ﴾ [محمد : ٣٠] .

فالأول : فراسة النظر والعين .

والثاني : فراسة الأذن والسمع .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة ، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم . فقال : ﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول** ﴾ وهو تعريض الخطاب وفحوى الكلام ومغزاه .

(واللحن) ضربان : صواب وخطأ . فلحن الصواب نوعان :

أحدهما : الفطنة . ومنه الحديث « ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض »[2] .

والثاني : التعريض والإشارة وهو قريب من الكناية ومنه قول الشاعر :

وحديث ألذه وهو مما يشتهي السامعون يوزن وزناً

(١) شفاء العليل (٨٤ – ٨٥) .

(٢) حديث صحيح عند الشيخين .

مر برقم (٢) (٣٠/٣) من سورة الحجر .

منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحناً[١]

والثالث : فساد المنطق في الإعراب . وحقيقته : تغيير الكلام عن وجهه : إما إلى خطأ وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ .

والمقصود : أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم . فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه : أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه . فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية . والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسماع . وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله . ثم تلا قوله تعالى : (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) » [الحجر : ٧٥][٢][٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [محمد : ٣٠]

فهذا التعريف داخل تحت المشيئة معلق بها ، ثم قال : ﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول** ﴾ فهذا قسم محقق لا شرط فيه ، وذلك أن ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره على وجهه ، لكنه يبدو في الوجه بُدُوًّا خفياً يراه الله ، ثم يقوى حتى يصير صفة في الوجه يراها أصحاب الفراسة ، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور الناس ثم يقوى حتى يمسخ الوجه على طبيعة الحيوان الذي هو على خلقه من قرد أو خنزير ، كما جرى على كثير من الأمم قبلنا ويجري على بعض هذه الأمة ، كما وعد به الصادق الذي لا ينطق عن الهوى[٤] .

(١) انظر هامش (٣) (٣٠/٣) من سورة الحجر .
(٢) حديث ضعيف ، انظر تخريجه رقم (١) (٣١/٣) من سورة الحجر .
(٣) مدارج السالكين (٤٨٣/٢) .
(٤) الكلام في مسألة السماع (٣٧٢ - ٣٧٣) .

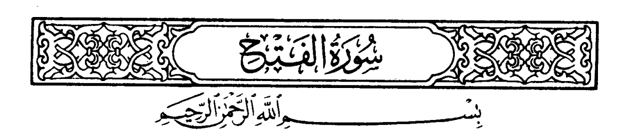
قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٣] .

وتفسير الإبطال ها هنا الردة ؛ لأنها أعظم المبطلات ؛ لا لأن المبطل ينحصر فيها[1] .

* * *

(١) مدارج السالكين (١/٢٧٨) .

سُورَةُ الفَتْحِ



سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح :١و٢] .

ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء :

أحدها : الفتح المبين .

والثاني : مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

والثالث : هدايته الصراط المستقيم .

والرابع : إتمام نعمته عليه .

والخامس : إعطاء النصر العزيز ، وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر ؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح ، فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه .

فالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد وقهر قلوب المخالفين له بالحجة ، وقهر أبدانهم باليد ، وهو سبحانه كثيراً ما يجمع بين هذين الأصلين ؛ إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله ، كقوله تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) . في موضعين في سورة [براءة : ٣٣] . وفي سورة [الصف : ٩] . وقال تعالى :

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) [الحديد : ٢٥] . فهذا الهدى ثم قال : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) [الحديد : ٢٥] . فهذا النصر ، فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر . وقال تعالى : (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ [آل عمران : ١،٤] . فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان ، وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل وسر اقتران النصر بالهدى أن كلا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل ، ولهذا سمى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانا ، كما قال تعالى : (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) [الأنفال : ٤١] . فذكر الأصلين ، ما أنزله على رسوله يوم الفرقان وهو يوم بدر ، وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم ، ومن هذا قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى وهٰرون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين) [الأنبياء : ٤٨] . فالفرقان نصره له على فرعون وقومه ، والضياء والذكر التوراة هذا هو معنى الآية و لم يصب من قال إن الواو زائدة وإن ضياء منصوب على الحال كما بينا فساده في [الأمالي المكية]، فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة ، وأما جواب الثاني عن قوله : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) [الشورى : ٥٢] . بأنه لو عرف لجعل للكفر والضلال حظا من الاستقامة فما أدري من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب وفهمه البديع ، رحمه الله تعالى[1] وما هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم ، أفترى قوله تعالى : (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم) [الصافات : ١١٧،١١٨] . يفهم منه أن لغيره حظاً من الاستقامة وما ثم غيره إلا طرق الضلال ، وإنما الصراط المستقيم واحد وهو ما هدى الله أنبياءه ورسله أجمعين ، وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة ، هل يقال إنه

---

(١) أي السهيلي رحمه الله تعالى كما سيأتي .

يفهم منه أن لغيره حظاً من الاستقامة بل يقال تعريفه ينبيء أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة فإن التعريف في قوة الحصر ، فكأنه قيل : الذي لا صراط مستقيم سواه ، وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة . فتأمله هنا وفي نظائره[1] .

قال السهيلي[2] : إن قوله تعالى : ﴿ **ويهديك صراطاً مستقيماً** ﴾ نزلت في صلح الحديبية ، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح ورأوا أن الرأي خلافه ، وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله صلى الله عليه وسلم أعلم ؛ فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فلم يرد صراطاً مستقيماً في الدين ، وإنما أراد صراطاً في الرأي والحرب والمكيدة ، وقوله تبارك وتعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) أي : تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم ، ولو قال في هذا الموطن إلى الصراط المستقيم ؛ لجعل للكفر وللضلال حظاً من الاستقامة إذ الألف واللام تنبيء أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصولة أحق بذلك المعنى ، مما تلاه في الذكر أو ما قرب به في الوهم ، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه ، وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن ، أما قوله : إن المراد بقوله ﴿ **ويهديك صراطاً مستقيماً** ﴾ في الحرب والمكيدة ؛ فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم « أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها ، ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطاً مستقيماً »[3] .

وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك ؟ بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله : (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم) ثم فسره بقوله

(١) بدائع الفوائد (١٦/٢ – ١٧) .

(٢) انظر نتائج الفكر للسهيلي رحمه الله تعالى (٣٠٣) .

(٣) رواه البخاري (٤٤٦/٨) في التفسير ، باب : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ .
والترمذي (٣٥٩/٥) في التفسير ، باب : ومن سورة الفتح ...
وانظر تفسير ابن كثير (١٩٥/٤ – ١٩٧) .

تعالى : (دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) [الأنعام : ١٦١] . ونصب دينا هنا على البدل من الجار والمجرور ، أي : هداني دينا قيما ، أفتراه يمكنه ههنا أن يقول إن الحرب والمكيدة فهذا جواب فاسد جداً »[1] .

قال الله سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] .

ثم علم الله سبحانه وتعالى ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله وحبسوا الهدي عن محله واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة ، فاضطربت قلوبهم وقلقت ولم تطق الصبر فعلم تعالى ما فيها ، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفاً وهو اللطيف الخبير ، وتحتمل الآية وجهاً آخر وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها والظاهر أن الآية تعم الأمرين ، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

[الفتح : ٢٦]

لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه السكينة تقابل حمية الجاهلية ، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور ؛ فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم وكلمة التقوى على ألسنتهم ، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم ، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جنداً من

(١) بدائع الفوائد (٢/١٣ - ١٤) .

جند الله أيد بها رسوله والمؤمنين ، في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم .

وثمرة هذه السكينة : الطمأنينة للخبر تصديقاً وإيقاناً وللأمر تسليماً وإذعاناً ، فلا تدع شبهة تعارض الخبر ، ولا إرادة تعارض الأمر ، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يبتلى بها العبد ليقوى إيمانه ، ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها ، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]

وكلمة التقوى هي الكلمة التي يتقى الله بها ، وأعلى أنواع هذه الكلمة هي قول لا إله إلا الله ، ثم كل كلمة يتقى الله بها بعدها فهي من كلمة التقوى ، وقد أخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها ، فبإلزامه التزموها ، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها ، والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم فهو الملزم وهم الملتزمون[٢] .

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ٢٧] .

بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا و لم يعتمروا ، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا فحصل في العام القابل وقال سبحانه : ﴿ **فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ ، وهو صلح الحديبية ، وهو أول الفتح المذكور في قوله : (إنا فتحنا لك فتحا مبينا)

(١) إعلام الموقعين (٢٥٤/٤ – ٢٥٥) .

(٢) شفاء العليل (٦٠) .

[الفتح : ١] . فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك ، ودخل الناس بعضهم في بعض وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة لا يخافون ، ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب لا ممن دخل فيه إلى ذلك الوقت ، وظهر لكل أحد بغي المشركين وعداوتهم وعنادهم ، وعلم الخاص والعام أن محمداً وأصحابه أولي الحق والهدى ، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد ، فإن البيت الحرام لم يصد عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم ، فتحققت العرب عناد قريش وعداوتهم ، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام ، وزاد عناد القوم وطغيانهم ، وذلك من أكبر العون على نفوسهم ، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله ، وذلك من أعظم أسباب نصرهم ، إلى غير ذلك من الأمور التي علمها الله ولم يعلمها الصحابة ولهذا سماه فتحا ، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم أفتح هو ؟ قال : « نعم »[١][٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

إن قوله تعالى : ﴿ **لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين** ﴾ فانظر كيف جعل فعل الشرط ماضياً والجزاء مستقبلا ؛ لأن القصد كان إلى دخولهم المسجد الحرام ، وعنايتهم كلها مصروفة ، وهممهم معلقة به دون وقوع الأفعال بمشيئة الله تعالى ، فإنهم لم يكونوا يشكون في ذلك ولا يرتابون ، وأكد هذا المعنى تقديم الجزاء على الشرط ، وهو إما نفس الجزاء على أصح القولين دليلا كما تقدم تقريره ، وإما دال على الجزاء وهو محذوف مقدر تأخيره ، وعلى القولين ؛ فتقدم الجزاء أو تقديم ما يدل عليه اعتناء بأمره وتجريداً للقصد إليه ، ويدل عليه أيضاً

---

(١) رواه مسلم (٤/٤٢٥ - ٤٢٦) في الجهاد ، باب : صلح الحديبية .
ورواه الطبري (٢٦/٧٠) .
والحاكم في المستدرك (٢/٤٥٩) .
وصححه على شرط مسلم .
وقال الذهبي « لم يرو مسلم لمجمع - أحد رجال سند الحديث - شيئاً ولا لأبيه وهما ثقتان » .
(٢) شفاء العليل (٣٤) .

تأكيده باللام المؤذنة بالقسم المضمر ، كأنه قيل : والله لتدخلن المسجد الحرام فهذا كله يدلك على أنه هو المقصود المعني به[1] .

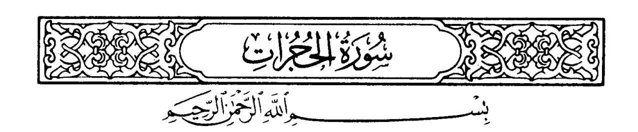
* * *

(١) بدائع الفوائد (١٠٦/١ – ١٠٧) .



سُورَةُ الحُجُرَاتِ





بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾
[الحجرات : ١، ٢]

فإذا كان سبحانه قد نهى عن التقديم بين يديه ؛ فأي تقديم أبلغ من تقديم عقله على ما جاء به . قال غير واحد من السلف : ولا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر .

ومعلوم قطعاً أن من قدم عقله أو عقل غيره على ما جاء به فهو أعصى الناس لهذا النبي صلى الله عليه وسلم ، وأشدهم تقدماً بين يديه ، وإذا كان سبحانه قد نهاهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته ؛ فكيف يرفع معقولاتهم فوق كلامه وما جاء به ؟ ومن المعلوم قطعاً أنه لم يكن يفعل هذا في عهده إلا الكفار والمنافقون ، فهم الذين حكى الله سبحانه عنهم معارضة ما جاء به بعقولهم وآرائهم وصارت تلك المعارضة ميراثاً في أشباههم كما حكى الله عن المشركين معارضة شرعه وأمره بقضائه وقدره ، وورثهم في هذه المعارضة طائفتان :

إحداهما : إخوانهم المباحية ، الذين خدعوا ربقة الشريعة من أعناقهم ودانوا بالقدر .

والثانية : الذين عارضوا قضاءه وقدره بأمره ، وقالوا : لا يمكن الجمع بينهما فأبطلوا القدر بالأمر ، وأولئك أقعد بالميراث من هؤلاء وقد ذكر سبحانه الأمثال العقلية التي عارض المشركون بها الوحي لتكون عبرة للمؤمنين ، ومثلاً

للمعارضين : (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم) [الأنفال : ٤٢][1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ [الحجرات : ١] .

أي : لا تقولوا حتى يقول ، ولا تأمروا حتى يأمر ، ولا تفتوا حتى يفتي ، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه ، روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة[2] .

وروى العوفي رضي الله عنه قال : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه والقول الجامع في معنى الآية لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يفعل .

وقال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ﴾** [الحجرات : ٢] .

فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه ؟ أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم[3] ؟ .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] .

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/٩٩٦ – ٩٩٨) .

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٢٦/١١٦) .

(٣) إعلام الموقعين (١/٨٦) .

فحذر المؤمنين من حبوط أعمالهم بالجهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كما يجهر بعضهم لبعض ، وليس هذا بردة ؛ بل معصية تحبط العمل وصاحبها لا يشعر بها ، فما الظن بمن قدم على قول الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه وطريقه قول غيره وهديه وطريقه . أليس هذا قد حبط عمله وهو لا يشعر[(١)] ؟ .

قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦].

فإن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدقاً وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الشيطان : أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم ، وأرادوا قتلي ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أن يغزوهم ، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلناه من حق الله ، فبدا له في الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث خالد ابن الوليد خفية في عسكر ، وأمره أن يخفي عليهم قدومه وقال له : « انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم ؛ فخذ منهم زكاة أموالهم وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار » ففعل ذلك خالد ، ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم إلا الطاعة والخير ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر ، فنزل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾[(٢)] . والنبأ هو الخبر الغائب عن المخبر إذا كان له

---

(١) الوابل الصيب (٢١) .

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤/٢٧٩) .
والطبراني في الكبير (٣/٢٧٤ – ٢٧٥) .
وقال الهيثمي « رجال أحمد ثقات » مجمع الزوائد (٧/١٠٨ – ١٠٩) .

شأن ، و « التبين » طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علماً ، وهٰهنا فائدة لطيفة ، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة ، وإنما أمر بالتبين فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق ، ولو أخبر به من أخبر فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته ، وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم ؛ بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري وفسقه من جهات أخر ، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته ، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق ، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة ، ولا سيما من فسقه من جهة الاعتقاد والرأي ، وهو متحر للصدق فهذا لا يرد خبره ولا شهادته ، وأما من فسقه من جهة الكذب ؛ فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته ، وإن ندر منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء ، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله[1].

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧] .

فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم وهذا لا يقدر عليه سواه ، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته ، فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين ، حبه وحسنه الداعي إلى حبه ، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان ، وأن ذلك محض فضله ومنته عليهم ، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده ، فجاد عليهم به فضلاً منه ونعمة ، والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح ،

وانظر تفسير ابن كثير (٢٢٣/٤ - ٢٢٥) .
والطبري (١٢٣/٢٦) .
(١) مدارج السالكين (٣٦٠/١ - ٣٦١) .

حكيم بجعله في مواضعه[١] .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له ، حكيم يضعه في مواضعه ، وعند أهله ، لا يمنعه أهله ولا يضعه عند غير أهله ، وذكر هذا عقيب قوله : ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم** ﴾ [الحجرات : ٧] . ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان** ﴾ يقول سبحانه : لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم ؛ ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم ، كذلك فآثرتموه ورضيتموه ، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي ، ولا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر ، فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم ، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان ، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم ولا تقدمتم به إليها ، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ، ولا تبلغه فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون ؛ لشق عليكم ذلك ، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون ، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح كما أردتم الإيمان ، فلولا أني حببته إليكم ، وزينته في قلوبكم ، وكرهت إليكم ضده ؛ لما وقع منكم ولا سمحت به أنفسكم[٢] .

قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] . قسم العباد إلى تائب وظالم ، وما ثم قسم ثالث البتة ، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب ، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله ، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أيها الناس توبوا إلى الله ، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »[٣] . وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم « رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور ،

(١) شفاء العليل (٥٧) .

(٢) مدارج السالكين (١/٤١٤ - ٤١٥)) .

(٣) رواه البخاري (١١/١٠٤) في الدعوات ، باب : استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة .

مائة مرة »[١] وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ [النصر : ١] . إلى آخرها إلا قال فيها : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي »[٢] وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن ينجي أحداً منكم عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل »[٣] .

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله ، وحقوقه وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية ، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها[٤] .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

وتارك المأمور ظالم ، كما أن فاعل المحظور ظالم ، وزوال اسم « الظلم » عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين ، فالناس قسمان : تائب وظالم ليس إلا ، فالتائبون هم ﴿ العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ﴾ [التوبة : ١١٢] . فحفظ حدود الله جزء التوبة ، والتوبة هي مجموع هذه الأمور ، وإنما سمي تائباً : لرجوعه إلى أمر الله من نهيه ، وإلى طاعته من معصيته[٥] .

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣٢٨/٦) وصححه أحمد شاكر .
ورواه أبو داود (٣٧٩/٤ - ٣٨٠) في الصلاة ، باب : في الاستغفار .
وابن ماجه (الصحيح) (٣٢١/٢) في الأدب ، باب الاستغفار .
ورواه غيرهم .
انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم ٥٥٦) .
وفيه بحث نفيس في الثابت في قوله « أنت التواب الغفور أم الرحيم » .

(٢) رواه مسلم (١٢١/٢) في الصلاة ، باب : ما يقال في الركوع والسجود .
والإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣٥/٦) .

(٣) رواه البخاري في المرض (١٣٢/١٠) باب : تمني المريض الموت .
ومسلم (٦٨١/٥) في صفة القيامة والجنة والنار ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله .

(٤) مدارج السالكين (١٧٨/١ - ١٧٩) .

(٥) مدارج السالكين (٣٠٦/١) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٤]

نفياً للإيمان المطلق لا مطلق الإيمان لوجوه **منها** :

أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا أسلمنا ، والمنافق لا يقال له ذلك .

ومنها : أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات ، ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم ، وجفاء لا نفاقاً وكفراً .

ومنها : أنه قال: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم ، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان .

ومنها : أن الله تعالى قال:﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾[الحجرات : ١٤] . أي : لا ينقصكم والمنافق لا طاعة له .

ومنها : أنه قال : (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم) [الحجرات : ١٧] . فأثبت لهم إسلاماً ، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً ؛ لقال لم تسلموا بل أنتم كاذبون كما كذبهم في قولهم : (نشهد إنك لرسول الله) [المنافقون : ١] ؛ لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم .

ومنها : أنه قال : (بل الله يمن عليكم) ولو كانوا منافقين لما من عليهم .

ومنها أنه قال : (أن هداكم للإيمان) ولا ينافي هذا قوله : (قل لم تؤمنوا) فإنه نفى الإيمان المطلق ومن عليهم بهدايتهم إلى الإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان .

ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قسم القسم ، قال له سعد أعطيت

فلاناً وتركت فلاناً وهو مؤمن ، فقال : أو مسلم »[١] ثلاث مرات وأثبت له الإسلام دون الإيمان ، وفي الآية أسرار بديعة ليس هذا موضعها ، والمقصود الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان ، فالإيمان المطلق يمنع دخول النار ، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات : ١٤] . فهؤلاء مسلمون وليسوا بمؤمنين ، لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه ، فذاق حلاوته وطعمه ، وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام ، وليس هؤلاء كفاراً فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله : ﴿ **ولكن قولوا أسلمنا**) ولم يرد : قولوا بألسنتكم من غير مواطأة القلب ، فإنه فرق بين قولهم : ﴿ **آمنا** ﴾ وقولهم : ﴿ **أسلمنا** ﴾ ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان ؛ قال : ﴿ **لم تؤمنوا** ﴾ ، ووعدهم سبحانه وتعالى مع ذلك على طاعتهم أن لا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئاً ، ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه وهم الذين آمنوا به وبرسوله ثم لم يرتابوا في إيمانهم ، وإنما انتقى عنهم الريب ؛ لأن الإيمان قد باشر قلوبهم وخالطتها بشاشته فلم يبق للريب فيه موضع .

وصدق ذلك الذوق : بذلهم أحب شيء إليهم في رضى ربهم تعالى ، وهو أموالهم وأنفسهم ، ومن الممتنع : حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان ووجود حلاوته ، فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد كما قال الحسن : (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل)[٣] .

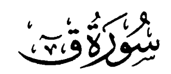
* * *

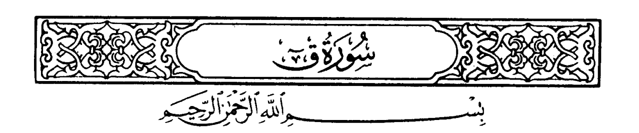
---

(١) رواه البخاري في الإيمان (٩٩/١) باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة .
ومسلم (٣٦١/١) في الإيمان ، باب : تألف قلب من يخاف على إيمانه ... ورواه غيرهما .

(٢) بدائع الفوائد (١٧/٤) .

(٣) مدارج السالكين (٩١/٣) .





بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق : ١-٣] .

الصحيح أن (ق ، ون ، وص) بمنزلة (حم . وألم . وطس) : تلك حروف مفردة ، وهذه متعددة وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ما فيها قبل[١] .

وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه ، وهو القرآن ، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه . وأنه حق من عنده ، ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به . لما في القسم من الدلالة عليه ، أو لأن المقصود نفس المقسم به كما تقدم بيانه ، ثم أخذ سبحانه في بيان عجب الكفار من غير عجيب ، بل ربما لا ينبغي أن يقع سواء ، كما قال سبحانه : (ألر تلك آيات الكتاب الحكيم أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) [يونس : ١،٢] . فأي عجب من هذا حتى يقول الكافرون : (إن هذا لسحر مبين) ؟ وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده ، وهدايته ، وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بطريق الخير والشر ، وما هم صائرون إليه بعد الموت ، وأمرهم ونهيهم ، حتى يقابل ذلك بالتعجب ، ونسبة ما جاء به إلى السحر ، لولا غاية الجهل والظلم وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم ؛ كما قال تعالى : (وإن تعجب فعجب قولهم) [الرعد : ٥][٢] .

---

(١) انظر أول البقرة ، وأول يس .

(٢) التبيان (٤٢٥ - ٤٢٦) .

قال تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : ٧] .

فالمنيب إلى ربه : يتذكر بذلك فإذا تذكر تبصر به فالتذكر قبل التبصر وإن قدم عليه في اللفظ[١] .

قال تعالى : ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق : ١٠] .

وقال تعالى : (ونخل طلعها هضيم) [الشعراء : ١٤٨] . طلع النخل : ما يبدو من ثمرته في أول ظهوره ، وقشره يسمى الكفرى ، والنضيد : المنضود الذي قد نضد بعضه على بعض ، وإنما يقال له : نضيد ما دام في كفراه ، فإذا انفتح فليس بنضيد[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

فإن قيل : كيف تصنعون بهذا القول لله عز وجل .

قيل : هذه الآية فيها قولان للناس :

أحدهما : أنه قربه بعلمه ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الإنسان و « حبل الوريد » حبل العنق وهو عرق بين الحلقوم والودجين الذي متى قطع مات صاحبه . وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضاً . وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء .

والقول الثاني : أنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه . فيكون أقرب إليه من ذلك العرق . اختاره شيخنا .

وسمعته يقول : هذا مثل قوله : (نحن نقص عليك أحسن القصص) [يوسف : ٣] . وقوله : (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) [القيامة : ١٨] . فإن جبريل عليه

(١) إعلام الموقعين (١/١٩٤) .
(٢) زاد المعاد (٤/٣٣٨) .

السلام هو الذي قصه عليه بأمر الله . فنسب تعليمه إليه إذ هو بأمره ، وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية : فإذا قرأه رسولنا فأنصت لقراءته حتى يقضيها[١] .

قلت : أول الآية يأبى ذلك ، فإنه قال ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾ .

قال : وكذلك خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب ، وتخليق الملائكة .

قلت : وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه في تخليق النطفة « فيقول الملك الذي يخلقه : يارب ، ذكر أم أنثى ؟ أسويٌّ أم غير سوي ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك »[٢] فهو سبحانه الخالق وحده .

ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق ، فإن أفعالهم وتخليقهم خلق له سبحانه ، فما ثَمَّ خالق على الحقيقة غيره[٣] .

قال تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٧،٢٩]

أي : لا أؤاخذ عبداً بغير ذنب ، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح ، ولهذا قال قبله : (وقد قدمت إليكم بالوعيد) المتضمن لإقامة الحجة وبلوغ الأمر والنهي ، وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه ، فذلك الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه[٤] .

---

(١) الذي في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : « كان يحرك شفتيه إذا أنزل عليه فقيل له: لا تحرك به لسانك – يخشى أن ينفلت منه – إن علينا جمعه : أن نجمعه في صدرك ، وقرآنه : أن نقرأه ، ﴿ فإذا قرأناه ﴾ يقول : أنزل عليه ﴿ فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾ أن نبينه على لسانك » فتح الباري (٤٩/٨ و ٥٥٠) في التفسير ، في سورة القيامة ، باب : ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ . وانظر تفسير ابن كثير (٤٧٦/٤) .

(٢) صحيح مسلم (٥٠٠/٥ – ٥٠١) . في القدر ، باب : كيفية خلق الآدمي في بطن أمه .

(٣) مدارج السالكين (٢٩٠/٢) .

(٤) مدارج السالكين (٢٣٦/١) .

(أسباب الانتفاع بالقرآن)

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض ، ومحل قابل ، وشرط لحصول الأثر ، وانتفاء المانع الذي يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد .

فقوله : ﴿ **إن في ذلك لذكرى** ﴾ إشارة إلى ما تقدم هو المحل القابل ، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى : (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا) [يس : ٦٩،٧٠] أي : حي القلب .

وقوله : ﴿ **أو ألقى السمع** ﴾ أي وجه سمعه ، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا شرط التأثر بالكلام .

وقوله : ﴿ **وهو شهيد** ﴾ أي : شاهد القلب حاضر غير غائب . قال ابن قتيبة[1]: « استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافل ولا ساه » .

وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله . فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحي ، ووجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر .

فإن قيل : إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه ، فما وجه دخول أداة « أو » في قوله : ﴿ **أو ألقى السمع** ﴾ ، والموضع موضع واو الجمع لا موضع

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (٤١٩) .

«أو» التي هي لأحد الشيئين ؟ قيل: هذا سؤال جيد، والجواب عنه أن يقال: خرج الكلام بـ« أو » باعتبار حال المخاطب المدعو ، فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق ، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن ، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة ، وهذا وصف الذين قيل فيهم : (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق) [سبأ : ٦] .

وقال في حقهم : (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء) [النور : ٣٥] .

فهذا نور الفطرة على نور الوحي ، وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي .

وقد ذكرنا ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية »[1] .

فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن ، فيجدها كأنها قد كتبت فيه ، فهو يقرؤها عن ظهر قلب . ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد ، واعي القلب ، كامل الحياة ، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل ، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي ، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام ، وقلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقل معانيه ، فيعلم حينئذ أنه الحق .

فالأول : حال من رأى بعينه ما دعي إليه وأخبر به .

والثاني : حال من علم صدق المخبر وتيقنه ، وقال يكفيني خبره ، فهو

(١) انظر التعليق على « مؤلفات ابن القيم » في المقدمة .

في مقام الإيمان ، والأول في مقام الإحسان . هذا قد وصل إلى علم اليقين ، وترق قلبه منه إلى منزلة عين اليقين ، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام .

فعين اليقين نوعان : نوع في الدنيا ، ونوع في الآخرة . فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين . وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار ، وفي الدنيا بالبصائر ، فهو عين يقين في المرتبتين .

فصـــل

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ويغني عن كلام أهل الكلام ومعقول أهل المعقول ، فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة وانقسام الناس إلى هالك شقي وفائز سعيد ، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء ، وتضمنت إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائض والعيوب . وذكر فيها القيامتين : الصغرى والكبرى . والعالمين : الأكبر ، وهو عالم الآخرة . والأصغر ، وهو عالم الدنيا . وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته وحاله عند وفاته ويوم معاده ، وإحاطته سبحانه به من كل وجه ، حتى علمه بوساوس نفسه ، وإقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها ، وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه وشاهد يشهد عليه ، فإذا أحضره السائق قال : ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾[ق : ٢٣] . أي : هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته ، فيقال عند إحضاره : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[ق : ٢٤] . كما يحضر الجاني إلى حضرة السلطان ، فيقال : هذا فلان قد أحضرته ، فيقول : اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه .

وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى ، فينعمه ويعذبه ، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها ، ويعذب التي كفرت بعينها ، لا أنه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها

ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدنا غير هذا البدن ، من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب . والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحا غير هذه الروح ، وبدنا غير هذا البدن ، وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ودل عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالى . وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين ، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام أخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها ، كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يخلق شيئاً بعد شيء ! فكل وقت يخلق الله سبحانه أجساما وأرواحاً غير الأجسام التي فنيت ، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عيانا ؟ وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم ، بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظاما ورفاتا ، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ، ولهذا قالوا : (أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون) [الصافات : ١٦] . وقالوا : (ذلك رجع بعيد) [ق : ٣] .

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه ، لم يكن ذلك بعثا ولا رجعا ، بل يكون ابتداء ، ولم يكن لقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [ق : ٤] . كبير معنى . فإنه سبحانه جعل هذا جوابا لسؤال مقدر ، وهو : أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز ، فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم ، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء ، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها ، وتأليفها خلقا جديدا ، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته .

فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع :

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص .

الثاني : أن القدرة لا تتعلق بذلك .

الثالث : أن ذلك أمر لا فائدة فيه ، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئا بعد شيء ، هكذا أبدا ، كلما مات جيل خلفه جيل آخر . فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك ، فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

أحدها : تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال : (من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) [يس : ٧٨،٧٩] . وقال : (وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم) [الحجر : ٨٥،٨٦] . وقال : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) [ق : ٤] .

والثاني : تقرير كمال قدرته ، كقوله : (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) [يس : ٨١] . وقوله : (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) [القيامة : ٤] . وقوله : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير) [الحج : ٦] .

ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله : (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) .

الثالث : كمال حكمته ، كقوله : (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) [الدخان : ٣٨] . وقوله : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) [ص : ٢٧] . وقوله : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) [القيامة : ٣٦] . وقوله : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق) [المؤمنون : ١١٥،١١٦] . وقوله : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) [الجاثية: ٢١].

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه ، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص .

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم ، ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٖ مَّرِيجٍ﴾[ق : ٥] .مختلط لا يحصلون منه على شيء ، ثم دعاهم إلى النظر في العالَم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه ، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض ، وكيف بسطها وهيأها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات ؛ على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته ، وأن ذلك تبصرة – إذا تأملها العبد المنيب وتبصر بها – تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ، فالناظر فيها يتبصر أولا ، ثم يتذكر ثانيا ، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه .

ثم دعاهم إلى التفكر في مادة أرزاقهم ، وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم ، وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه ، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ، ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض ، وبين ذلك مع اختلاف منابعها وتنوع أجناسها ، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها . ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل (فأحيا به الأرض بعد موتها) [البقرة : ١٦٤] . ثم قال : ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[ق : ١١] . أي : مثل هذا الإخراج من الأرض والفواكه والثمار والأقوات والحبوب ، خروجكم من الأرض بعد ما غيبتم فيها .

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في كتابنا « المعالم »[1] ، وبينا بعض ما فيها من الأسرار والعبر .

ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير ، وأوجز لفظ وأبعده عن كل شبهة وشك ، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلا فكذبوهم ، فأهلكهم بأنواع الهلاك وصدق فيهم وعيده الذي أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا ، وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم ،

(١) هو كتابه « إعلام الموقعين ... » ذكر فيه هذا الباب (١٧٦/١) وما بعدها .

من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه في كتاب ، بل أخبر به إخبارا مفصلا مطابقا لما عند أهل الكتاب . ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك ، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم ، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان ، وتناقلته القرون قرنا بعد قرن ، فإنكاره بمنزلة انكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية .

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ [ق : ١٥] . يقال لكل من عجز عن شيء : عيي به ، وعيي فلان بهذا الأمر ، قال الشاعر :

عيـــوا بأمــرهم كمـــا عييــت ببيضتهـــا الحمـــامة

ومنه قوله تعالى : (ولم يعي بخلقهن) [الأحقاف : ٣٣] . قال ابن عباس : يريد أفعجزنا ، وكذلك قال مقاتل .

قلت : هذا تفسير بلازم اللفظة ، وحقيقتها أعم من ذلك ، فإن العرب تقول : أعياني أن أعرف كذا وعييت به إذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول : أعياني دواؤك إذا لم تهتد له ولم تقف عليه . ولازم هذا المعنى العجز عنه . والبيت الذي استشهدوا به شاهد لهذا المعنى ، فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها ، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمي بالبيضة ، فهي تدور وتجول حتى ترمي بها ، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال ، فهي تنقلها من مكان إلى مكان ، وتحار أين تجعل مقرها كما هو حال من عيي بأمره فلم يدر من أين يقصد له ومن أين يأتيه ، وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب ، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن ، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله : (وما مسنا من لغوب) [ق : ٣٨] . ثم أخبر سبحانه أنهم : ﴿ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : ١٥] . أي أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقا جديدا ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات

قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان ، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد .

وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات .. كل ذلك من نطفة ماء . فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره في نفسه ، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته . ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به ، حتى علم وساوس نفسه . ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة ، وأن ذلك أدنى إليه من العرق الذي هو داخل بدنه ، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق .

وقال شيخنا : المراد بقول « نحن » أي ملائكتنا ، كما قال : (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) [القيامة : ١٨] . أي إذا قرأه عليك رسولنا جبريل . قال : ويدل عليه قوله (إذ يتلقى المتلقيان) [ق : ١٧] . فقيد القرب المذكور بتلقي الملكين ، ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقي الملكين ، فلا حجة في الآية لحلولي ولا معطل .

ثم أخبر سبحانه أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله ، ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التي هي أقل وقوعا وأعظم أثراً من الأقوال ، وهي غايات الأقوال ونهايتها . ثم أخبر عن القيامة الصغرى وهي سكرة الموت ، وأنها تجيء بالحق وهو لقاؤه سبحانه والقدوم عليه وعرض الروح عليه والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى . ثم ذكر القيامة الكبرى بقول ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ [ق : ٢٠] . ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم ، وأن كل أحد يأتي الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه ، وهذا غير شهادة جوارحه وغير شهادة الأرض التي كان عليها ، له وعليه ، وغير شهادة رسوله والمؤمنين . فإن الله سبحانه يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر ، والجلود التي عصوه بها ،

ولا يحكم بينهم بمجرد علمه ، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين .

ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم وشهادة البينة لا بمجرد علمه ، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بينة ولا إقرار ؟ ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه وأن لا يزال على ذكره وباله ، وقال : ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ [ق : ٢٢] . ولم يقل عنه ، كما قال : (وإنهم لفي شك منه مريب) [هود : ١١٠] . ولم يقل في شك فيه ، وجاء هذا في المصدر وإن لم يجيء في الفعل فلا يقال غفلت منه ولا شككت منه كأن غفلته وشكه ابتداء منه فهو مبدأ غفلته وشكه ، وهذا أبلغ من أن يقال في غفلة عنه وشك فيه ، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك . ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ ، وعن العين فتنفتح . فنسبة كشف هذا الغطاء عن البعد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه .

ثم أخبر سبحانه أن قرينه ، وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة ، يكتب عمله وقوله ، يقول لما يحضره : هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به ، هذا قول مجاهد .

وقال ابن قتيبة : المعنى : هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي[1] ، والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين ، أي هذا الشخص الذي وكلت به وهذا عمله الذي أحصيته عليه .فحينئذ يقال : (ألقيا في جهنم) [ق : ٢٤] . وهذا إما أن يكون خطابا للسائق والشهيد ، أو خطابا للملك الموكل بعذابه وإن كان واحدا . وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها ، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة ، ثم أجري الوصل مجرى الوقف ، ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات :

(١) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٤٢٢) .

أحدها : أنه كفار لنعم الله وحقوقه ، كفار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته ، كفار برسله وملائكته ، كفار بكتبه ولقائه .

الثانية : أنه معاند للحق بدفعه جحدا وعنادا .

الثالثة : أنه مناع للخير ، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله والخير الذي هو إحسان إلى الناس ، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه كما هو حال أكثر الخلق .

الرابعة : أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه .

الخامسة : أنه مريب ، أي : صاحب ريب وشك ، ومع هذا فهو آت لكل ريبة ، يقال : فلان مريب ، إذ كان صاحب ريبة .

السادسة : أنه مع ذلك مشرك بالله قد اتخذ مع الله إلها آخر يعبده ويحبه ، ويغضب له ويرضى له ويحلف باسمه وينذر له ، ويوالي فيه ويعادي فيه ، فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه ، وأنه هو الذي أطغاه وأضله . فيقول قرينه : لم يكن لي قوة أن أضله وأطغيه ؛ ولكن كان في ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق ، كما قال إبليس لأهل النار : (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) [إبراهيم : ٢٢] .

وعلى هذا ، فالقرين هنا هو شيطانه يختصمان عند الله . وقالت طائفة : بل قرينه ههنا هو الملك ، فيدعي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى ، وأنه لم يفعل ذلك كله ، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهله حتى يتوب ، فيقول الملك : ما زدت في الكتابة على ما عمل ، ولا أعجلته عن التوبة : (ولكن كان في ضلال بعيد) [ق : ٢٧] . فيقول الرب تعالى : (لا تختصموا لدي) [ق : ٢٨] . وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورتي الصافات والأعراف ، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة الزمر ، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة الشعراء وسورة (ص) .

ثم أخبر سبحانه أنه لا يبدل القول لديه ، فقيل : المراد بذلك قوله : (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) [هود : ١١٩] . ووعده لأهل الإيمان بالجنة وأن هذا لا يبدل ولا يخلف . قال ابن عباس : يريد : ما لوعدي خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي . قال مجاهد : قد قضيت ما أنا قاض . وهذا أصح القولين في الآية . وفيها قول آخر : أن المعنى ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس كما يغير عند الملوك والحكام . فيكون المراد بالقول قول المختصمين ، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة . قال الفراء : المعنى : ما يكذب عندي لعلمي بالغيب . وقال ابن قتيبة : ما يحرف القول عندي ولا يزاد فيه ولا ينقص منه . قال : لأنه قال القول عندي ولم يقل قولي ، وهذا كما يقال لا يكذب عندي . فعلى القول الأول يكون قوله : (وما أنا بظلام للعبيد) [ق :٢٩] من تمام قوله (ما يبدل القول لدي) في المعنى ، أي : ما قلته ووعدت به لابد من فعله . ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور . وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين :

أحدهما : أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه .

والثاني : أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده .

ثم أخبر عن سعة جهنم وأنها كلما ألقي فيها ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠] . وأخطأ من قال إن ذلك للنفي ، أي : ليس من مزيد . والحديث الصحيح يرد هذا التأويل[1] .

ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين ، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

---

(١) يشير للحديث الصحيح « يقال لجهنم هل امتلأت ؟ وتقول هل من مزيد ؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول : قط قط ؟ » .
رواه البخاري (٨/٤٦٠) في التفسير ، سورة ق ، باب : (وتقول هل من مزيد) .
ومسلم (٥/٦٩٢) في صفة الجنة والنار ، باب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها .
والترمذي (٥/٣٦٤) في التفسير ، باب : « ومن سورة ق » .
وانظر تفسير الطبري (٢٦/١٧٠) .

إحداها : أن يكون أوابا ، أي : رجاعاً إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن الغفلة عنه إلى ذكره . قال عبيد بن عمير : الأواب : الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها . وقال سعيد بن المسيب : هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

الثانية : أن يكون حفيظا ، قال ابن عباس : لما ائتمنه الله عليه وافترضه . وقال قتادة : حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته . ولما كانت النفس لها قوتان : قوة الطلب وقوة الإمساك كان الأواب مستعملا لقوة الطلب في رجوعه إلى الله ومرضاته وطاعته . والحفيظ مستعملا لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيه . فالحفيظ : الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب : المقبل على الله بطاعته .

الثالثة : قوله : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[ق : ٣٣] . يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد . ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه . ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه ، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله .

الرابعة : قوله ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ . قال ابن عباس : راجع عن معاصي الله ، مقبل على طاعة الله . وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه . ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٤-٣٥] .

ثم خوفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم وأنهم كانوا أشد منهم بطشا ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم ، وأنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا في البلاد ، وهل يجدون محيصا ومنجى من عذاب الله ؟ قال قتادة : حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركا . وقال الزجاج : طوفوا وفتشوا فلم يروا محيصا من الموت . وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه .

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذي ذكر : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ [ق : ٣٧] . ثم أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا إعياء ، تكذيباً لأعدائه من اليهود ، حيث قالوا : إنه استراح في اليوم السابع . ثم أمر نبيه بالتأسي به سبحانه في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه ، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود : إنه استراح . ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه . ثم أمره بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود . فقيل : هو الوتر ، وقيل : الركعتان بعد المغرب . والأول قول ابن عباس ، والثاني قول عمر وعلي وأبي هريرة والحسن بن علي ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس . وعن ابن عباس رواية ثالثة أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات .

ثم ختم السورة بذكر المعاد ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر . وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد (يوم يسمعون الصيحة بالحق) [ق : ٤٢] . بالبعث ولقاء الله يوم تشقق الأرض عنهم كما تشقق عن النبات ، فيخرجون سراعا من غير مهلة ولا بطء ذلك حشر يسير عليه سبحانه .

ثم أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه ، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخف عليه ؛ وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء .

ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ويكرههم عليه ، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده ، فهو الذي ينتفع بالتذكير وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه ، فلا ينتفع بالتذكير[1] .

---

(١) الفوائد (٥ – ١٨) .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم ، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى ، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها ، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة ، والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب ، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ، ولو مرت به كل آية ، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له ، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها ، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين :

أحدهما : أن يحضره ويشهد لما يلقى إليه ، فإن كان غائباً عنه مسافراً في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به ، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه ، وها هنا ثلاثة أمور :

أحدها : سلامة القلب وصحته وقبوله .

الثاني : إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق .

الثالث : إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر .

فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية . قال ابن عطية : القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله والمعنى لمن كان له قلب واع ينتفع به .

قال : وقال الشبلي : قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين .

وقوله : ﴿ **أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ معناه صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته في سمعه ، فذلك إلقاء له عليها ، ومنه قوله : (وألقيت عليك محبة مني) [طه : ٣٩] . أي : أثبتها عليك .

وقوله ﴿ وهو شهيد ﴾ قال بعض المتأولين معناه : وهو شاهد مقبل على الأمر غير معرض عنه ولا يفكر في غير ما يسمع قال : وقال قتادة : هي إشارة إلى أهل الكتاب ، فكأنه قال إن هذه العبر لتذكرة لمن له فهم فتدبر الأمر ، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فتشهد بصحتها لعلمه بها من كتابه التوراة ، وسائر كتب بني إسرائيل قال : فشهيد على التأويل الأول من المشاهدة وعلى التأويل الثاني من الشهادة .

وقال الزجاج معنى (من كان له قلب) : من شرف قلبه إلى التفهم ، ألا ترى أن قوله : (صم بكم عمي) أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع ، كما قال الشاعر :

أصم عما ساءه سميع

ومعنى ﴿ أو ألقى السمع ﴾ : استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع . والعرب تقول : ألق إليَّ سمعك . أي : استمع مني ، وهو شهيد أي : قلبه فيما يسمع ، وجاء في التفسير أنه يعني به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبي صلى الله عليه وسلم فالمعنى أو ألقى السمع وهو شهيد أي شاهد أن صفة النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه ، وهذا هو الذي حكاه ابن عطية عن قتادة وذكر أن شهيداً فيه بمعنى شاهد أي : مخبر .

وقال صاحب الكشاف: (لمن كان له قلب) : واع ؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له[1] وإلقاء السمع : الإصغاء ، وهو شهيد أي : حاضر بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب أو هو مؤمن شاهد على صحته ، وأنه وحي من الله وهو بعض الشهداء في قوله : (لتكونوا شهداء على الناس) [البقرة : ١٤٣] . وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده . فلم يختلف في أن المراد بالقلب : القلب الواعي ، وأن المراد بإلقاء

(١) الكشاف للزمخشري (٤/٢٥) .

السمع : إصغاؤه وإقباله على المذكر ، وتفريغ سمعه له .

واختلف في الشهيد على أربعة أقوال :

أحدها : أنه من المشاهدة وهي الحضور وهذا أصح الأقوال ولا يليق بالآية غيره .

والثاني : أنه شهيد من الشهادة وفيه على هذا ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه شاهد على صحة ما معه من الإيقان .

الثاني : أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة .

الثالث : أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علمه من الكتب المنزلة .

والصواب القول الأول ، فإن قوله ﴿ **وهو شهيد** ﴾ جملة حالية ؛ الواو فيها : واو الحال أي : ألقى السمع في هذه الحال وهذا يقتضي أن يكون حال إلقائه السمع شهيداً ، وهذا هو من المشاهدة والحضور ، ولو كان المراد به الشهادة في الآخرة أو في الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى ، إذ يصير الكلام إن في ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهداً بما معه في التوراة ، أو حال كونه شاهدا يوم القيامة ، ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية وأيضاً فالآيةّ عامة في كل من له قلب أو ألقى السمع فكيف يدعى تخصيصها بمؤمني أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبي صلى الله عليه وسلم ؟

وأيضاً فالسورة مكية[1] والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ولا سيما مثل هذا الخطاب الذي علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعي وإلقاء السمع فكيف يقال هي في أهل الكتاب ؟ فإن قيل المختص

(١) انظر تفسير القرطبي (٦١٧١/٧) .

بهم قوله « وهو شهيد » فهذا أفسد وأفسد ؛ لأن قوله : (وهو شهيد) يرجع الضمير فيه إلى جملة من تقدم ، وهو من له قلب أو ألقى السمع ، فكيف يدعى عوده إلى شيء غايته أن يكون بعض المذكور أولاً ، ولا دلالة في اللفظ عليه .

وأيضاً فإن المشهود به محذوف ولا دلالة في اللفظ عليه فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا ؛ لذكر المشهود به إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه ، وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور ، فإنه لا يقتضي مفعولاً مشهوداً به ، ليتم الكلام بذكره وحده وأيضاً فإن الآية تضمنت تقسيماً وترديداً بين قسمين ، أحدهما من كان له قلب ، والثاني من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب فهو حاضر القلب شاهده لا غائبه ، وهذا والله أعلم الإتيان بأو دون الواو ؛ لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان :

أحدهما : ذو القلب الواعي الذكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه ، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه ، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط ؛ لكمال استعداده وصحة فطرته فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوباً فيه ، فهو قد أدركه مجملاً ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملاً ، وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هي حال الصديق الأكبر رضي الله عنه .

والنوع الثاني : من ليس له هذا الاستعداد والقبول ، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه ، وجمع فكرته عليه ، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله ، وهذه طريقة أكثر المستجيبين ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج ، وذكر المعارضات والأجوبة عنها ، والأولون هم الذين يدعون بالحكمة وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة فهؤلاء نوعا المستجيبين وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان :

نوع يدعون بالمجادلة بالتي هي أحسن فإن استجابوا وإلا فالمجالدة . فهؤلاء لابد لهم من جدال أو جلاد ، ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام متناولة لها كما قال تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) .

فهؤلاء المدعوون بالكلام ، وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وأما من فسر الآية بأن المراد بمن كان له قلب هو المستغني بفطرته عن علم المنطق ، وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة فهو لكمال فطرته مستغن عن مراعاة أوضاع المنطق ، والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد من ليست له هذه القوة فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته وإصغاؤه إليه وأن لا يزيغ في فكره وفسر قوله (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة) :

أنها القياس البرهاني (والموعظة الحسنة) : القياس الخطابي (وجادلهم بالتي هي أحسن) : القياس الجدلي ، فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة التفسير بل ولا من تفاسير المسلمين ، وهو تحريف لكلام الله تعالى وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان ، وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعلية لما يفسرونه من القرآن وينزلونه على مذاهبهم الباطلة ، والقرآن بريء من ذلك كله منزه عن هذه الأباطيل والهذيانات، وقد ذكر بطلان ما فسر به المنطقيون هذه الآية التي نحن فيها والآية الأخرى في موضع آخر من وجوه متعددة وبينا بطلانه عقلاً وشرعاً ولغة وعرفاً وأنه يتعالى كلام الله عن حمله على ذلك وبالله التوفيق[1] .

قال تعالى في آياته المشهودة : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٦،٣٧] .

(١) مفتاح دار السعادة (١٨٥ – ١٨٨) .

والناس ثلاثة : رجل قلبه ميت فذلك الذي لا قلب له فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه .

الثاني : رجل له قلب حي مستعد ، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة ، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة : إما لعدم ورودها أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها . فهو غائب القلب ، ليس حاضراً فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه .

والثالث : رجل حي القلب مستعد . تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع وأحضر قلبه ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه . فهو شاهد القلب . ملقي السمع ، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة .

فالأول : بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر .

والثاني : بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه فكلاهما لا يراه .

والثالث : بمنزلة البصير الذي قد حَدَّق إلى جهة المنظور وأتبعه بصره ، وقابله على توسط من البعد والقرب فهذا هو الذي يراه .

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور .

فإن قيل : فما موقع « أو » من هذا النظم على ما قررت ؟

قيل : فيها سر لطيف ، ولسنا نقول : إنها بمعنى « الواو » . كما يقوله ظاهرية النحاة .

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقاد ، مليء باستخراج العبر . واستنباط الحكم .فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار . فإذا سمع الآيات كانت له نوراً على نور . وهؤلاء أكمل خلق الله وأعظمهم إيماناً وبصيرة حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم ولكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه حتى قيل : إن مثل حال الصديق مع النبي صلى الله عليه وسلم كمثل رجلين دخلا داراً

فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته ، والآخر وقعت يده على ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته لكن علم أن فيها أموراً عظيمة ، لم يدرك بصره تفاصيلها ثم خرجا . فسأله عما رأى في الدار ؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه لما عنده من شواهده .

وهذه أعلى درجات الصديقية ولا تستبعد أن يمن الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

جعل الله سبحانه كلامه ذكرى لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة :

أحدها : أن يكون له قلب حي واع . فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى .

الثاني : أن يصغي بسمعه فيميله كله نحو المخاطب فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه .

الثالث : أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له . وهو « الشهيد » أي الحاضر غير الغائب فإن غاب قلبه وسافر في موضع آخر : لم ينتفع بالخطاب .

وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئيّ إلا إذا كانت له قوة مبصرة وحدق بها نحو المرئيّ ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك فإن فقد القوة المبصرة أو لم يحدق نحو المرئيّ أو حدق نحوه ولكن قلبه كله في موضع آخر : لم يدركه . فكثيراً ما يمر بك إنسان أو غيره ، وقلبك مشغول بغيره . فلا تشعر بمروره فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره وكمال الإصغاء[2] .

---

(١) مدارج السالكين (٤٤٢/١ – ٤٤٣) .

(٢) مدارج السالكين (٢٣١/٣) .

قال قائل منهم[١] للنبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى تكذيبا لهم : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[٢] [ق : ٣٨] .

وتأمل قوله تعالى عقيب ذلك ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق : ٣٩] . فإن أعداء الرسول عليه الصلاة والسلام نسبوه إلى ما لا يليق به وقالوا فيه ما هو منزه عنه . فأمره الله سبحانه وتعالى أن يصبر على قولهم ويكون له أسوة بربه سبحانه وتعالى ، حيث قال أعداؤه فيه ما لا يليق[٣] .

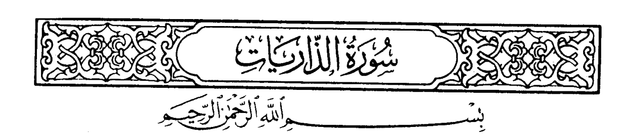
قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]

وهذا تفسير ما جاء في الأحاديث : من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسي أن المراد به قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر[٤] .

* * *

(١) أي اليهود أذلهم الله تعالى .
(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٧٨/٢٦ - ١٧٩) .
والواحدي في أسباب النزول (٢٩٧) .
وانظر الدر المنثور (٦٠٩/٧) .
(٣) إغاثة اللهفان (٣٣٩/٢ - ٣٤٠) .
(٤) الوابل الصيب (١٢٧) .

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ



سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات : ١-٤] .

أقسم بالذاريات وهي الرياح تذرو المطر وتذرو التراب وتذرو النبات إذا تهشم ، كما قال تعالى : (فأصبح هشيماً تذروه الرياح) [الكهف : ٤٥] . أي : تفرقه وتنشره ثم بما فوقها وهي السحاب الحاملات وقراً ، أي : ثقلاً من الماء ، وهي روايا الأرض ، يسوقها الله سبحانه على متون السحاب الرياح . كما في جامع الترمذي من حديث الحسن عن أبي هريرة قال : بينما نبي الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب ، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « هذه العنان ، هذه روايا الأرض، يسوقها الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه »[1] ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك وهي ﴿ **الجاريات يسراً** ﴾ وهي النجوم التي من فوق الغمام . و ﴿ **يسرا** ﴾ أي : مسخرة مذللة منقادة .

وقال جماعة من المفسرين : إنها السفن تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣٧٠/٢) .
والترمذي (٣٧٦/٥) في التفسير ، سورة الحديد ، وقال : « حديث غريب من هذا الوجه .... لم يسمع الحسن من أبي هريرة » (٣٧٧/٥) .
وانظر المراسيل لابن أبي حاتم (٣٥) .
وضعفه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١٥٩٨/٣ - ١٥٩٩) برقم (٥٧٣٥) .
وانظر تفسير ابن كثير (٣٢٣/٤ - ٣٢٤) في أول سورة الحديد .
وحديث رقم (١) ص (٢٥٣) من سورة الطور .

ومنهم من لم يذكر غيره . واختار شيخنا رحمه الله القول الأول ، وقال : هو أحسن في الترتيب ، والانتقال من السافل إلى العالي فإنه بدأ بالرياح وفوقها السحاب وفوقه النجوم وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذي أمرت به بين خلقه . والصحيح أن ﴿ **المقسمات أمراً** ﴾ لا تختص بأربعة .

وقيل : هم جبريل يقسم الوحي والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل ، وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات ، يقسمها بأمر الله ، وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله ، وإسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور ، وهم المدبرات أمراً ، وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم . والله أعلم .

وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية ، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته ، وعظم قدرته . ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها . فللمطر خمسة رياح : ريح ينشر سحابه ، وريح يؤلف بينه ، وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث يريد الله ، وريح تذرو أمامه وتفرقه . وللنبات ريح ، وللسفن ريح ، وللرحمة ريح ، وللعذاب ريح ، إلى غير ذلك من أنواع الرياح . وذلك تقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ، ويجعلها رخاء تارة ، وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذابا تارة ، فتارة يحيي بها الزرع والثمار ، وتارة يغطيها بها ، وتارة ينجي بها السفن ، وتارة يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان ، وتارة تذيبها ، وتارة عقيما ، وتارة لاقحة ، وتارة جنوباً ، وتارة دبوراً ، وتارة صباً ، وتارة شمالا ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهي مع غاية قوتها ألطف شيء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثر والتأثير ، لطيفة المسارق بين السماء والأرض . إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك ، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يحبسها الله سبحانه إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، تحمل الأصوات إلى الآذان ، والرائحة إلى الأنف ، والسحاب إلى الأرض الجرز ، وهي من روح الله تأتي بالرحمة ، ومن عقوبته

تأتي بالعذاب وهي أقوى خلق الله كما رواه الترمذي في جامعه من حديث أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال ، فقال بها عليها ، فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا يارب . هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال : نعم . الحديد . قالوا : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار . قالوا : يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء . قالوا : يارب فهل من خلقك أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الريح . قالوا : يارب فهل من خلقك أشد من الريح ؟ قال : نعم ، ابن آدم ، تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله »[1] ورواه الإمام أحمد في مسنده .

وفي الترمذي[2] في حديث قصة عاد أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر حلقة الخاتم ، فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وقد وصفها الله بأنها عاتية . قال البخاري في صحيحه : عتت على الخزنة . فلم يستطيعوا أن يردوها[3] .

والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته .

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١٢٤/٣) .
والترمذي (٤٢٣/٥ - ٤٢٤) في التفسير ، باب : (٩٥) .
وقال : « حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه » .
وضعفه الألباني من أجل « سليمان بن أبي سليمان » المشكاة (٦٠٠/١) رقم (١٩٢٣) .
وسليمان هذا ذكره ابن حبان في الثقات (٣١٥/٤) .
وقال الحافظ : « مقبول » التقريب (٣٢٥/١) .

(٢) رواه الترمذي (٣٦٤/٥ - ٣٦٥) في التفسير ، باب : من سورة الذاريات .

(٣) ذكره البخاري (٤٣٣/٦) في كتاب الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ .
عن ابن عيينة قال : « عتت على الخزان » .
وانظر تفسير ابن عيينة ص (٣٣٨) سورة الحاقة .

فصـــل

ثم أقسم بالسحاب ، وهو من أعظم آيات الله في الجو . في غاية الخفة ، ثم يحمل الماء والبرد ، فيصير أثقل شيء ، فيأمر الرياح ، فتحمله على متونها ، وتسير به حيث أمرت ، فهو مسخر بين السماء والأرض ، حامل لأرزاق العباد والحيوان ، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله ، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان فأنشأه سبحانه في زمن يصلح إنشاؤه فيه ، وحمله من الماء ما يحمله ، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه .

فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه ؟ وحمله الماء والثلج والبرد ؟ ومن حمله على ظهور الرياح ؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد ؟ ومن أغاث بقطره العباد ، وأحيا به البلاد ، وصرفه بين خلقه كما أراد ، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم ، وأنزله منه ، وأفناه بعد الاستغناء عنه ، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا ، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولا ، فإن لم يجبك جواباً حباك اعتبار مرسل[1] الرياح ، من أنشأها بقدرته ؟ وصرفها بحكمته ، وسخرها بمشيئته ، وأرسلها بشراً بين يدي رحمته ، جعلها سبباً لتمام نعمته ، وسلطاناً على من شاء بعقوبته ؟ ومن جعلها رخاء وذارية ، ولاقحة ، ومثيرة ، ومؤلفة ، ومغذية لأبدان الحيوان ، والشجر ، والنبات ، وجعلها قاصفاً ، وعاصفاً ، ومهلكة وعاتية ؟ إلى غير ذلك من صفاتها . فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته ، وأقرت المصنوعات بوحدانيته ، بيده النفع والضر ، وله الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ؟

وسل الجاريات يسراً من السفن : من أمسكها على وجه الماء . وسخر لها البحر ؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح ؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح ؟ فمن

---

(١) قال مصحح التبيان (٢٨٢) : « هكذا في الأصل وهو خطأ شنيع ، وصوابه . « فإن لم يجبك حواراً أجابك اعتباراً ، وسل الرياح ... إلخ » .

الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها ؟ ومن الذي أجرى لها ريحاً واحدة تسير بها ، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها ، فتتموج في البحر يميناً وشمالا . تتلاعب بها الريح ؟ ومن الذي علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم ، الذي يمشي على الماء ، فيقطع المسافة البعيدة ، ويعود إلى بلده يشق الماء ويمخره ، مقبلا ومدبراً بريح واحدة ، تجرى في موج كالجبال (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير) [الشورى : ٣٢-٣٤] . ومن الذي حمل في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة ، وأغرق جميع أهل الأرض سواهم ؟ .

وسل الجاريات يسراً من الكواكب ، والشمس ، والقمر : من الذي خلقها وأحسن خلقها ، ورفع مكانها وزين بها قبة العالم ، وفاوت بين أشكالها ومقاديرها ، وألوانها ، وحركاتها ، وأماكنها من السماء ، فمنها الكبير ، ومنها الصغير ، والمتوسط ، والأبيض ، والأحمر ، والزجاجي اللون ، والدري اللون ، والمتوسط في قبة الفلك ، والمتطرف في جوانبها . وبين ذلك ؟ ومنها ما يقطع الفلك في شهر ومنها ما يقطعه في عام ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاماً ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك . ومنها ما لا يزال ظاهراً لا يغيب بحال فهو أبدي ، ومنها أبدي الخفاء ، ومنها ماله حالتان ظهور واختفاء ، ومنها ماله حركتان حركة عرضية من المشرق إلى المغرب ، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق فحالما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته ، وكوكب آخر قد طلع ، وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر في الربع الشرقي وكوكب آخر في وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب ، وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته .

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ ، وتدل على وجود الخالق ، وصفات كماله ، وربوبيته وحكمته ، ووحدانيته أعظم دلالة ، وكل ما دل على صفات جلاله

ونعوت كماله دل على صدق رسله ، فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر . فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه ، وقدرته وعلمه ، وحكمته ، والمبدأ والمعاد والنبوة . ودلالتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر ، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية فهي هداية في هذا وهذا .

فصـــل

وأما دلالة ﴿ **المقسمات أمرا** ﴾ وهم الملائكة ، فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة ، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم ، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم ، فوكل بالشمس والقمر والنجوم ، والأفلاك طائفة منهم ، ووكل بالقطر والسحاب طائفة ، ووكل بالنبات طائفة ، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة ، ووكل بالموت طائفة ، وبحفظ بني آدم طائفة ، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة ، وبالوحي طائفة ، وبالجبال طائفة ، وبكل شأن من شئون العالم طائفة ، هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن . وما فيهم من القوة والشدة ، ولطافة الجسم ، وحسن الخلقة ، وكمال الانقياد لأمره ، والقيام في خدمته ، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم .

ثم أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده ، ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال : ﴿ **إنما توعدون لصادق** ﴾ [الذاريات : ٥] . أي : ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن ، وهو وعد صدق لا كذب ﴿ **وإن الدين لواقع** ﴾ [الذاريات : ٦] . أي : إن الجزاء لكائن لا محالة ، ويجوز أن تكون (ما) موصولة ، والعائد محذوف ، والمعنى : إن الذي توعدونه لصادق ، أي : كائن وثابت . وأن تكون مصدرية ، أي إن وعدكم لحق وصدق .

ووصف الوعد بكونه صادقاً أبلغ من وصفه بكونه صدقاً ، ولا حاجة

إلى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه ، بل هو صادق نفسه ، كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه ، فوصف كلامه بأنه صادق ، وهذا مثل قولهم . سر كاتم ، وليل قائم ، ونهار صائم ، وماء دافق . ومنه (عيشة راضية) [الغاشية : ٢١] . وليس ذلك بمجاز ، ولا مخالف لمقتضى التركيب .

وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالا عليه ؛ مرشدا إليه .

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ [الذاريات : ٧] أصل الحبك في اللغة إجادة النسج يقال : حبك الثوب إذا أجاد نسجه ، وحبل محبوك إذا كان شديد الفتل ، وفرس محبوك الكفل ، أي : مدمجه ، وقال شمر : المحبوك في اللغة ما أجيد عمله ، ودابة محبوكة : إذا كانت مدمجة الخلق ، وقال أبو عبيدة ، والمبرد : الحبك : الطريق ، واحدها حباك ، وحباك الحمام : طرائق على جناحيه ، وحبك الماء طريقه ، وقال الفراء : الحبك تكسير كل شيء ، كالرمل إذا مرت به الريح والماء الدائم إذا مرت به الريح ، وتجعد الشعر حبك أيضاً ، واحدها حبيكة ، مثل طرق وطريقة ، وحباك مثل مثال ومثل ، والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يريد الخلق الحسن .

وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك حسنها واستواؤها ، وقال قتادة : ذات الخلق الشديد . وقال مجاهد : متقنة البنيان . وقال أيضاً : ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها ، كحبك الماء إذا ضربته الريح ، وكحبك الرمل ، وكحبك الشعر ، وقال عكرمة : بنيانها كالبرد المسلسل .

قلت : وفي الحديث في صفة الدجال « ورأسه حبك »[1] . أي جعد الشعر ، ومن أحسن ما قيل في تفسير الحبك ما ذكره الترمذي في تفسير الجامع من حديث الحسن ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/٢٠) .
والطبراني في الكبير (٢٢/١٧٥) برقم (٤٥٦) .
قال الهيثمي : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » مجمع الزوائد (٧/٣٤٢ - ٣٤٣) .

« هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال: « فإنها الرقيع سقف محفوظ ، وموج مكفوف » وذكر الحديث[١] .

فصــل

ثم ذكر المقسم عليه فقال : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات : ٨،٩] . فالقول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خرص كله ، فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم ، وطرائقهم ، وأقوالهم . فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم . فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب ، كما قال تعالى : (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج) [ق : ٥] . أي : مختلط ملتبس . وفي ضمن هذا الجواب : أنكم في أقوال باطلة متناقضة ، يكذب بعضها بعضاً ، بسبب تكذيبهم بالحق .

ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف فـ «عن» ها هنا فيها طرف من معنى التسبيب، كقوله: (وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) [هود : ٥٣] .

وقوله : ﴿ **من أفك** ﴾ أي : من سبق في علم الله أنه يضل ، ويؤفك ، كقوله (فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم) [الصافات : ١٦١ - ١٦٣] .

وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى القرآن ، وقيل إلى الإيمان ، وقيل إلى الرسول ، والمعنى يصرف عنه من صرف حتى يكذب به .

ولما كان هذا القول المختلف خرصاً وباطلا قال ﴿ **قتل الخراصون** ﴾ [الذاريات : ١٠] . أي : المكذبون ﴿ **الذين هم في غمرة ساهون** ﴾[الذاريات : ١١] وجهالة قد غمرت قلوبهم أي : غطتها وغشتها ، كغمرة الماء وغمرة الموت ،

---

(١) مر برقم (١) ص (٢١٣) . أول السورة .

فالغمرات ما غطاها من جهل ، أو هوى ، أو سكر ، أو غفلة ، أو حب ، أو بغض ، أو خوف ، أو غم ، ونحو ذلك ، قال تعالى : (بل قلوبهم في غمرة من هذا) [المؤمنون : ٦٣] . أي : غفلة ، وقيل : جهالة .

ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم ، والسهو : الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه ، والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة والسهو لا يستلزم ذلك .

ثم قال : ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الذاريات : ١٢] . استبعاداً للوقوع وجحداً . فأخبر تعالى أن ذلك : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : ١٣] . والمشهور في تفسير هذا الحرف : أنه بمعنى يحرقون ، ولكن لفظة « على » تعطي معنى زائداً على ما ذكروه ، ولو كان المراد نفس الحرق لقيل يوم هم في النار يفتنون . ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم : « على » بمعنى « في » ، كما تكون « في » بمعنى « على » . والظاهر أن فتنتهم على النار ، قيل : فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها ، ووقوفهم عليها فتنة ، وعند دخولهم ، والتعذيب بها فتنة أشد منها ، ومن جعل الفتنة ها هنا من الحريق ؛ أخذه من قوله تعالى : (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا) [البروج : ١٠] . واستشهد على ذلك أيضاً بهذه اللفظة التي في الذاريات . وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه ، ولهذا سمى الله الكفر فتنة فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة ، ولهذا قال ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ [الذاريات: ١٤] وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم ، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها ، ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم ، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بعذاب الدنيا ، ثم فتنوا بعذاب الموت ، ثم يفتنون في موقف القيامة ، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها ، وذلك من أعظم فتنتهم ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها .

فصل

ثم ذكر سبحانه جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى ، وهو الجنات والعيون ، وأنهم ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ [الذاريات : ١٦] . من الخير والكرامة .

وفي ذلك دليل على أمور :

منها : قبولهم له .

ومنها : رضاهم به .

ومنها : وصولهم إليه بلا مانع ولا عائق .

ومنها : أن جزاءهم من جنس أعمالهم . فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر ، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك . ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك ، وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له ، والقيام بحقوقه ، وحقوق عباده . ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه .

قوله تعالى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

وقد قيل : إن (ما) نافية ، والمعنى ما يهجعون قليلا من الليل ، فكيف بالكثير ؟ وهذا ضعيف لوجوه :

أحدها : أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء .

الثاني : أن قيام من نام من الليل نصفه أحب إلى الله من قيام من قامه كله .

الثالث : أنه لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قام ليلة حتى الصباح .

الرابع : أن الله سبحانه إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل لا في الليل كله . فقال : (ومن الليل فتهجد به) [الإسراء : ٧٩] .

الخامس : أنه سبحانه لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف ، أو النقصان منه ، أو الزيادة عليه ، فذكر له هذه المراتب الثلاثة ، و لم يذكر قيامه كله[(١)] .

السادس : أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء فقال « يا عثمان أرغبت عن سنتي ؟ » قال : لا والله يارسول الله ، ولكن سنتك أطلب ، قال « فإني أنام وأصلي ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله ياعثمان ، فإن لأهلك عليك حقا ، وإن لضيفك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ، فصم وأفطر ، وصل ونم »[(٢)] ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي الليل كله حتى جعلت حبلا بين ساريتين إذا فترت تعلقت به أنكر ذلك وأمر بحله[(٣)] .

السابع : أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) [السجدة : ١٦] . وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة ، ولهذا جازاهم عن هذا التجافي – الذي سببه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم إلى الصلاة – بقرة الأعين .

الثامن : أن الصحابة – الذين هم أول وأولى من دخل في هذه الآية – لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلا . فروى بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون) قال : كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء .

---

(١) سورة المزمل الآية (٢٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢٦٨/٦) .
وقال الألباني : « إسناده جيد » إرواء الغليل (٧٩/٧) .
ورواه أبو داود (٢٤٣/٤) في قيام الليل . باب : ما يؤمر به من القصد في الصلاة .

(٣) رواه البخاري (٤٣/٣) في التهجد ، باب : ما يكره من التشديد في العبادة .
ومسلم (٤٤٠/٢ – ٤٤١) في المساجد ، باب : فضيلة العمل الدائم ...
وأبو داود (١٩٦/٤ – ١٩٧) في الصلاة ، باب : النعاس في الصلاة .
والنسائي (٢١٨/٣ – ٢١٩) في قيام الليل ، الاختلاف على عائشة في قيام الليل .
وقد فات ابن الأثير في « جامع الأصول » (٣١١/١ – ٣١٢) عزوه إلى مسلم .

التاسع : أن في هذا التقرير تفكيكا للكلام وتقديما لمعمول العامل المنفي عليه ؛ لأنك تجعل قليلا مفعول يهجعون ، وهو منفي ، والبصريون لا يجيزون ذلك وإن أجازه الكوفيون . وفصل بعضهم ، فأجازه في الظرف ، ولم يجزه في غيره .

فصـــل

وقيل : « ما » زائدة ، وخبر كان ﴿ **يهجعون** ﴾ و ﴿ **قليلا** ﴾ منصوب إما على المصدرية أي : هجوعا قليلا . وإما على الظرف ، أي : زمناً قليلاً .

واستشكل هذا بأن نوم نصف الليل وقيام ثلثه ، ثم نوم سدسه أحب القيام إلى الله . فيكون وقت الهجوع أكثر من وقت القيام ، فكيف يثني عليهم بما الأفضل خلافه ؟

وأجيب عن ذلك بأن من قام هذا القيام فزمن هجوعه أقل من زمن يقظته قطعا . فإنه مستيقظ من المغرب إلى العشاء ، ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فيبقى ما بين العشاء إلى طلوع الفجر ، فيقومون نصف ذلك الوقت فيكون زمن الهجوع أقل من زمن الاستيقاظ .

وقيل : (ما) مصدرية ، وهي في موضع رفع بقليل أي : كانوا قليلا هجوعهم وهو قول الحسن ، وقيل : إنها موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي : قليلا من الليل الوقت الذي يهجعون ، وفيه تكلف . وقيل : ما يهجعون بدل اشتمال من اسم كان ، والتقدير كان هجوعهم من الليل قليلا . ويرد عليه أن من الليل متعلق بيهجعون ، ومعمول المصدر لا يتقدم عليه ، وأجيب عنه أنه منصوب على التفسير . ومعناه : أن يقدر له فعل محذوف ينصبه مفسره هذا المذكور ، وقليلا خبر كان ، وتم الكلام بذلك ، والمعنى : كانوا صنفاً أو جنساً قليلاً ، ثم قال : ﴿ **من الليل ما يهجعون** ﴾ وأصحاب هذا القول يجعلون « ما » نافية ، فيعود الكلام إلى نفي هجوعهم شيئاً من الليل . وقد تقدم ما فيه .

ثم أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر ، فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة . فباتوا لربهم سجداً وقياماً ، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك ، « وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا » وأمره الله سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار[(١)] ، وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار[(٢)] . وشرع صلى الله عليه وسلم للمتوضيء أن يختم وضوءه بالتوبة[(٣)] فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار .

ثم أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم . فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ، ضد (الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) [الماعون : ٥،٦] . وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم ، الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور ، والمحروم المتعفف الذي لا يسأل .

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه ، وشرع لأصحاب الجدة إعطاءه ، وهو أغنى الأغنياء ، وأجود الأجودين ، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر ، وبالشرع ، شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره ، فلم يجمع عليه حرمانين .

فصل

ثم ذكرهم سبحانه بآياته الأفقية والنفسية ، فقال : ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠،٢١] .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة النصر ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ (النصر:٣) .

(٢) في قوله تعالى : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ... ﴾ (البقرة : ١٩٩) .

(٣) حديث صحيح .
أخرجه الترمذي (١/٧٧ – ٧٨) وصححه أحمد شاكر .
والألباني كما في الإرواء (١/١٣٥) .

فآيات الأرض أنواع كثيرة :

منها : خلقها وحدوثها بعد عدمها ، وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد ، فإنها شواهد قائمة بها .

ومنها : بروز هذا الجانب فيها عن الماء ، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به .

ومنها : سعتها وكبر خلقها .

ومنها : تسطيحها ، كما قال تعالى : ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ [الغاشية : ٢٠] . ولا ينافي ذلك كونها كرية ، فهي كرة في الحقيقة ، لها سطح يستقر عليه الحيوان .

ومنها : أنه جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومساكنه ، وجعلها قراراً ، وجعلها مهاداً . وجعلها ذلولا توطأ بالأقدام ، وتضرب بالمعاول ، والفئوس ، وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها ، وجعلها بساطاً وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم في بطنها وطحاها فمدها وبسطها ووسعها ودحاها ، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل والفجاج ، ونبه بجعلها مهاداً وفراشاً على حكمته في جعلها ساكنة . وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها ، ولا علاقة فوقها ، ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيها تكفأ السفينة ، فاقتضت العناية الأزلية ، والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي يثبتها بها ، لئلا تميد ، وليستقر عليها الأنام ، وجعلها ذلولا على الحكمة في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدة كالحديد ، فيمتنع حفرها وشقها ، والبناء فيها ، والغرس ، والزرع ، وبعث النوم عليها ، والمشي فيها . ونبه بكونها قراراً على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدماثة ، فلا تمسك بناء ، ولا يستقر عليها الحيوان ولا الأجسام الثقيلة ، بل جعلها بين الصلابة والدماثة ،

وأشرف الجواهر عند الإنسان الذهب ، والفضة ، والياقوت ، والزمرد . فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها ، وتعطلت المنافع المقصودة منها ، وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر وأنفع وأبرك ، وإن كانت تلك أغلى وأعز ، فغلاؤها وعزتها لقلتها وإلا فالتراب أنفع منها ، وأبرك وأنفس ؛ وكذلك لم يجعلها شفافة ، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور وما كان كذلك لم يقبل السخونة ، فيبقى في غاية البرد ، فلا يستقر عليه الحيوان ولا يتأتى فيه النبات ، وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة ، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس ، كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف ، فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء . فصلحت أن تكون مستقراً للحيوان ، والأنام ، والنبات .

ولما كان الحيوان الهوائيّ لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائيّ أبرز له جانبها كما تقدم ، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه ، وأنشأ منها طعامه وقوته ، وكذلك خلق منها النوع الإنساني ، وأعاده إليها ويخرجه منها .

فصــل

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس ، والصفات ، والمنافع ، مع أنها قطع متجاورات ، متلاصقة ، فهذه سهلة ، وهذه حزنة ، تجاورها وتلاصقها ، وهذه طيبة تنبت ، وتلاصقها أرض لا تنبت ، وهذه تربة ، وتلاصقها رمال ، وهذه صلبة ، ويلاصقها ويليها رخوة ، وهذه سوداء ، ويليها أرض بيضاء ، وهذه حصى كلها ، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر ، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا ، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره ، وهذه سبخة مالحة ، وهذه بضدها ، وهذه ليس فيها جبل ، ولامعلم ، وهذه مسجرة بالجبال ، وهذه لا تصلح إلا على المطر ، وهذه لا ينفعها المطر ، بل لا تصلح إلا على سقي الأنهار ، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة ، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض .

فلو سألتها من نوعها هذا التنوع ؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق ؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ؟ ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل . وأخرج منها الماء والمرعى ؟ ومن أمسكها عن الزوال ؟ ومن بارك فيها . وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها ؟ ومن هيأها مسكناً ومستقرا للأنام ؟ ومن يبدأ الخلق منها ، ثم يعيده إليها ، ثم يخرجه منها ؟ ومن جعلها ذلولا غير مستعصبة ولا ممتنعة ؟ ومن وطأ مناكبها ، وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها وأنبت أشجارها ، وأخرج ثمارها ؟ ومن صدعها عن النبات ، وأودع فيها جميع الأقوات ؟ ومن بسطها ، وفرشها ومهدها وذللها ، وطحاها ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ؟ ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم ، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور ؟ ومن الذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبدع المخلوقات ، وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ، ونوحا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمداً صلى الله وسلم عليهم أجمعين ، وأنشأ منها أولياءه ، وأحباءه وعباده الصالحين ؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق ، والمعادن ، والحيوان ؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر ؛ فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة – كما نشاهده في الصيف – فاحترقت أبدان الحيوان والنبات ، وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم ؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق ، والعيون ؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتاً للأموات ، وظاهرها بيوتاً للأحياء ؟ ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس ؛ فتأخذ في الحبل ، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع ، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج .

فسبحان من جعل السماء كالأب ، والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد ، فإذا حصل الحب في الأرض ، ووقع عليه الماء ، أثرت نداوة الطين فيه ، وأعانها السخونة المختفية في باطن الأرض ، فوصلت النداوة والحرارة

إلى باطن الحبة ، فاتسعت الحبة وربت ، وانتفخت ، وانفلقت عن ساقين : ساق من فوقها وهو الشجرة ، وساق من تحتها وهو العرق . ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه ، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلفة ، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية ، وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم .

فيالها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق ، وصفات كماله وأفعاله ، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه ، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور .

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها وامتزاجها ، وحاجة بعضها إلى بعض ، وانفعال بعضها عن بعض ، وتأثيره فيه وتأثره به ، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع ، من التأثر والانفعال . ولا يستقل الآخر بالتأثير ، ولا يستغني عن صاحبه ، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة ، مصنوعة ، مربوبة مدبرة ، حادثة بعد عدمها ، فقيرة إلى موجد غني عنها مؤثر غير متأثر قديم غير حادث ، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته ، وتجيب داعي مشيئته ، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته ، وتشهد بعلمه وحكمته ، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته ، وتحذرهم من بأسه ونقمته ، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته .

فانظر إلى الماء والأرض ، كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح ، فحركت الماء ، وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض ، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية ، وحصل بها الإنبات ، ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح ، وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية ، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته . فحرارة الربيع للإخراج . وحرارة الصيف للإنضاج . هذا وإن الأم واحدة ، والأب واحد ، واللقاح واحد والأولاد في غاية التباين والتنوع . كما قال تعالى : (**وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**) [الرعد : ٤] .

فهذه بعض آيات الأرض ، ومن الآيات التي فيها وقائعه سبحانه التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم ، المخالفين لأمره ، وأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال تعالى : (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم) [العنكبوت : ٣٨] . وقال فى قوم لوط : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) [الصافات : ١٣٧، ١٣٨] . وقال : (فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم) [الحجر : ٧٣ - ٧٦] . أي بطريق ثابت لا يزول عن حاله ، وقال : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) [الحجر : ٧٨، ٧٩] أي : ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون . وقال تعالى : (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم) [إبراهيم : ٤٥] . وقال عن قوم عاد (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) [الأحقاف : ٢٥] . وقال : (ألم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم) [السجدة : ٢٦] . فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده ، لا عدة له ولا عدد ، ولا مال . فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته ، ويحذرهم من بأسه ونقمته ، فتتفق كلمتهم ، أو أكثرهم على تكذيبه ، ومعاداته فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر . فيغرق المكذبين كلهم تارة ، ويخسف بغيرهم الأرض تارة ، ويهلك آخرين بالريح وآخرين بالصيحة وآخرين بالمسخ ،وآخرين بالحجارة، وآخرين بظلمة من النار من فوقهم، وآخرين بالصواعق، وآخرين بأنواع العقوبات ، وينجو داعيهم ومن معه . والهالكون أضعاف أضعاف أضعافهم عدداً وقوة ، ومنعة وأموالا :

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق ، كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا – إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عدداً ، وأقوى شوكة – بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه ، وهلا اعتصموا من عقوبته ، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل ؟ .

ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى في الأرض ، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل ، حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره ، كما قال : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [فصلت : ٥٣] . وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن ، بل لابد أن يري الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون وآيات الأرض أعظم مما ذكر ، وأكثر فنبه باليسير منها على الكثير .

فصــل

ثم قال : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] .

لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره ، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر ، والتفكر في نفسه فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل . فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة لمدبره ، دالة عليه ، مرشدة إليه ؛ إذ يجده مكوناً من قطرة ماء : لحوماً منضدة ، وعظاماً مركبة ، وأوصالا متعددة ، مأسورة مشددة بحبال العروق والأعصاب قد قمطت وشددت ، وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا ما بين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومنحن ، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً ، للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، والصنائع والكتابة .

وجعل فيه تسعة أبواب : فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ،

وباب للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسها .

وجعل داخل بابي السمع مراً قاتلا ، لئلا تلج فيها دابة تخلص إلى الدماغ فتؤذيه . وجعل داخل بابي البصر مالحاً ، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم . وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً ، ليسيغ به ما يأكله ويشربه . فلا يتنغص به لو كان مراً أو مالحاً .

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء ، مركبين في أعلى مكان منه ، وفي أشرف عضو من أعضائه ، طليعة له . وركب هذا النور في جزء صغير جداً يبصر به السماء والأرض وما بينهما ، وغشاه بسبع طبقات وثلاث رطوبات ، بعضها فوق بعض ، حماية له وصيانة وحراسة . وجعل على محله غلقاً بمصراعين أعلى وأسفل ، وركب في ذيل المصراعين أهداباً من الشعر وقاية للعين ، وزينة وجمالا . وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر ، يحجبان العين من العرق النازل . ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك . وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شغلا مخصوصاً ، ولكل واحد من الرطوبات مقداراً مخصوصاً ، لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة .

وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة . ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض ، والشمس والقمر والنجوم ، والجبال ، والعالم العلوى والسفلى ، مع اتساع أطرافه ، وتباعد أقطاره ، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضاً وسواداً ، وجعل القوة الباصرة في السواد ، وجعل البياض مستقراً لها ومسكناً وزين كلا منهما بالآخر وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم ، والحواجب بالأهداب ، وجعلها سوداء ، إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر ، فضعف الإدراك . فإن السواد يجمع البصر ، ويمنع من تفرق النور الباصر . وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعا وعشرين عضلة ، لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين .

ولما كانت العين كالمرآة ، التي إنما تنطبع فيها الصور إذ كانت في غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جداً بالطبع إلى الانطباق ، من غير تكلف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات ، ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً فإنها لا تزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات[(١)] .

قول الله تعالى : ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ * وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات : ١ - ١١] .

فأقسم سبحانه بمخلوقاته طبقاً بعد طبق ، فأقسم أولاً بالرياح الذاريات ، ثم بما فوقها، وهي السحاب الحاملات وقرا، ثم بما فوقها وهي النجوم الجاريات يسراً، ثم بما فوقها: وهي الملائكة المقسمات أمراً ثم أقسم بالسماء ذات الحبك، وهي الطرائق التي هي كطرائق الماء حين تحركه الرياح ومنه في وصف الدجال «شعره حبك»[(٢)] أي فيه تجعد وتثن ومنه قوله: «في السماء موج مكفوف» وهذا يتضمن حسنها وبهجتها وكمال خلقها .

فأقسم بذلك على أن الرَّادين لما بعث به رسوله المعارضين له بعقولهم في قول مختلف ولهذا تجدهم دائماً في قول مختلف ، لا يثبت لهم قدم على شيء يعولون عليه فتأمل أي مسألة أردت من مسائلهم ودلائلهم ، تجدهم مختلفين فيها غاية الاختلاف يقول هذا قولاً وينقضه الآخر فيجيء الثالث فيقول قولاً غير ذينك القولين ، وينقضهما ويبطل أدلتهما ولا تجد لهم مسألة واحدة إلا وقد اضطربوا فيها حكماً ودليلاً ، فهم أعظم الناس اختلافاً حتى تجد الواحد منهم يقول القول ويدعي أنه قطعي ثم يقول خلافه ويبطله ويدعي أنه قطعي ، ثم أخبر سبحانه أن ذلك القول المختلف يؤفك عنه من أفك أي يصرف بشبه عن الحق من صرف فلما كان انصرافه عن الحق بشبه ، صار كأنه منفصل عنه وإفكه صادر عنه .

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٧٨ - ٣٠٥) .

(٢) مر قريباً برقم (١) ص (٢١٩) .

ثم قال تعالى : ﴿ قتل الخراصون ﴾ [الذاريات : ١٠] .

وأصل الخرص القول بلا علم بل بالظن والتخمين والقذف بالكلام من غير برهان على صحته ومنه سمي الكاذب خارصاً وصاحب الظن والتخمين خارصاً وهذا الوصف منطبق على هؤلاء أتم انطباق فليس معهم إلا الخرص واتباع الظن ، كما قال تعالى في وصف سلفهم المعارضين لشرعه بالقدر : (إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) [الأنعام : ١١٦] . وهذا بخلاف متبع الوحي فإنه يتبع قولاً يصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، متصلا برب العالمين قوله ووحيه الذي نزله على رسوله ، فمصدره منه سبحانه ، ومظهره على لسان رسوله، فعليه سبحانه البيان وعلى رسوله البلاغ وعلينا التسليم ، وقد فعل سبحانه ما عليه ، وفعل رسوله ما عليه ،فماذا نشأ بعد ذلك إلا أن نأتي بما علينا . وبالله التوفيق[١] .

قول الله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢] .

أما الرزق ففسر بالمطر ، وفسر بالجنة ، وفسر برزق الدنيا والآخرة ، ولا ريب أن المطر من الرحمة ، وأن الجنة مستقر الرحمة . فرزق الدارين في السماء التي هي في العلو ، وقوله تعالى : ﴿ وما توعدون ﴾ قال عطاء رضي الله عنه : من الثواب والعقاب . وقال الكلبي : من الخير والشر . وقال مجاهد : من الجنة والنار . وقال ابن سيرين : من أمر الساعة .

قلت : كون الجنة والخير في السماء فلا إشكال فيه ، وكون النار في السماء وما يوعد به أهلها يحتاج إلى تبيين ، فإذا نظرت إلى أسباب الخير والشر ، وأسباب دخول الجنة والنار ، وافتراق الناس ، وانقسامهم إلى شقي وسعيد ، وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره ، النازل من السماء . وذلك كله مثبت في السماء في صحف الملائكة ، وفي اللوح المحفوظ قبل العمل وبعده . فالأمر كله من السماء . وقول من قال : من أمر الساعة : يكشف عن هذا المعنى ، فإن أمر الساعة يأتي من السماء ، وهو الموعود بها . فالجنة والنار الغاية التي لأجلها قامت الساعة . فصح كل ما قال السلف في ذلك . والله أعلم .

(١) الصواعق المرسلة (١٤٣٠/٤ - ١٤٣٢) .

ثم أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به ، على أجل مقسم عليه وأكد الإخبار بهذا القسم ، ثم أكد بتشبيهه بالأمر المحقق الذي لا يشك فيه ذو حاسة سليمة . فقال ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٣] . قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد أنه لحق واقع ، كما أنكم تنطقون وقال الفراء : إنه لحق كما أن الآدمي ناطق ، وقال الزجاج : هذا كما تقول في الكلام إن هذا لحق كما أنك ها هنا .

قلت : وفي الحديث « إنه لحق كما أنك ها هنا »[1] فشبه سبحانه تحقيق ما أخبر به بتحقيق نطق الآدمي ووجوده . والواحد منا يعرف أنه ناطق ضرورة ، ولا يحتاج نطقه إلى استدلال على وجوده ، ولا يخالجه شك في أنه ناطق . فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأسمائه ، وصفاته حق ثابت في نفس الأمر ، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده . وهذا باب يعرفه الناس في كلامهم . يقول أحدهم : هذا حق مثل الشمس . وأفصح الشاعر عن هذا بقوله :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وها هنا أمر ينبغي التفطن له ، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به ، وهو أصدق الصادقين . وأقسم عليه ، وهو أبر المقسمين ، وأكده بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه . وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معايناً مشاهداً بالبصائر ، وإن لم يعاين بالإبصار . ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعد له ، ولا تأخذ له أهبة ، والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد ، فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار ، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في دار الغرور ، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها ، ولا إلى أين يرحلون ؟ وأين يستقرون ؟ قد ملكهم الحس ، وقل نصيبهم من العقل ، وشملتهم الغفلة ، وغرتهم الأماني التي هي

(١) ذكره ابن كثير عن معاذ موقوفاً عليه : « كان إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه : إن هذا لحق ، كما أنك ههنا » (٢٥١/٤) تفسير ابن كثير .

كالسراب ، وخدعهم طول الأمل ، وكأن المقيم لا يرحل وكأن أحدهم لا يبعث ولا يسأل ، وكأن مع كل مقيم توقيع من الله : لفلان ابن فلان بالأمان من عذابه . والفوز بجزيل ثوابه . فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت فإنهم حصلوها ، ومن أي وجه لاحت أخذوها ، غافلين عن المطالبة . آمنين من العاقبة . يسعون لما يدركون . ويتركون ما هم به مطالبون . ويعمرون ما هم عنه منتقلون . ويخربون ما هم إليه صائرون . وهم عن الآخرة هم غافلون . ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون في مصالحها . ولا يأخذون في جمع زادها في سفرها : (نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) [الحشر : ١٩] . والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته ، وتحصى عليه أنفاسه ، ومطايا الليل والنهار تسرع به ، ولا يتفكر إلى أين يحمل ، ولا إلى أي منزل ينقل ؟

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلين تنزل؟

وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته ، وذهاب لذاته ، لا لما سبق من جناياته ، ولا لسوء منقلبه بعد مماته ، فإن خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة ، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولابد . فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله ، وسار بفكره ، وأمعن النظر ، وتأمل الآيات ، لفهم المراد من إيجاده ، ولنظرت عين الراحل إلى الطريق ، ولأخذ المسافر في التزود ، والمريض في التداوي ، والحازم ما يجوز أن يأتي . فما الظن بأمر متيقن ، كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم وكأنهم يعاينون الأمر فأضحت ربوع الإيمان من أهلها خالية ، ومعالمه على عروشها خاوية . قال ابن وهب : أخبرني مسلم ابن علي عن الأوزاعي ، قال : كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤسهم الطير مقبلين على أنفسهم ، حتى لو أن حبيباً لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم لما التفت إليه ؛ فلا يزالون كذلك إلى طلوع الشمس ، ثم يقوم بعضهم إلى بعض فيتخلفون بأول ما يقتضون فيه أمر معادهم ، وما هم صائرون إليه ، ثم يأخذون في الفقه[1] .

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢١ – ٤٢٥) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢] .

قال ابن أبي نجيح عن مجاهد : هو الجنة وكذلك تلقاه الناس عنه : وقد ذكر ابن المنذر في تفسيره وغيره أيضاً عن مجاهد قال : هو الجنة والنار وهذا يحتاج إلى تفسير فإن النار في أسفل السافلين ليست في السماء ، ومعنى هذا ما قاله في رواية ابن أبي نجيح عنه ، وقاله أبو صالح عن ابن عباس ، الخير والشر كلاهما يأتي من السماء .

وعلى هذا ، فالمعنى أسباب الجنة والنار بقدر ثابت في السماء من عند الله[1] .

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٤ - ٢٧] .

ففي هذا ثناء على إبراهيم في وجوه متعددة :

أحدها : أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون وهذا على أحد القولين أنه إكرام إبراهيم .

والثاني : أنهم المكرمون عند الله . ولا تنافي بين القولين فالآية تدل على المعنيين .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ **إذ دخلوا عليه** ﴾ فلم يذكر استئذانهم . ففي هذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم ، فبقي منزله مضيفة مطروقاً لمن ورده ، لا يحتاج إلى الاستئذان بل استئذان الداخل دخوله . وهذا غاية ما يكون من الكرم .

الثالث : قوله ﴿ **سلام** ﴾ بالرفع وهم سلموا عليه بالنصب والسلام بالرفع أكمل فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد ، والمنصوب

(١) حادي الأرواح (٦١ - ٦٢) .

يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد ، فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم فإن قولهم ﴿ **سلاما** ﴾ يدل على سلمنا سلاماً . وقوله ﴿ **سلام** ﴾ أي سلام عليكم .

الرابع : أنه حذف المبتدأ من قوله ﴿ **قوم منكرون** ﴾ فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال : أنتم قوم منكرون . فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام .

الخامس : أنه بنى الفعل للمفعول وحذف فاعله فقال : ﴿ **منكرون** ﴾ ولم يقل إني أنكركم ، وهو أحسن في هذا المقام وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة .

السادس : أنه راغ إلى أهله ليجيهم بنزلهم والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به ، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر : مكانكم حتى آتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه .

السابع : أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيَّأً للضيفان ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه .

الثامن : قوله ﴿ **فجاء بعجل سمين** ﴾ دل على خدمته للضيف بنفسه ولم يقل فأمر لهم بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا أبلغ في إكرام الضيف .

التاسع : أنه جاء بعجل كامل ولم يأت ببضعة منه وهذا من تمام كرمه صلى الله عليه وسلم .

العاشر : أنه سمين لا هزيل ، ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم ومثله يتخذ للاقتناء والتربية فآثر به ضيفانه .

الحادي عشر : أنه قربه إليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك .

الثاني عشر : أنه قربه إليهم ولم يقربهم إليه وهذا أبلغ في الكرامة أن تجلس الضيف ثم يقرب الطعام إليه ويحمله إلى حضرته ولا تضع الطعام في ناحية ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه .

الثالث عشر : أنه قال ﴿ **ألا تأكلون** ﴾ وهذا عرض وتلطف في القول وهو أحسن من قوله : كلوا أو مدوا أيديكم ونحوها وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه ؛ ولهذا يقولون : بسم الله ، أو ألا تتصدق ، أو ألا تجبر ونحو ذلك .

الرابع عشر : أنه إنما عرض عليهم لأنه رآهم لا يأكلون ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا ، وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل قال لهم : ألا تأكلون ، ولهذا أوجس منهم خيفة أي : أحسها وأضمرها في نفسه ولم يبدها لهم وهو الوجه .

الخامس عشر : فإنهم لما امتنعوا من الأكل لطعامه خاف منهم ولم يظهر لهم فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا : لا تخف وبشروه بالغلام .

فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ إلى قوله ﴿ **الحكيم العليم** ﴾ [الذاريات : ٢٤و٣٠] .

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها . فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه

(١) جلاء الأفهام (١٥٦ - ١٥٩) .

بغلام عليم ، وإنما امرأته عجبت من ذلك ، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك– و لم يتجاوز تدبرك غير ذلك .

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار .

وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم ؟

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها ؟

وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة ؟

وكيف تضمنت علماً عظيماً من أعلام النبوة ؟

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال ، التي ردها إلى العلم والحكمة ؟

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ، ثم أفصحت وقوعه ؟

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة ؟

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما .

وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله ، وعلى اليوم الآخر .

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة ، وهم المؤمنون بها .

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها ، فلا ينتفع بتلك الآيات .

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة :

قال الله تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ [الذاريات : ٢٤] .

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام ، وليس المراد بها حقيقة

الاستفهام ، ولهذا قال بعض الناس : إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التي تقتضي التحقيق . ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ، ومعنى بديع ، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به ، وإحضار الذهن له ، صدر له الكلام بأداة الاستفهام ، لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به ، فتارة يصدره بألا ، وتارة يصدره بهل ، فقول : هل علمت ما كان من كيت وكيت ؟ إمامذكراً به ، وإما واعظاً له مخوفاً ، وإما منبهاً على عظمة ما يخبر به ، وإما مقرراً له .

فقوله تعالى (هل أتاك حديث موسى) [طه : ٩] و (هل أتاك نبأ الخصم) [ص : ٢١] و (هل أتاك حديث الغاشية) [الغاشية : ١] و ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ [الذاريات : ٢٤] متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفة ما تضمنته .

ففيه أمر آخر :

وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة ، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك . فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا ؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا ؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام ، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا .

وقوله ﴿ **ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ [الذاريات : ٢٤] متضمن لثنائه على خليله إبراهيم .

فإن في ﴿ **المكرمين** ﴾ قولين :

أحدهما : إكرام إبراهيم لهم ، ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف .

والثاني: أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى: (بل عباد مكرمون) [الأنبياء : ٢٦] وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه ؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له ،

فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم .

وقوله ﴿ **فقالوا سلاماً قال سلام** ﴾ [الذاريات : ٢٥] متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به ، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية ، تقديره : سلمنا عليك سلاماً . وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية ، تقديره : سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم ، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم ، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث ، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن .

ثم قال ﴿ **قوم منكرون** ﴾ [الذاريات : ٢٥] وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح :

أحدهما : أنه حذف المبتدأ . والتقدير : أنتم قوم منكرون ، فتذمم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بما يكرهه بل يقول : « ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا » .

والثاني : قوله ﴿ **قوم منكرون** ﴾ فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم ، كما قال في موضع آخر (نكرهم) [هود : ٧٠] ولا ريب أن قوله ﴿ **منكرون** ﴾ ألطف من أن يقول:أنكرتم .

آداب الضيافة وإكرام الضيف :

قوله : ﴿ **فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون** ﴾ [الذاريات : ٢٦و٢٧] متضمن وجوهاً من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف .

منها قوله ﴿ **فراغ إلى أهله** ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء ، وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف ، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء ، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة

النفقة ويزن ما يأخذ ؛ ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك ، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه ، فلفظة ﴿ **راغ** ﴾ تنفي هذين الأمرين . وفي قوله تعالى ﴿ **إلى أهله** ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله ، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ، ولا يذهب إلى غير أهله ، إذ قرى الضيف حاصل عندهم .

وقوله ﴿ **فجاء بعجل سمين** ﴾ [الذاريات : ٢٦] يتضمن ثلاثة أنواع من المدح :

أحدها : خدمة ضيفه بنفسه ، فإنه لم يرسل به ، وإنما جاء به بنفسه .

الثاني : أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه ، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا .

الثالث : أنه سمين ليس بمهزول ، وهذا من نفائس الأموال ، ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به ، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره .

وقوله ﴿ **إليهم** ﴾ متضمن المدح وآداباً أخرى وهو إحضار الطعام إلى بين يدي الضيف ، بخلاف من يهيء الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه .

وقوله ﴿ **ألا تأكلون** ﴾ فيه مدح وآداب أخر ؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله:﴿ **ألا تاكلون** ﴾ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف ، بخلاف من يقول : ضعوا أيديكم في الطعام ، كلوا تقدموا ، ونحو هذا .

وقوله ﴿ **فاوجس منهم خيفة** ﴾ لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر ، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به ، فلما علموا منه ذلك ﴿ **قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم** ﴾ [الذاريات : ٢٨] وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل ، لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت : عجوز عقيم لا يولد لمثلي ، فأنّى لي بالولد ؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده . وقد بيَّن سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى (فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب) [هود:٧١] وهذه

هي القصة نفسها .

وقوله تعالى ﴿ **فاقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها** ﴾ [الذاريات :٢٩] فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها ، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار .

وقوله ﴿ **عجوز عقيم** ﴾ [الذاريات : ٢٩] فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة ، فإنها حذفت المبتدأ و لم تقل:أنا عجوز عقيم ، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره ، وأما في سورة هود ، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب .

وقوله تعالى ﴿ **قالوا كذلك قال ربك** ﴾ متضمن لإثبات صفة القول له .

وقوله ﴿ **إنه هو الحكيم العليم** ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر ، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته ، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته .

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال ، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر ، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام .

والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر ، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها ، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب .

كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة : والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثاً وسدى وباطلا ، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب ، ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل ، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته .

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك ، وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى ، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه .

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها ، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة ، متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس .

وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفراً كبيراً ، لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف ، وحسن البيان ، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما يثلج له الصدر ؛ ويكثر معه اليقين ، بخلاف غيره من الأدلة ، فإنها على العكس من ذلك . وليس هذه موضع التفصيل .

والمقصود أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته . واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة ، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد ، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعرفة . فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة .

ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط ، وإرسال الحجارة المسوَّمة عليهم ، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم ، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم ، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم .

ثم قال تعالى ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ [الذاريات : ٣٥و٣٦] ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام .

فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة ، فهو إخراج نجاة من العذاب ، ولا

ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهراً وباطناً .

وقوله تعالى ﴿ **فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ [الذاريات : ٣٦] لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر ، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين ، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط ، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم ، وليست خيانة فاحشة ، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً ، وليست من المؤمنين الناجين .

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها ، تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول ، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد .

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو : إن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص ، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس ؟ وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود ، والمؤمنين غير مستثنين منه ، بل هم المخرجون الناجون .

وقوله تعالى ﴿ **وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾ [الذاريات : ٣٧] فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله ، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ، ويخشى عذاب الله تعالى .

كما قال الله تعالى في موضع آخر (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) [هود : ١٠٣] .

وقال تعالى (سيذكر من يخشى) [الأعلى : ١٠] فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول : هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ، ولا يزال الدهر فيه الشقاوة والسعادة .

وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ[1] .

---

(١) الرسالة التبوكية (٧٣ – ٨٢) .

قال الله تعالى : ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

وحقيقة الفرار : الهرب من شيء ، إلى شيء وهو نوعان : فرار السعداء وفرار الأشقياء ففرار السعداء : الفرار إلى الله عز وجل .

وفرار الأشقياء : الفرار منه لا إليه .

وأما الفرار منه إليه : ففرار أوليائه . قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾ فروا منه إليه واعملوا بطاعته . وقال سهل بن عبد الله : فروا مما سوى الله إلى الله . وقال آخرون : اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة[1] .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رزق وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦، ٥٧] .

فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم ولا ليربح عليهم ، لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) [الإسراء : ٧] . وقال : (ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) [الروم : ٤٤] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته وهو سبحانه كما أنه يحب أن يعبد ، يحب أن يحمد ويثنى عليه ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى[2] .

---

(١) مدارج السالكين (٤٦٩/١) .

(٢) طريق الهجرتين (١٢٥ – ١٢٦) .

وقال رحمه الله :

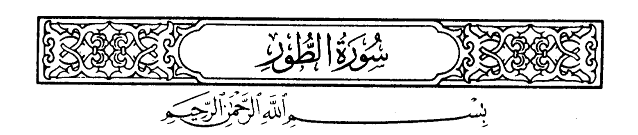
﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

أخبر سبحانه أنه إنما خلقهم للعبادة ، وكذلك إنما أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه فالعبادة هي الغاية التي خلقوا لها ولم يخلقوا لمجرد الترك فإنه أمر عدمي لا كمال فيه من حيث هو عدم ، بخلاف امتثال المأمور فإنه أمر وجودي مطلوب الحصول[1] .

* * *

(١) طريق الهجرتين (٢٢٢) .

سُورَةُ الطُّورِ



سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : ١ – ٨] .

تضمن هذا القسم خمسة أشياء وهي مظاهر آياته وقدرته وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته .

فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران عند جمهور المفسرين من السلف والخلف وعرفه ها هنا باللام وعرفه في موضع آخر بالإضافة فقال : (وطور سنين) [التين : ٢] . وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه . قال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه : حدثني محمد بن عبيد بن حبان قال : حدثنا جعفر بن سليمان قال : حدثنا : أبو عمران الجوني عن نوف البكالي قال : أوحى الله عز وجل إلى الجبال : إني نازل على جبل منكم قال فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور فإنه تواضع وقال : أرضى بما قسم الله لي فكان الأمر عليه وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به وإنه لسيد الجبال .

الثاني : الكتاب المسطور في الرق المنشور ، واختلف في هذا الكتاب فقيل هو اللوح المحفوظ وهذا غلط فإنه ليس برق ، وقيل هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم ، وقال مقاتل تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور ، وهذا وإن كان أقوى وأصح من القول الأول واختاره جماعة من المفسرين ومنهم

من لم يزك غيره ، فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله وأقسم الله به لعظمته وجلالته وما تضمنه من آيات ربوبيته وأدلة توحيده وهداية خلقه ثم قيل هو التوراة التي أنزل الله على موسى وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور فقال : هو التوراة ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق ، إلا أن يقال : هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح ، وقيل هو القرآن ؛ ولعل هذا أرجح الأقوال ؛ لأنه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة ، بأيدي سفرة كرام بررة . فالصحف هي الرق ، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشوراً . وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب . ويكون ذلك متضمناً للنبوتين المعظمتين ، نبوة موسى ، ونبوة محمد . وكثيراً ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون .

ثم أقسم بسيد البيوت ، وهو البيت المعمور . وفي وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوباً مفروغا منه . وفى وصفه بأنه منشور إيذان بالاعتناء به ، وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور .

وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء الذي رفع للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ،«يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لايعودون إليه آخر ما عليهم»[1]، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض ، وقيل هو البيت الحرام . ولا ريب أن كلا منهما معمور : فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم ، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود ، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت .

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته ، وهما مظهر آياته ، وعجائب صنعته ، وهما : السقف المرفوع ، وهو السماء ، فإنها من أعظم آياته قدراً ، وارتفاعا ، وسعة وسمكا ، ولوناً ، وإشراقاً وهي محل ملائكته ، وهي سقف العالم ، وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار ، والسنين

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨/٦ - ٣٥٠) في بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة .
ومسلم (٣٨٨/١ - ٣٩٢) في الإيمان ، باب : الإسراء .....

والشهور والأيام والصيف والشتاء والربيع والخريف . ومنها تنزل البركات . وإليها تصعد الأرواح ، وأعمالها وكلماتها الطيبة .

والثاني : البحر المسجور ، وهو آية عظيمة من آياته ، وعجائبه لا يحصيها إلا الله واختلف في هذا البحر ، هل هو الذي فوق السموات ، أو البحر الذي نشاهده ؟ على قولين : فقالت طائفة : هو البحر الذي عليه العرش ، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام كما في الحديث الذي رواه أبو داود ، من حديث سماك عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس ، قال : كنت بالبطحاء في عصابة ، فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرت بهم سحابة ، فنظر إليها فقال : « ما تسمون هذه ؟ قالوا : السحاب ، قال « والمزن » قالوا : والمزن ، قال « والعنان » قالوا : والعنان . قال « هل تدرون ما بين السماء والأرض ؟ » قالوا : لا ندري ، قال « إن بعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك ، حتى عد سبع سموات . ثم فوق السابعة بحراً بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهم العرش ، ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله فوق ذلك »[١] وهذا لا يناقض ما في جامع الترمذي « إن بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام »[٢] إذ المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به ، فالخمسمائة مقدرة بسير الإبل ، والسبعون بسير البريد ، وهو يقطع بقدر ما تقطعه الإبل سبعة أضعاف . وهذا القول في البحر الذي تحت العرش محكي عن علي بن أبي طالب .

والثاني أنه بحر الأرض . واختلف في المسجور ، فقيل المملوء ، هذا قول

---

(١) رواه أبو داود (١٣/٥ – ٩) في السنة ، باب : في الجهمية .
ورواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢٠٤/٣) برقم (١٧٧١) بتحقيق : الشيخ أحمد شاكر ، وضعفه من أجل الوليد بن أبي ثور فانظره مفصلاً .

(٢) راجع الحديث (١) في أول سورة الذاريات ، وتعليق ابن القيم – رحمه الله تعالى – في معالم السنن (٩١/٧) .

جميع أهل اللغة . قال الفراء : المسجور في كلام العرب المملوء . يقال : سجرت الإناء إذا ملأته ، قال لبيد :

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاور أقلامها

وقال المبرد : المسجور المملوء عند العرب ، وأنشد للنمر بن تولب :

إذا شاء طالع مسجورة

يريد عيناً مملوءة ماء ، وكذا قال ابن عباس : المسجور الممتلىء ، وقال مجاهد : المسجور الموقد . قال الليث : السجر إيقادك في التنور تسجره سجراً ، والسجر اسم الحطب . وهذا قول الضحاك وكعب وغيرهما قال : البحر يسجر فيزداد في جهنم ، وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال مسجور . قال الفراء : وهذا يرجع إلى القول الأول ، لأنك تقول : سجرت التنور إذا ملأته حطباً . وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس أن المسجور اليابس الذي قد نضب ماؤه وذهب ، وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف ، وهذا القول اختيار أبي العالية ، قال أبو زيد : المسجور المملوء ، والمسجور الذي ليس فيه شيء ، جعله من الأضداد ، وقد روي عن ابن عباس أن المسجور المحبوس ، ومنه ساجور الكلب ، وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه . والمعنى على هذا أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض على الأرض فيغرقها ، فإن ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامراً للأرض فوقها ، كما أن الهواء فوق الماء ، ولكن أمسكه الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، وفي هذا حديث ذكره أحمد مرفوعا « ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم » .

وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية ، فإنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض ، مع كون كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات ، ولو فرض أن في الطبيعة ما يقتضي بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضي تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره . وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة أن العناية الإلهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم ، هو كما ذكروا ، ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته ، وهو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء

قدير ، وهو أحكم الحاكمين - غير معقولة . فإن العناية الإلهية تقتضي حياته ، وقدرته ، ومشيئته ، وعلمه ، وحكمته ، ورحمته ، وإحسانه إلى خلقه ، وقيام الأفعال به . فإثبات العناية الإلهية مع نفي هذه الأمور ممتنع . وبالله التوفيق .

وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد . وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور . ويدل عليه قوله تعالى : (وإذا البحار سجرت) [التكوير : ٦] . قال علي وابن عباس : أوقدت فصارت ناراً ، ومن قال يبست وذهب ماؤها فلا يناقض كونها ناراً موقدة ، وكذا من قال ملئت ، فإنها تملأ ناراً .

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله ، فإن البحر محبوس بقدرة الله ، ومملوء ماء ، ويذهب ماؤه يوم القيامة ويصير ناراً : فكل من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني . والله أعلم .

فصـــل

وأقسم سبحانه بهذه الأمور على المعاد والجزاء ، فقال ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : ٧ - ٨] . ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له ، وهذا يتناول أمرين :

أحدهما : أنه لا دافع لوقوعه .

والثاني : أنه لا دافع له إذا وقع .

ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال : ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور : ٩، ١٠] . والمور قد فسر بالحركة ، وفسر بالدوران ، وفسر بالتموج والاضطراب ، والتحقيق أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال ، فقال : ﴿ **وتسير الجبال سيراً** ﴾ وقال : (وإذا الجبال سيرت) [التكوير : ٣] . من مكان إلى مكان ، وأما السماء فإنها تتكفأ ، وتموج ، وتذهب ، وتجيء ، قال الجوهري : مار الشيء يمور موراً ،

تَرهياً أي : تحرك وجاء وذهب ، كما تكفأ النخلة العيدانة ، أي : الطويلة ، ومنه قوله : ﴿ **يوم تمور السماء موراً** ﴾ قال الضحاك : تموج موجاً ، وقال أبو عبيدة ، والأخفش : تكفأ وأنشد للأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع، فلا علم نافع ولا عمل صالح، بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم لعب، ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعا أي: يدفع في أقفيتهم وأكتافهم ، دفعاً بعد دفع ، فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا ، وقيل لهم : ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[الطور : ١٤] . وتقولون لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق، ثم يقال : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾ [الطور : ١٥] . الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل . إنه سحر ، وإنهم سحرة ، فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم ، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها ، كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق ؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق ، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق ؟ ثم سلب عنهم نفع البصر الذي كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها ، فقيل لهم يومئذ : ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ ﴾ [الطور : ١٦] . كلاهما سواء عليكم لا يجدي عنكم الصبر ولا الجزع ، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب ، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة ، ثم اعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك ، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذابا ، فلم يجدوا من اقترانهم به بدأ . بل صارت عذاباً لازماً لهم كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم ، ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة ، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا ، فإذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالا كلياً لم يعذبوا عليه في

الآخرة ؛ لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم ، ولم يبق له أثر يترتب عليه ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له . والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها . وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض ، وغلب الأقوى الأضعف ، وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما الآخر ، وكان محل صاحبه جبال الأعراف بين الجنة والنار ، فهذا حكم الله وحكمته في خلقه ، وأمره ونهيه وعقابه ، ولا يظلم ربك أحداً .

فصـــل

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون ، فذكر مساكنهم وهم في الجنان وحالهم في المساكن وهو النعيم ، وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾ [الطور : ١٨] . والفاكه : المعجب بالشيء المسرور المغتبط به ، وفعله فكه - بالكسر - يفكه فهو فكه وفاكه إذا كان طيب النفس ، والفاكه البال ، ومنه الفاكهة وهي المرح الذي ينشأ عن طيب النفس ، وتفكهت بالشيء ، إذا تمتعت به . ومنه الفاكهة التي يتمتع بها . ومنه قوله : (فظلتم تفكهون) [الواقعة : ٦٥] . قيل : معناه تندمون ، وهذا تفسير بلازم المعنى ، وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه ، وإذا زال التفكه خلفه ضده ، يقال : تحنث إذا زال الحنث عنه ، وتحرج وتحوب وتأثم ، ومنه تفكه ، وهذا البناء يقال للداخل في الشيء : كتعلم وتحلم ، وللخارج منه : كتحرج وتأثم .

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين : نعيم القلب بالتفكه ، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح ، ووقاهم عذاب الجحيم ، فوقاهم مما يكرهون ، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقاً ؛ لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب . فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم .

ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ [الطور : ١٩] . فإنهم لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم .

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٍ ﴾ [الطور : ٢٠] . وفي ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ، ومقابلة بعضهم بعضاً ، كما قال تعالى : (متكئين عليها متقابلين) [الواقعة : ١٦] . فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه ، ولا يكون بكون بعيداً منه ، قد حيل بينه وبينه ، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه .

وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين ، وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين الصفتين ، قال أبو عبيدة : جعلناهم أزواجاً كما يزوج البعل بالبعل ، جعلناهم اثنين اثنين . وقال يونس : قرناهم بهن ، وليس من عقد التزويج ، واحتج على هذا بأن العرب لا تقول تزوجت بها وإنما تقول تزوجتها ، قال تعالى : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) [الأحزاب : ٣٧] . وفي الحديث « زوجتكها بما معك من القرآن »[(١)] وقال غيره : العرب تقول تزوجت بامرأة ، وقال الأزهري : العرب تقول : زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس في كلامهم تزوجت بامرأة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ [الطور : ٢٠] . أي قرناهم . وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع أي : شفعناهم وقرناهم بهن ، وقالت طائفة منهم مجاهد : زوجناهم بهن أي أنكحناهم إياهن .

قلت : وعلى هذا فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم ، فالقولان واحد . والله أعلم .

وأما الحور العين فقال مجاهد : التي يحار فيها الطرف بادياً مخ سوقهن من وراء ثيابهن ، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون ، وقال قتادة: بحور، أي بيض ، وكذا قال ابن عباس ، وقال مقاتل : الحور

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٩٥/٩) في النكاح ، باب : إذا كان الولي هو الخاطب . ومسلم (٥٨٣/٣) في النكاح ، باب : أقل الصداق . ورواه غيرهما .

البيض الوجوه ، العين : الحسان الأعين . وعين حوراء : شديدة السواد ، نقية البياض ، طويلة الأهداب مع سوادها كاملة الحسن ، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد ، فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة كما قال : (خيرات حسان) [الرحمن : ٧٠] . فالبياض في ألوانهن ، والحسن في وجوههن ، والملاحة في عيونهن . وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات ، ودل بما وصف بما سكت عنه .

فإن شئت التفصيل فالذي يحمد ويستحب من وجه المرأة وبدنها وأخلاقها البياض فى أربعة أشياء : اللون ، وبياض العين ، والفرق ، والثغر ، والسواد في أربعة : سواد العين ، وسواد شعر الرأس ، والجفن ، وسواد الحاجبين ، والحمرة في أربعة : اللسان ، والشفتين ، والوجنتين وحمرة تشوب البياض فتحسنه وتزينه ، ومن التدوير أربعة أشياء : الوجه ، والرأس ، والكعب ، والمقعد ، ومن الطول أربعة : القامة ، والعنق ، والشعر ، والحاجب ، والسعة في أربعة : الجبهة والعين ، والوجه ، والصدر ، ومن الصغر في أربعة : الثدي والفم ، والكف ، والقدم ومن الطيب في أربعة : الفم ، والأنف ، والفرق والفرج ، ومن الضيق في موضع واحد ، ومن الأخلاق كما قال تعالى : (عرباً أتراباً) [الواقعة : ٣٧] . إذ العرب جمع عروب ، وهي المرأة المتحببة إلى زوجها بأخلاقها ولطافتها وشمائلها ، قال ابن الأعرابي : العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة إليه ، وقال أبو عبيدة هي : الحسنة التبعل ، قال المبرد : هي العاشقة لزوجها ، وقال البخاري في صحيحه : هي الغنجة ؛ ويقال الشكلة[1]، فهذا وصف أخلاقهن . وذلك وصف خلقهن ، وأنت إذا تأملت الصفات التي وصفهن الله بها رأيتها مستلزمة لهذه الصفات ولما وراءها . والله المستعان .

---

(١) في صحيح البخاري : ﴿ عُرُباً ﴾ مثقلة واحدها عَروب - مثل - صَبور وصُبُر - يسميها أهل مكه : العَرِبة ، وأهل المدينة : الغَنِجة ، وأهل العراق : الشكلة . (٤٩٤/٨) في التفسير ، سورة الواقعة .

فصــــل

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة ، وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم ، ويتم سرورهم وفرحهم ؛ وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى ، بل ألحق الأبناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم .

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل ؛ وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك ؛ بل ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق ، كما في قوله : **﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾** [الطور : ٢١] . دفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء فينقص أجر أعمالهم فرفع هذا التوهم بقوله **﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾** أي ما نقصناهم ، ثم ذكر إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب ، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم ، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ؛ ليتم بذلك فرحهم وسرورهم .

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الإثم لهم فقال ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور : ٢٣] . فنفى باللغو السباب ، والتخاصم ، والهجر والفحش في المقال ، والعربدة . ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر . وقال سبحانه : **﴿ ولا تأثيم ﴾** ولم يقل ولا إثم ، أي : ليس فيها ما يحملهم على الإثم ولا يؤثم بعضهم بعضاً بشربها ، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأثمون . قال ابن قتيبة : لا يذهب بعقولهم فيلغوا ولم يقع منهم ما يؤثمهم[1] .

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم ، والمكنون : المصون الذي لا تدنسه الأيدي ، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن ، وذلك اللون والصفاء والبهجة . بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، ووصفهم في

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (٤٢٥) .

موضع آخر : (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً) [الإنسان : ١٩] . ففي ذكره المنثور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم ، وذهابهم ، ومجيئهم ، وسعة المكان ، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه .

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور : ٢٦] . أي : كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا ، فأمنا مما نخاف ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور : ٢٧] . وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسروراً ، فهذا كان مسروراً مع إساءته . وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم . فبدل الله سبحانه إشفاقهم بأعظم الأمن ، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف فبالله سبحانه المستعان .

ثم أخبر عن حالهم في الدنيا . وأنهم كانوا يعبدون الله فيها . فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره ، ومحل كرامته ، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته ؛ فإنه هو البر الرحيم ، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة . والله أعلم[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور : ٢٠] .

قال أبو عبيدة : جعلناهم أزواجاً كما يزوج البعل بالبعل جعلناهم اثنين اثنين قال يونس : قرناهم بهن وليس من عقد التزويج قال : والعرب لا تقول : تزوجت بها وإنما تقول : تزوجتها . قال ابن نصر : هذا والتنزيل يدل على ما قاله يونس وذلك قوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) [الأحزاب : ٣٧] . ولو كان على تزوجت بها لقال زوجناك بها . قال ابن سلام : تميم تقول : تزوجت امرأة وتزوجت بها وحكاه الكسائي أيضاً وقال الأزهري : تقول العرب : زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس من كلامهم : تزوجت بامرأة وقوله تعالى :

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٦٤ – ٢٧٨) .

﴿ **وزوجناهم بحور عين** ﴾ [الطور : ٢٠] أي : قرناهم . وقال الفراء هي لغة في أزد شنوءة . قال الواحدي : وقول أبي عبيدة في هذا أحسن ؛ لأنه جعله من التزويج الذي هو بمعنى جعل الشيء زوجاً ، لا بمعنى عقد النكاح ومن هذا يجوز أن يقال : كان فرداً فزوجته بآخر ، كما يقال شفعته بآخر إنما تمنع الباء عند من يمنعها إذا كان بمعنى عقد التزويج قلت : ولا يمتنع أن يراد الأمران معاً فلفظ التزويج يدل على النكاح كما قال مجاهد: أنكحناهم الحور ولفظ الباء تدل على الاقتران والضم هذا أبلغ من حذفها . والله أعلم[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

فهذه الآية تدل على أن الله سبحانه يلحق ذرية المؤمنين بهم في الجنة ، وأنهم يكونون معهم في درجتهم ومع هذا فلا يتوهم نزول الآباء إلى درجة الذرية فإن الله لم يلتهم أي لم ينقصهم من أعمالهم شيئاً ، بل رفع ذرياتهم إلى درجاتهم مع توفير أجور الآباء عليهم ، ولما كان إلحاق الذرية بالآباء في الدرجة إنما هو بحكم التبعية لا بالأعمال ربما توهم متوهم أن ذرية الكفار يلحقون بهم في العذاب تبعاً وإن لم يكن لهم أعمال الآباء ؛ فقطع تعالى هذا التوهم بقوله تعالى : (كل امرىء بما كسب رهين) . وتأمل قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان) كيف أتى بالواو العاطفة في اتباع الذرية وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم فجعل الخبر مستحقاً بأمرين :

أحدهما : إيمان الآباء .

والثاني : إتباع الله ذريتهم إياهم وذلك لا يقضي أن كل مؤمن يتبعه كل ذرية له ولو أريد هذا المعنى لقيل : والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم ، فعطف الإتباع بالواو يقتضي أن يكون المعطوف بها قيداً وشرطاً في ثبوت الخبر لا حصوله لكل أفراد المبتدأ وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : أتي النبي صلى الله عليه وسلم بصبي من الأنصار يصلي عليه فقلت : يارسول الله

---

(١) حادي الأرواح (١٨٠) .

طوبى لهذا لم يعمل شراً ولم يدره قال : « أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم »[1] فهذا الحديث يدل على أنه لا يشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين بالجنة وإن أطلق على أطفال المؤمنين في الجملة أنهم في الجنة لكن يشهد للمعين ممتنعة كما يشهد للمؤمنين مطلقاً أنهم في الجنة ولا يشهد لمعين بذلك إلا من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم فهذا وجه الحديث الذي يشكل على كثير من الناس ورده الإمام أحمد وقال : لا يصح : ومن يشك أن أولاد المسلمين في الجنة ، وتأوله قوم تأويلات بعيدة[2] .

قال أيضاً رحمه الله :

روى قيس عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء** ﴾ قال : ما نقصنا الآباء مما أعطى البنين[3] » .

وذكر ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال شريك: أظنه حكاه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك أو عملك فيقول: يارب فقد عملت لي ولهم فيؤمر بالإلحاق بهم . ثم تلا ابن عباس (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان) [الطور : ٢١]. إلى آخر الآية[4] وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان على ثلاثة أقوال : واختلافهم

---

(١) رواه مسلم (٥١٧/٥) في القدر ، باب : كل مولود يولد على الفطرة ،ورواه غيره .

(٢) طريق الهجرتين (٣٦٨ - ٣٦٩) .

(٣) رواه البزار (٧٠/٣) في تفسير سورة الطور ، وقال الهيثمي : « رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه ضعف » مجمع الزوائد (١١٤/٧) .

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٤٤٠/١١) رقم (١٢٢٤٨) والصغير (٢٤٣/١) رقم (٦٣١).
قال الهيثمي : « فيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف » مجمع الزوائد (١١٤/٧) .

مبني على أن قوله بإيمان حال من الذرية التابعين أو المؤمنين المتبوعين . فقالت طائفة : المعنى والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمانهم فأتوا من الإيمان بمثل ما أوتوا به ألحقناهم بهم في الدرجات قالوا : ويدل على هذا قراءة من قرأ : (واتبعتهم ذريتهم) فجعل الفعل في الاتباع لهم قالوا : وقد أطلق الله سبحانه الذرية على الكبار كما قال : (ومن ذريته داود وسليمان) [الأنعام : ٨٤] .

وقال : (ذرية من حملنا مع نوح) [الإسراء : ٣] . وقال : (وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) [الأعراف : ١٧٣] . وهذا قول الكبار العقلاء قالوا : ويدل على ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس يرفعه : « إن الله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه »[1] فهذا يدل على أنهم دخلوا بأعمالهم ولكن لم يكن لهم أعمال يبلغوا بها درجة آبائهم فبلغهم إياها وإن تقاصر عملهم عنها قالوا : وأيضاً فالإيمان هو القول والعمل والنية وهذا إنما يمكن من الكبار وعلى هذا فيكون المعنى : أن سبحانه يجمع ذرية المؤمن إليه إذا أتوا الإيمان بمثل إيمانه إذ هذا حقيقة التبعية وهذا كما أن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم معه في الدرجة تبعا وإن لم يبلغوا تلك الدرجة بأعمالهن .

وقالت طائفة أخرى : الذرية هٰهنا الصغار والمعنى : والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمان الآباء وإن كانوا صغاراً في الإيمان وأحكامه من الميراث والدية والصلاة عليهم والدفن في قبور المسلمين وغير ذلك إلا فيما كان من أحكام البالغين ويكون قوله بإيمان على هذا في موضع نصب على الحال من المفعولين أي وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء قالوا : ويدل على صحة هذا : القول إن البالغين لهم حكم أنفسهم في الثواب والعقاب فإنهم مستقلون بأنفسهم ليسوا تابعين الآباء في شيء من أحكام الدنيا ولا أحكام الثواب والعقاب لاستقلالهم بأنفسهم ولو كان المراد بالذرية البالغين ؛ لكان أولاد الصحابة البالغون كلهم في درجة آبائهم ، ويكون أولاد التابعين البالغين كلهم في درجة آبائهم وهلم جرا إلى يوم القيامة فيكون الآخرون في درجة السابقين .

---

(١) انظر الحديث قبل السابق .

قالوا : ويدل عليه أيضاً أنه سبحانه جعلهم معهم تبعاً في الدرجة كما جعلهم معهم تبعاً في الإيمان ولو كانوا بالغين لم يكن إيمانهم تبعاً بل إيمان استقلال، قالوا: ويدل عليه أن الله سبحانه جعل المنازل في الجنة بحسب الأعمال في حق المستقلين وأما الأتباع فإن الله سبحانه يرفعهم إلى درجة أهليهم وإن لم يكن لهم أعمالهم كما تقدم وأيضاً فالحور العين الخدم في درجة أهليهم وإن لم يكن لهم عمل بخلاف المكلفين البالغين فإنهم يرفعون إلى حيث بلغتهم أعمالهم .

وقالت فرقة منهم الواحدي الوجه أن تحمل الذرية على الصغار والكبار ؛ لأن الكبير يتبع الأب بإيمان نفسه والصغير يتبع الأب بإيمان الأب قالوا : والذرية تقع على الصغير والكبير الواحد والكثير والابن والأب كما قال تعالى : (وءاية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) [يس : ٤١] . أي : آبائهم والإيمان يقع على الإيمان التبعي وعلى الاختياري الكسبي فمن وقوعه على التبعي قوله : (فتحرير رقبة مؤمنة) [النساء : ٩٢] . فلو أعتق صغيراً أجاز قالوا : وأقوال السلف تدل على هذا ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عيونهم ثم قرأ هذه الآية ، وقال ابن مسعود في هذه الآية : الرجل يكون له القدم ويكون له الذرية فيدخل الجنة فيرفعون إليه لتقر بهم عينه وإن لم يبلغوا ذلك ، وقال أبو مجلز : يجمعهم الله له كما كان يحب أن يجمعوا في الدنيا ، وقال الشعبي : أدخل الله الذرية بعمل الآباء الجنة ، وقال الكلبي : عن ابن عباس : إن كان الآباء أرفع درجة من الأبناء رفع الله الأبناء إلى الآباء ، وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء رفع الله الآباء إلى الأبناء ، وقال إبراهيم : أعطوا مثل أجور آبائهم و لم ينقص الآباء من أجورهم شيئاً ، قالوا : ويدل على صحة هذا القول أن القراءتين كالآيتين فمن قرأ (واتبعتهم ذريتهم) فهذا من حق البالغين الذين تصح نسبة الفعل إليهم كما قال تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ [التوبة : ١٠٠] . ومن قرأ : (وأتبعناهم ذرياتهم) فهذا حق الصغار الذين أتبعهم الله إياهم في الإيمان حكماً فدلت القراءتان على النوعين قلت : واختصاص

الذرية ههنا بالصغار أظهر لئلا يلزم استواء المتأخرين والسابقين في الدرجات ولا يلزم مثل هذا في الصغار فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته . والله أعلم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] .

فتأمل كم في هذا الكلام من دفع إيهام وإزالة ما عسى أن يعرض للمخاطب من لبس .

فمنها : قوله ﴿ **واتبعتهم ذريتهم بإيمان** ﴾ لئلا يتوهم أن الاتباع في نسب أو تربية أو حرية أو رق وغير ذلك .

ومنها قوله : ﴿ **وما ألتناهم من عملهم** ﴾ [الطور : ٢١] . رفعاً لوهم متوهم أنه يحط الآباء إلى درجة الأبناء ليحصل الإلحاق والتبعية فأزال هذا الوهم بقوله : (وما ألتناهم من عملهم) أي ما نقصنا الآباء بهذا الاتباع شيئاً من عملهم بل رفعنا الذرية إليهم قرة لعيونهم وإن لم يكن لهم أعمال يستحقون بها تلك الدرجة .

ومنها قوله : ﴿ **كل امرىء بما كسب رهين** ﴾ [الطور : ٢١] .

فلا يتوهم أن هذا الاتباع حاصل في أهل الجنة وأهل النار بل هو للمؤمنين دون الكفار فإن الله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بكسبه وقد يثيبه من غير كسب منه[٢] .

---

(١) حادي الأرواح (٣١٦ - ٣١٨) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣٩١/١ - ٣٩٣) . وإعلام الموقعين (٢٠٤/٤) .

وقال رحمه الله تعالى :

وأما النوع الثاني[1] من الأتباع : فهم أتباع المؤمنين من ذريتهم الذين لم يثبت لهم حكم التكليف في دار الدنيا ، وإنما هم مع آبائهم تبع لهم .

وقال الله تعالى فيهم ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين** ﴾ [الطور : ٢١] أخبر سبحانه أنه ألحق الذرية بآبائهم في الجنة ، كما أتبعهم إياهم في الإيمان ولما كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالى : ﴿ **وما ألتناهم من عملهم من شيء** ﴾ والضمير عائد إلى الذين آمنوا أي وما نقصناهم من عملهم بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم مع توفيتهم أجور أعمالهم ، فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل ، بل وفيناهم أجورهم ، فألحقنا بهم ذريتهم فوق ما يستحقون من أعمالهم . ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فضلًا من الله ، فربما وقع في الوهم أن إلحاق الذرية أيضاً حاصل لهم في حكم العدل ؛ فلما اكتسبوا سيئات أوجبت عقوبة ،كان كل عامل رهيناً بكسبه لا يتعلق بغيره شيء .

فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب ، وهذا نوع من أسرار القرآن وكنوزه ، التي يختص الله بفهمها من شاء .

فقد تضمنت هذه الآية أقسام الخلائق كلهم : أشقيائهم وسعدائهم . السعداء المتبوعون والأتباع . والأشقياء المتبوعون والأتباع .

فعلى العاقل الناصح لنفسه أن ينظر في أي الأقسام هو ، ولا يغتر بالعادة ويخلد إلى البطالة ، فإن كان من قسم سعيد انتقل إلى ما هو فوقه وبذل جهده ، والله ولي التوفيق والنجاح . وإن كان من قسم شقي انتقل منه إلى القسم السعيد في زمن الإمكان قبل أن يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا[2].

---

(١) ذكر النوع الأول من السعداء عند الكلام عن الآية (١٠٠) من سورة التوبة .

(٢) الرسالة التبوكية (٦٧ – ٦٨) .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر سبحانه أنه يكرمهم بإلحاق ذرياتهم الذين كانوا لهم في الدنيا ولو كان ينشيء لهم في الجنة ذرية أخرى لذكرهم كما ذكر ذرياتهم الذين كانوا في الدنيا ؛ لأن قرة أعينهم كانت تكون بهم كما هي بذرياتهم من أهل الدنيا[1] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور : ٢٨] . فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة ، والمعنى إنا كنا من قبل نخلص له العبادة وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره فإن الله سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور : ٢٨] .

كسر إن وفتحها ، فمن فتح كان المعنى ندعوه لأنه هو البر الرحيم ومن كسر كان الكلام جملتين إحداهما قوله ﴿ **ندعوه** ﴾ ثم استأنف فقال ﴿ **إنه هو البر الرحيم** ﴾ قال أبو عبيد : والكسر أحسن ورجحه[3] .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥،٣٦] .

فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة يقول تعالى : هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا فهل خلقوا من غير خالق خلقهم فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من

---

(١) حادي الأرواح (٢٠٢) .

(٢) بدائع الفوائد (٣/٥ - ٦) .

(٣) تهذيب سنن أبي داود (٢/٣٣٨) .

غير صانع ومخلوق من غير خالق ولو مر رجل بأرض قفر لابناء فيها ثم مر فيها فرأى فيها بنياناً وقصوراً وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعاً صنعها وبانياً بناها ثم قال ﴿ **أم هم الخالقون** ﴾ : وهذا أيضاً من المستحيل أن يكون العبد موجداً خالقاً لنفسه فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة ولا أصبعاً ولا ظفراً ، ولا شعرة كيف يكون خالقاً لنفسه في حال عدمه . وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقاً خلقهم وفاطرا فطرهم فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر فكيف يشركون به إلهاً غيره وهو وحده الخالق لهم .

فإن قيل فما موقع قوله ﴿ أم خلقوا السموات والأرض ﴾ [الطور : ٣٦] . من هذه الحجة قيل أحسن موقع فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقاً وفاطراً وأنهم مخلوقون ، وبين بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين فإنهم لم يخلقوا نفوسهم ولم يخلقوا السموات والأرض وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن بخلق العالم العلوي والسفلي وما فيه[1] .

قوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الطور : ٤٥] . وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر ؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا وقد يقال وهو أظهر : إن من مات منهم عذب في البرزخ ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ[2] .

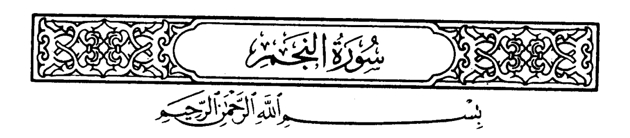
* * *

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٩٣ – ٤٩٤) .

(٢) الروح لابن القيم (٧٥) .

سُورَةُ النَّجْمِ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النجم : ١-٣] .

أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي .

واختلف الناس في المراد بالنجم ، فقال الكلبي عن ابن عباس : أقسم بالقرآن إذا نزل منجماً على رسوله : أربع آيات ، وثلاثاً ، والسورة ، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة . وكذلك روى عطاء عنه ، وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد ، واختاره الفراء وعلى هذا فسمي القرآن نجماً لتفرقه في النزول ، والعرب تسمي التفرق تنجماً والمفرق نجماً ، ونجوم الكتاب أقساطها . ويقول : جعلت مالي على فلان نجوماً منجمة كل نجم كذا وكذا .

وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها فيقولون : إذا طلع النجم – يريدون الثريا – حل عليك الدين ، ومنه قول زهير في دية جعلت نجوماً على العاقل .

ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهرقوا ما بينهم ملء محجم

ثم جعل كل تنجم تفريقاً وإن لم يكن موقتاً بطلوع نجم .

وقوله: ﴿ هوى ﴾ على هذا القول ، أي : نزل من علو إلى سفل . قال أبو زيد : هوى العقاب تهوي هوياً – بفتح الهاء – إذا انقضت على صيد أو غيره وكذلك قال ابن الأعرابي. وفرق بين الهوي لقوله: والدلو في إصعادها عجل الهوى.

وقال الليث : العامة تقول الهوي – بالضم – في مصدر هوى يهوي . وكذلك قال الأصمعي : هوى يهوي هو بفتح الهاء ، إذا سقط إلى أسفل ، قال: وكذلك الهوي في السير إذا مضى .

وها هنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم أقبح غلط فذكر في أسماء الرب تعالى الهوي بفتح الهاء واحتج بما في الصحيح[1] ، من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده « سبحان ربي الأعلى » الهوي . فظن أبو محمد : أن الهوي صفة الرب وهذا من غلطه رحمه الله ، وإنما الهوي على وزن فعيل اسم لقطعة من الليل ، يقال : مضى هوي من الليل ، على وزن فعيل ، ومضى هزيع منه ، أي : طرف وجانب ، وكان يقول « سبحان ربي الأعلى » في قطعة من الليل وجانب منه ، وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر ، فقالت : كان يقول « سبحان ربي الأعلى » الهوي من الليل .

عدنا إلى قوله ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ وقال ابن عباس ، في رواية علي ابن أبي طلحة ، وعطية : يعني الثريا إذا سقطت وغابت ، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد ، والعرب إذا أطلقت النجم تعني به الثريا ، قال : فباتت تعد النجم ، وقال أبو حمزة اليماني : يعني النجوم إذا انتشرت يوم القيامة ، وقال ابن عباس : في رواية عكرمة : يعني النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع . وهذا قول الحسن ، وهو أظهر الأقوال ، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظا للوحي

---

(١) لم أجده في أحد الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها بهذا السياق والله أعلم .
وإنما الذي في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها « كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » (٢ / ١٢١) في الصلاة ، باب : ما يقال في الركوع والسجود .
والحديث بهذا اللفظ – الذي ذكره ابن القيم .
رواه النسائي (٣ / ٢٠٩) في قيام الليل ، باب : ذكر ما يستفتح به القيام .
عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه . وعنه أيضا :
ابن ماجه (الصحيح) (٢ / ٣٣٥) في الدعاء ، باب : ما يدعوا به إذا انتبه من الليل .
والترمذي (٥ / ٤٤٨) في الدعوات ، باب (٢٧) وقال : حسن صحيح .
وانظر تحفة الأشراف للمزي (٣ / ١٦٨) . والله الموفق للصواب .

من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق ، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه ، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي ، وحرساً له ، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور ، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه .

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ، ولا تسمية نزوله هوياً ، ولا عهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه ، وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت ، وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة ، بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته ، فلا يجعله نفسه دليلا ، لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكرو البعث ، فإنه سبحانه إنما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه ، فأظهر الأقوال قول الحسن . والله أعلم .

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى ؛ فإن النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله ، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله ، بها ظهر دينه وشرعه ، وأسماؤه ، وصفاته وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهاوية ، ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدي ، والغي المنافي للرشاد ، ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد ، فالهدى في علمه والرشاد في علمه ، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد ؛ وبهما سعادته وفلاحه ، وبهما وصف النبي صلى الله عليه وسلم خلفاءه ، فقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي »[1] ، فالراشد ضد الغاوي ، والمهدي ضد الضال ، وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو صاحب الهدى ودين الحق ، ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله ، وأعماهم قلباً ، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية . ولله در القائل :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

---

(١) حديث صحيح . مر برقم (١)(٢/٤٠٥) من سورة يونس .

فالناس أربعة أقسام : ضال في علمه غاو في قصده وعمله ، وهؤلاء شرار الخلق ، وهم مخالفو الرسل .

الثاني : مهتد في علمه غاو في قصده وعمله ، وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به .

الثالث : ضال في علمه ، ولكن قصده الخير ، وهو لا يشعر .

الرابع : مهتد في علمه راشد في قصده . وهؤلاء ورثة الأنبياء . وهم وإن كانوا الأقلين عدداً فهم الأكثرون عند الله قدراً ، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه .

وتأمل كيف قال سبحانه : ﴿ **ما ضل صاحبكم** ﴾ ولم يقل ما ضل محمد . تأكيداً لإقامة الحجة عليهم ، بأنه صاحبهم ، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ، ولا ضلال ، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط . وقد نبه على هذا المعنى بقوله (أم لم يعرفوا رسولهم) [المؤمنون : ٦٩] ، وبقوله: (وما صاحبكم بمجنون) [التكوير : ٢٢] .

فصـــل

ثم قال سبحانه : ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ [النجم ٣-٤] ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى ، وبهذا الكمال هداه ورشده وقال ﴿ **وما ينطق عن الهوى** ﴾ ولم يقل وما ينطق بالهوى ؛ لأن نطقه عن الهوى أبلغ فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى ، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به . فتضمن نفي الأمرين نفي الهوى عن مصبدر النطق ، ونفيه عن النطق نفسه ؛ فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد ، لا الغي والضلال .

ثم قال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٤] . فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل ، أي ما نطقه إلا وحي يوحى . وهذا أحسن من قول

من جعل الضمير عائداً إلى القرآن ، فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة ، وإن كليهما وحي يوحى وقد احتج الشافعي لذلك فقال : لعل من حجة من قال بهذا قوله (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) [النساء : ١١٣] . قال ولعل من حجته أن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي الزاني بامرأة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم : « والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله : الغنم والخادم رد عليك - » الحديث[١] .

وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر : ليتني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه الوحي ، فلما كان بالجعرانة سأله رجل ، فقال : كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبته بعد ما تضمخ بالخلوق فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سكت ، فجاء الوحي ، فأشار عمر بيده إلى يعلى ، فجاء فأدخل رأسه ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم محرم يغط ، ثم سري عنه ، فقال « أين السائل آنفا ؟ » فجيء به ، فقال « انزع عنك الجبة ، واغسل أثر الطيب ، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجتك »[٢] .

وقال الشافعي : أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن ابن طاووس عن أبيه أن عنده كتاباً نزل به الوحي ، وما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من صدقة وعقول فإنما نزل به الوحي . وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه .

وذكر الأوزاعي أيضاً عن أبي عبيد ، صاحب سليمان ، أخبرني القاسم ابن مخيمرة حدثني ابن فضيلة قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سعر لنا . قال « لا تسألني عن سنة أحدثها فيكم ، لم يأمرني بها ولكن سلوا الله

(١) رواه البخاري (١٢ / ١٤٠) في الحدود ، باب : الاعتراف بالزنا .
ومسلم (٤ / ٢٨١) في الحدود ، باب حد الزنا . ورواه غيرهما .
(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٧ / ٦٤٣) في المغازي ، باب غزوة الطائف .
و (٣ / ٧١٨) في العمرة ، باب : يفعل بالعمرة ما يفعل بالحج .
ورواه مسلم (٢٥١/٣) في الحج، باب ما يباح لبسه للمحرم بحج أو عمرة. ورواه غيرهما.

من فضله »[1] . وابن فضيلة هذا يسمى طلحة ، وقد صح عنه أنه قال « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه »[2] . وهذا هو السنة بلا شك ، وقد قال تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) [النساء : ١١٣] . وهما القرآن والسنة . وبالله التوفيق .

فصل

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن ، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية ، فقال : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم : ٥] . وهذا نظير قوله (ذي قوة عند ذي العرش) [التكوير : ٢٠] . وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة .

---

(١) لم أعرف من « طلحة بن فضيلة » . هذا .
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤ /١٠٠) « عن أبي بصيلة قال:قيل للنبي صلى الله عليه وسلم .. فذكره » .
وقال : « فيه بكر بن سهل الدمياطي ضعفه النسائي ووثقه غيره وبقية رجاله ثقات » ولم أعرف من « أبو بصيلة » ولعله مصحف من « عبيد بن نضلة أو نضيلة » و « عبيد بن نضلة » ذكره ابن حبان في الثقات (٥ / ١٣٨) وقال ابن حجر: «تابعي شهير وذكر ابن حزم أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلقه ، وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده ، من طريق القاسم بن مخيمرة عن عبيد نضلة أن الناس قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم في عام المجاعة: سعر لنا .. الحديث، قال العسكري: ليس يصح سماعه وأكثر ظني أنه مرسل ، وكذلك ابن أبي حاتم وقال : مختلف في صحبته ، سوى الحديث المرسل وأما إدراكه فصحيح .. » . اهـ . الإصابة (٧ / ٢٦٠) وانظر التهذيب (٧ / ٧٥) .
وذكر الحديث صاحب كنز العمال وقال: «رواه الطبراني والبغوي عن عبيد بن نضلة» (١٠٣/٤).
ولعله في الجزء المفقود من الطبراني لكنه عنده عن أبي جحيفة (٢١ / ١٢٥) بلفظ: «إن الله هو المسعر القابض .. » وفيه «غسان بن الربيع ضعيف» مجمع الزوائد (٤ / ١٠٠) ولكنه صح عن أنس وأبي هريرة بلفظ قريب رواه أبو داود (الصحيح) (٢ / ٦٦٠) كتاب البيوع، باب : التسعير .
والترمذي (الصحيح) (٢ / ٣٢) في البيوع ، باب : (١١) والله أعلم بالصواب .

(٢) حديث صحيح عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه .
رواه الإمام أحمد (٤ / ١٣٠) .
ورواه أبو داود (الصحيح) (٣ / ٨٧٠) في السنة ، باب : في لزوم السنة .
ورواه غيرهما بلفظ قريب .

وقوله ﴿ذو مرة﴾ [النجم:٦] أي جميل المنظر حسن الصورة، ذو جلالة، ليس شيطاناً أقبح خلق الله وأشوههم صورة . بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله . وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة ، وتزكية له ، كما تقدم نظيره في سورة التكوير . فوصفه بالعلم والقوة ، وجمال المنظر وجلالته . وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشجع الناس ، وأعلمهم ، وأجملهم ، وأجلهم . والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك ، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى ، وأجهل الخلق وأضعفهم هَمما ونفوساً .

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى ، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيحاء الله ما أوحى . فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده ، إلى أن استوى بالأفق ، ثم دنا وتدلى ، وقرب من رسوله ، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه ، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطاً من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى ، مستوياً عليه ، ثم نزل وقرب من محمد صلى الله عليه وسلم وخاطبه بما أمره الله به ، قائلا : ربك يقول لك كذا وكذا . وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب ، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك وليس هذا على وجه الشك بل تحقيق لقدر المسافة ، وأنها لا تزيد عن قوسين ألبتة كما قال تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) [الصافات : ١٤٧] . تحقيق لهذا العدد ، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجل واحداً ونظيره قوله : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) [البقرة : ٧٤] . أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة ، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها . وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل « أو » في هذه المواضع بمعنى بل ، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي وقول من جعلها بمعنى الواو فتأمله . انتهى .

فصــل

﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾

ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه ، وأن القلب صدق العين وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به ، فكذب فؤاده بصره ، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك . وفيها قراءتان[1]: إحداهما بتخفيف كذب ؛ والثانية بتشديدها ، يقال كذبته عينه وكذبه قلبه وكذبه جسده ، إذا أخلف ما ظنه وحدسه . قال الشاعر :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

أي أرتك ما لا حقيقة له ، فنفى هذا عن رسوله ، وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه ، و (ما) إما أن تكون مصدرية ، فيكون المعنى : ما كذب فؤاده رؤيته ، وإما أن تكون موصولة ، فيكون المعنى : ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه . وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر ، وتوافقهما ، وتصديق كل منهما لصاحبه . وهذا ظاهر جداً في قراءة التشديد . وقد استشكلها طائفة منهم المبرد ، وقال : في هذه القراءة بعد . قال : لأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه أيضاً بقلبه ، وإذا وقع العلم فلا كذب معه . فإنه إذا كان الشيء في القلب معلوماً ، فكيف يكون معه تكذيب ؟

قلت : وجواب هذا من وجهين :

أحدهما : أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذبه قلبه ، إذ يريه صورة المعلوم على خلاف ما هي عليه ، كما تكذبه عينه ، فيقال : كذبه قلبه ، وكذبه ظنه ، وكذبته عينه . فنفى سبحانه ذلك عن رسوله ، وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه . كمن رأى الشيء على حقيقة ما هو به . فإنه يصح أن يقال : لم تكذبه عينه .

(١) قال ابن مجاهد : « قرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان : (ما كَذَبَ) خفيفة ، وفي هشام بن عمار : (ما كَذَّب) مشددة . وقرأ الباقون : (مَا كَذَبَ) مخففة الذال » .
انظر كتاب السبعة في القراءات ص (٦١٤) .

الثاني : أن يكون الضمير في (رأى) عائداً إلى الرأي لا إلى الفؤاد ، ويكون المعنى : ما كذب الفؤاد ما رآه البصر . وهذا بحمد الله لا إشكال فيه والمعنى ما كذب الفؤاد ما رآه البصر ، بل صدقه . وعلى القراءتين فالمعنى : ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير ، ولا اتهم بصره .

ثم أنكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه ، كما ينكر على الجاهل مكابرته للعالم ومماراته له على ما علمه وفيها قراءتان ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ ﴾ [النجم:١٢] و (أَفَتَمْرُونَهُ) وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع ، يقول : مريت الرجل حقه إذا جحدته كما قال الشاعر :

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة　　لقد مريت أخا ما كان يمريكا

ومنه المماراة ، وهي المجادلة والمكابرة . ولهذا عدي هذا الفعل بعلى وهي على بابها ، وليست بمعنى عن كما قاله المبرد ، بل الفعل متضمن معنى المكابرة . وهذا في قراءة الألف أظهر ، ورجح أبو عبيدة : قراءة من قرأ (أفتمرونه) [النجم : ١٢][1] . قال : وذلك أن المشركين إنما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي ، وهذا كان أكثر من المماراة منهم ، يعني أن من قرأ ﴿ **أفتمارونه** ﴾ فمعناه أفتجادلونه ؟ ومن قرأ (أفتمرونه) معناه أفتجحدونه ؟ وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم، وكان أكثر من مجادلتهم له ، وخالفه أبو علي وغيره ، واختاروا قراءة ﴿ **أفتمارونه** ﴾ قال أبو علي : من قرأ ﴿ **أفتمارونه** ﴾ فمعناه أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده ؟ ويقوي هذا الوجه قوله تعالى (يجادلونك في الحق بعد ما تبين) [الأنفال : ٦] . ومن قرأ (أفتمرونه) كان المعنى أفتجحدونه . قال : والمجادلة كأنها أشبه في هذا ، لأن الجحود كان منهم في هذا وغيره . وقد جادله المشركون في الإسراء .

قلت : القوم جمعوا بين الجدال والدفع والإنكار . فكان جدالهم جدال جحود ودفع لا جدال استرشاد وتبين للحق ، وإثبات الألف يدل على المجادلة .

---

(١) قرأ حمزة والكسائي : (أَفَتَمْرُونَهُ) بفتح التاء بغير ألف، وقرأ الباقون: (أَفَتُمَارُونَهُ) بضم التاء وألف. المصدر السابق .

والإتيان بعلى يدل على المكابرة ؛ فكانت قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعاً ، فهي أولى . وبالله التوفيق .

فصل

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى : فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى ، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى . وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ قال : أخبرني ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح[1] وفي الصحيحين أيضاً عن عبد الله بن مسعود ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ قال : رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح[2] وقال البخاري ، عنه : رأى رفرفا أخضر يسد الأفق[3] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى** ﴾ قال : رأى جبريل عليه السلام[4] وفي صحيحه أيضاً عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . قال : وكنت متكئا فجلست . فقلت : ياأم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ؛ ألم يقل الله عز وجل (ولقد رآه بالأفق المبين) [التكوير:٢٣] ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: « إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطا من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض»، فقالت : أو لم تسمع

(١) رواه البخاري (٨ / ٤٧٦) تفسير سورة النجم ، باب : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ .
(٢) رواه البخاري (٨ / ٤٧٦) باب: ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ من سورة النجم .
ومسلم (١ / ٤١٥) في الإيمان ، باب : معنى قول الله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾.
(٣) رواه البخاري (٨ / ٤٧٧) باب : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ من سورة النجم .
(٤) صحيح مسلم (١ / ٤١٧) في الإيمان ، باب : إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى .

أن الله عز وجل يقول:(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) [الأنعام : ١٠٣] . أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم) [الشورى : ٥١] . قالت : ومن زعم أن محمداً كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية . والله عز وجل يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) [المائدة : ٦٧] . قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله عز وجل يقول (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) [النمل : ٦٥] . ولو كان محمد كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)[1] [الأحزاب : ٣٧] .

وفي الصحيحين عن مسروق أيضاً قال : سألت عائشة رضي الله عنها ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : سبحان الله ! لقد قف شعري مما قلت[2] .

وفيهما أيضا قال : قلت لعائشة : فأين قوله عز وجل﴿ **ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ قالت : إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال . وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فسد الأفق[3] .

وفي صحيح مسلم أن أبا ذر سأله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال « نور . أنى أراه »[4] وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور . لو كشفه لأحرقت

(١) صحيح مسلم (١ / ٤١٩) المصدر الفائت .

(٢) صحيح مسلم (١ / ٤٢١) المصدر نفسه .

والبخاري (٨ / ٤٧٢) في أول أبواب سورة النجم .

(٣) صحيح مسلم (١ / ٤٢١) في الإيمان ، باب : إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى .

(٤) المصدر نفسه .

سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[١] وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له . ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح حديث الرؤية يوم القيامة « فيكشف الحجاب . فينظرون إليه » فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه ، وهو لو كشف لم يقم له شيء ، كما قال ابن عباس في قوله عز وجل (لا تدركه الأبصار) قال : ذاك نوره الذي هو نوره ، إذا تجلى به لم يقم له شيء . وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أن قوله (لا تدركه الأبصار) على عمومه وإطلاقه في الدنيا والآخرة ولا يلزم من ذلك أن لا يرى ، بل يرى في الآخرة بالأبصار من غير إدراك وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هي عليه ، وإن رأتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق ، فالتفاوت الذي بين أبصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم ، ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء منه تجلى الرب تساقى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي وفي الحديث الصحيح المرفوع «جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما ؛ وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه ، في جنة عدن »[٢] فهذا يدل على أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات ، ولا يمنع من أصل الرؤية ، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق . وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات ، لا تفارق ذات الرب جل جلاله . ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه . وتكفي هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق الموقن . وأما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال .

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) مر برقم (١) من سورة (فاطر) (٣/٤٥٦) .

وأما قول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين[١] ، فالظاهر أن مستنده هذه الآية . وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي[٢] الإجماع على ما قالته عائشة فقال – في نقضه على بشر المريسي – في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت ربي البارحة في أحسن صورة »[٣] فحكى تأويل المريسي الباطل ، ثم قال : ويلك إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه ، أما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث أبي ذر « إنه لم ير ربه »[٤] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تروا ربكم حتى تموتوا »[٥] وقالت عائشة رضي الله عنها : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم

---

(١) رواه الترمذي (٥ / ٣٦٨) في التفسير ، سورة النجم وقال : « حسن غريب » .

(٢) عثمان بن سعيد الدارمي ، الإمام ، العلامة ، الحافظ ، الناقد ، صاحب « المسند » الكبير والتصانيف ، انظر ترجمته في السير (١٣ / ٣١٩) .
وأما بشر المريسي فكان متكلماً بارعاً ، وكان من الفقهاء ، أخذ عن القاضي أبي يوسف ، وروى عن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة .
نظر في الكلام فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرد القول بخلق القرآن، ودعا إليه، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم، فمقته أهل العلم وكفره عدة. انظر السير (١٩٩/١٠).
وكتاب الإمام الدارمي ، مطبوع سنة ١٣٥٨ هـ في مطبعة السنة المحمدية ، وهو كتاب جيد، كان أجود لو أمسك عن بعض ما ذكره من صفات لم ترد في الكتاب والسنة كما نبه العلماء .

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١ / ٣١٧) برقم (٩٣٨) قال الهيثمي : « فيه عبد الله بن إبراهيم بن الحسين عن أبيه ولم أر من ترجمهما » مجمع الزوائد (١ / ٢٣٧) .
ولكن هذا المعنى صح من طرق أخرى كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى .

(٤) حديث أبي ذر رواه مسلم (١ / ٤٢٢) في الإيمان ، باب : إثبات رؤية الله تعالى .
والترمذي (٥ / ٣٦٩) في التفسير ، باب : ومن سورة النجم .
ولفظه : « نور أنى أراه » فهو نفى رؤيته لله تعالى .

(٥) حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه (٥ / ٣٢٤) وأوله: «إني قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا .. » .
ورواه أبو داود (الصحيح) (٣ / ٨١٤) في الملاحم ، باب : خروج الدجال ، وصححه الألباني .
والحديث عند مسلم (٥ / ٧٧٥) في الفتن ، باب : ذكر ابن صياد .
والترمذي (٤ / ٤٤٠) في الفتن ، باب : ما جاء في الدجال ، من حديث الزهري عن عمر بن ثابت الأنصاري قال : أخبرني بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فذكره ضمن حديث ابن

على الله الفرية . وأجمع المسلمون على ذلك ، مع قول الله (لا تدركه الأبصار) يعنون أبصار أهل الدنيا ، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام ، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك ، وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صليت ما شاء الله من الليل ، ثم وضعت جنبي ، فأتاني ربي في أحسن صورة »[1] فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم . اهـ .

وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الإسراء أم لا على ثلاث روايات :-

إحداها : أنه رآه قال المروذي[2]:قلت لأبي عبد الله يقولون : إن عائشة قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، فبأي شيء يدفع

عمر عن ابن صياد وقال: حسن صحيح و «عمر بن ثابت» من ثقات التابعين ، أخطأ من عدَّه في الصحابة ، روى عن أبي أيوب وعن بعض الصحابة حديث الدجال وعن عائشة. التهذيب (٧ / ٤٣٠) .
ورواه الإمام أحمد (٥ / ٤٣٣) .
وانظر تحفة الأشراف (٥ / ٤٠٦) و (١١ / ١٩٢) . والله أعلم .

(١) حديث صحيح .
رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥ / ٢٤٣) .
والترمذي (٥ / ٣٤٣) في التفسير باب : سورة ص .
وقال : « هذا حديث صحيح ، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث ، فقال : حديث حسن صحيح ... » .
وللحافظ ابن رجب رسالة « اختيار الأولى ... » في شرح الحديث .
وانظر ظلال الجنة للألباني (١ / ١٦٩ - ١٧٠) . والإرواء (٣ / ١٤٧) .

(٢) في المطبوع « المروزي » وهو خطأ والصواب ما أثبته لأن « المروذي » هنا هو « أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبد العزيز أبو بكر المروذي» نسبة إلى « مرو الرُّوذ » فيقال نسبة إليها: « المَرْوَذ الرُّوذي » ويخفف فيقال : « المروذي » ، كما في الأنساب للسمعاني (٥ / ٢٦٢) .
والإمام أبو بكر المروذي من أجل أصحاب سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، صدر الذهبي ترجمته بقوله: « الإمام ، القدوة ، الفقيه ، المحدث ، شيخ الإسلام ، .. » السير (١٣ / ١٧٣) .
وكلامه هذا ذكره عنه الخلال في كتابه « السنة » وانظر فتح الباري (٧ / ٤٧٥) في التفسير ، أول سورة النجم . والسير (١٤ / ٢٩٧) .
أما « المروزي » - بالزاي - فهو نسبة إلى « مرو الشاهجان » انظر في معناها الأنساب (٥ / ٢٦٥) .

قول عائشة ؟ فقال : بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « رأيت ربي » قول النبي صلى الله عليه وسلم أكبر من قولها .

قال : وذكر المروذي في موضع آخر : أنه قال لأبي عبد الله ها هنا رجل يقول : إن الله يرى في الآخرة ، ولا أقول إن محمداً رأى ربه في الدنيا . فغضب وقال : هذا أهل أن يجفى يسلم الخبر كما جاء . قال : فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين .

ونقل حنبل قال : قلت لأبي عبد الله : النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه رؤيا حلم بقلبه ؟ قال : فظاهر هذا نفي الرؤية . وكذلك نقل الأثرم وقد سأله عن حديث عبد الرحمن بن عائش[1] عن النبي صلى الله عليه وسلم «رأيت ربي في أحسن صورة » فقال : معمر مضطرب ؛ لأن معمراً رواه عن أيوب عن معبد عن عبد الرحمن بن عائش عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس ، ورواه يوسف بن عطية عن قتادة عن أنس ، ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبد الرحمن بن عائش عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ورواه يحيى بن أبي كثير فقال : عن ابن عائش عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم . وأصل الحديث واحد ، قال الأثرم . فقلت لأبي عبد الله : فإلى أي شيء تذهب ؟ فقال : قال الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه بقلبه . ونقل الأثرم أن رجلا قال لأحمد عن الحسين الأشيب أنه قال: لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ربه تعالى . فأنكره عليه إنسان وقال : لم تقول رآه ، ولا تقول : بعينه ولا بقلبه ؟ كما جاء الحديث . فاستحسن ذلك الأشيب ، فقال أبو عبد الله : حسن . قال : وظاهر هذا إثبات رؤية لا يعقل معناها ، هل

---

(١) وقع في المطبوعة « عبد الرحمن بن عابس » وهو تصحيف ، والصواب ما أثبته . وعبد الرحمن بن عائش مختلف في صحبته وحديثه رواه الإمام أحمد (٤ / ٦٦) و (٥ / ٣٧٨) ورواه الدارمي (٢ / ٥١) وغيرهما .
وانظر تخريجه مفصلاً ممتعاً في الإصابة (٦ / ٢٩١) لإمام هذا العلم وجبل هذا الشأن العلامة ابن حجر رحمه الله تعالى .

كانت بعينه أم بقلبه ؟ فهذه نصوص أحمد . وقد جعلها القاضي مختلفة وجعل المسألة على ثلاث روايات ، ثم احتج للرواية الأولى بحديث أم الطفيل ، وحديث عبد الرحمن بن عابس الحضرمي ، ولا دلالة فيهما . لأنها رؤية منام فقط . واحتج لها بما لا يرضى أحمد أن يحتج به ، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعاً « لما كانت ليلة أسري بي رأيت ربي في أحسن صورة ، فقال فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ »[1] وذكر الحديث ، وهذا غلط قطعاً فإن القصة إنما كانت بالمدينة كما قال معاذ بن جبل : احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس ، ثم خرج فصلى بنا ثم قال : « رأيت ربي البارحة في أحسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ » وذكر الحديث . فهذا كان بالمدينة والإسراء كان بمكة . وليس عن الإمام أحمد ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم نص أنه رآه بعينه يقظة ، وإنما حمل القاضي كلام أحمد ما لا يحتمله ، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه ، وكلام أحمد يصدق بعضه بعضاً ، والمسألة رواية واحدة عنه ، فإنه لم يقل بعينه ، وإنما قال رآه ، واتبع في ذلك قول ابن عباس رأى محمد ربه ، ولفظ الحديث « رأيت ربي » وهو مطلق وقد جاء بيانه في الحديث الآخر .

ولكن في رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي صلى الله عليه وسلم إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة ، وهي لم تنكر رؤية المنام ، ولم تقل : من زعم أن محمداً رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية . وهذا يدل على أحد أمرين إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية إذ هو مخالفته للحديث ، وإما أن يكون رواية عنه بإثبات الرؤية ، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه ، وهذا تقييد منه للرؤية وأطلق أنه رآه ، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال رآه، ولا يقول بعينه ولا بقلبه . وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة . وكيف يقول أحمد رآه بعيني رأسه يقظة ولم يجيء ذلك في حديث قط . فأحمد إنما اتبع ألفاظ الحديث كما جاءت وإنكاره قول من قال لم يره أصلا لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه . والله أعلم .

---

(١) رواه الخطيب في تاريخه (١٥١/٨) وفيه عبد الرحمن بن دُلَيْل، صدوق .

فصـــل

وقوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] . قال ابن عباس : ما زاغ البصر يميناً ولا شمالاً ، ولا جاوز ما أمر به . وعلى هذا المفسرون ، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء ، من التفاته يميناً و شمالا ، ومجاوزة بصره لما بين يديه ، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام ، وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانباً ، ولم يمد بصره إلى غير ما رأى من الآيات ، وما هناك من العجائب ، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أري ، دون التفاته إلى غيره ، ودون تطلعه إلى ما لم يره ، مع ما في ذلك من ثبات الجأش ، وسكون القلب ، وطمأنينته . وهذا غاية الكمال . وزيغ البصر التفاته جانباً ، وطغيانه مده أمامه إلى حيث ينتهي ، فنزه في هذه السورة علمه عن الضلال ، وقصده وعمله عن الغي ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيغ والطغيان ، وهكذا يكون المدح .

تلك المكارم لاقعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

فصـــل

ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى استطرد منها ، وذكر أن جنة المأوى عندها ، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى ، وهذا من أحسن الاستطراد ، وهو أسلوب لطيف جداً في القرآن وهو نوعان :

أحدهما : أن يستطرد من الشيء إلى لازمه ، مثل هذا ومثل قوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) [الزخرف : ٩] . ثم استطرد من جوابهم إلى قوله (الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك

تخرجون والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره) [الزخرف : ١٠-١٣] . وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له ، وإقامة الحجة عليهم . ومثله قوله تعالى : (فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) [طه : ٤٩-٥٢] . فهذا جواب موسى . ثم استطرد سبحانه منه إلى قوله : (الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء مآء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) [طه : ٥٣-٥٥] . ثم عاد إلى الكلام الذي استطرد منه .

والنوع الثاني : أن يستطرد من الشخص إلى النوع كقوله : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) [المؤمنون : ١٢-١٣] . إلى آخره . فالأول آدم ، والثاني بنوه . ومثله قوله : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما) [الأعراف : ١٨٩-١٩٠] . إلى آخر الآيات ، فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما . والله أعلم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ [النجم : ٥-٦] .

وهو جبريل عليه الصلاة والسلام . والمِرَّة: المنظر البهي الجميل فأعطاه كمال القوة في باطنه ، وجمال المنظر في ظاهره[٢] .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٨-٩] .

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٤٢ -٢٦٤) .
(٢) الصواعق المرسلة (١٣٧٧/٤) .

آيس العقول ، فقطع البحث بقوله ﴿ **أو أدنى** ﴾ .

كأن الشيخ[1] فهم من الآية : أن الذي دنى فتدلى . فكان من محمد صلى الله عليه وسلم – قاب قوسين أو أدنى : هو الله عز وجل وهذا – وإن قاله جماعة من المفسرين – فالصحيح : أن ذلك هو جبريل عليه الصلاة والسلام فهو الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) [النجم : ١٣،١٤] . هكذا فسره النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح قالت عائشة رضي الله عنها « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال : جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين »[2] ولفظ القرآن لا يدل على ذاك غير ذلك من وجوه :

أحدها : أنه قال:(علمه شديد القوى) وهذا جبريل الذي وصفه الله بالقوة في سورة التكوير فقال (إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين) [التكوير : ١٩-٢٠] .

الثاني : أنه قال:(ذو مرة) أي حسن الخلق ، وهو الكريم المذكور في التكوير .

الثالث : أنه قال:(فاستوى وهو بالأفق الأعلى) وهو ناحية السماء العليا . وهذا استواء جبريل بالأفق الأعلى وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه .

الرابع : أنه قال : ﴿ **ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ فهذا دنو جبريل وتدليه إلى الأرض حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما الدنو والتدلى في حديث المعراج فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان فوق السموات فهناك دنى الجبار جل جلاله منه وتدلى . فالدنو والتدلى في الحديث : غير الدنو والتدلي في الآية وإن اتفقا في اللفظ .

---

(١) أي الإمام الهروي رحمه الله تعالى في كلامه عن منزلة «الاتصال» .

(٢) رواه مسلم (١ / ٤١٩) في الإيمان ، باب : إثبات رؤية الله تعالى .
وروا الترمذي (٥ / ٢٤٥) في التفسير ، باب : ومن سورة الأنعام .
وهو عند البخاري مختصراً (٨ / ٤٧٢) في التفسير ، باب : سورة النجم .

الخامس : أنه قال : (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) [النجم : ١٣-١٤] والمرئي عند السدرة : هو جبريل قطعاً وبهذا فسره النبي صلى الله عليه وسلم . فقال لعائشة : « ذاك جبريل » .

السادس : أن مفسر الضمير في قوله:(ولقد رآه) وفي قوله ﴿ ثم دنى فتدلى ﴾ وفي قوله (فاستوى) وفي قوله (وهو بالأفق الأعلى) واحد . فلا يجوز أن يخالف بين المفسر والمفسَّر غير دليل .

السابع : أنه سبحانه ذكر في هذه السورة الرسولين الكريمين : الملكي ، والبشري ونزه البشري عن الضلال والغواية ، ونزه الملكي عن أن يكون شيطاناً قبيحاً ضعيفاً . بل هو قوي كريم حسن الخلق وهذا نظير الوصف المذكور في سورة التكوير سواء .

الثامن : أنه أخبر هناك : أنه (رآه بالأفق المبين) وها هنا أخبر أنه رآه (بالأفق الأعلى) وهو واحد وصف بصفتين . فهو (مبين) وهو (أعلى) فإن الشيء كلما علا : بان ظهر .

التاسع : أنه قال:(ذو مرة) و (المرة) الخلق الحسن المحكم فأخبر عن حسن خلق الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم . ثم ساق الخبر كله عنه نسقاً واحداً .

العاشر : أنه لو كان خبراً عن الرب تعالى لكان القرآن قد دل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه سبحانه مرتين : مرة بالأفق ، ومرة عند السدرة ومعلوم أن الأمر لو كان كذلك لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر وقد سأله « هل رأيت ربك ؟ » فقال: « نور . أنى أراه »[1] فكيف يخبر القرآن أنه رآه مرتين ثم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنى أراه » وهذا أبلغ من قوله : لم أره لأنه – مع النفي – يقتضي الإخبار عن عدم الرؤية فقط ،

---

(١) مر قريباً .

وهذا يتضمن النفي ، وطرفا من الإنكار على السائل . كما إذ قال لرجل : هل كان كيت وكيت ؟ فيقول : كيف يكون ذلك ؟ .

الحادي عشر : أنه لم يتقدم للرب – جل جلاله – ذكر يعود الضمير عليه في قوله : ﴿ **ثم دنى فتدلى** ﴾ والذي يعود الضمير عليه : لا يصلح له وإنما هو لعبده .

الثاني عشر : أنه كيف يعود الضمير إلى ما لم يذكر . ويترك عوده إلى المذكور ، مع كونه أولى به ؟

الثالث عشر : أنه قد تقدم ذكر (صاحبكم) وأعاد عليه الضمائر التي تليق به ثم ذكر بعده « شديد القوى ذو المرة » وأعاد عليه الضمائر التي تليق به .

والخبر كله عن هذين المفسرين . وهما الرسول الملكي والرسول البشري .

الرابع عشر : أنه سبحانه أخبر : أن هذا الذي دنى فتدلى ؛ كان بالأفق الأعلى وهو أفق السماء بل هو تحتها قد دنى من رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم ودنو الرب تعالى وتدليه – على ما في حديث شريك[1] – كان من فوق العرش لا إلى الأرض .

الخامس عشر : أنهم لم يماروه – صلوات الله وسلامه عليه – على رؤية ربه . ولا أخبرهم بها ، لتقع مماراتهم له عليها وإنما ماروه على رؤية ما أخبرهم من الآيات التي أراه الله إياها . ولو أخبرهم الرب تعالى لكانت مماراتهم له عليها أعظم من مماراتهم على رؤية المخلوقات .

السادس عشر : أنه سبحانه قرر صحة ما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم وأن مماراتهم له على ذلك باطلة بقوله ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ فلو كان المرئى هو الرب سبحانه وتعالى ، والمماراة على ذلك منهم : لكان تقدير تلك الرؤية أولى ، والمقام إليها أحوج ، والله أعلم قوله « آيس العقول » بقوله :

(١) حديث شريك عن أنس رضي الله عنه . رواه البخاري (١٣ / ٤٨٦) في التوحيد، باب: ما جاء في قوله عز وجل: ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ .

﴿ أو أدنى ﴾ يعني : أن العقول لا تقدر أن تثبت على معرفة اتصال هو أدنى من قاب قوسين . وهذا بناء على ما فهمه من الآية ، وإلا فالعقول غير آيسة من دنو رسوله الملكي من رسوله البشري حتى صار في القرب منه قاب قوسين أو أدنى من قوسين فإنه دنو عبد من عبد ، ومخلوق من مخلوق .

يبقى أن يقال : فما فائدة ذكر « أو » ؟ فيقال : هي لتقرير المذكور قبلها ، وأن القرب إن لم ينقص عن قدر قوسين لم يزد عليهما . وهذا كقوله (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) والمعنى : أنهم إن لم يزيدوا على المائة الألف لم ينقصوا عنها . فهو تقرير لنصية عدد المائة الألف . فتأمله(1) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم : ٨] .

فهو غير الدنو والتدلي في قصة الإسراء ، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه ، كما قالت عائشة وابن مسعود ، والسياق يدل عليه فإنه قال : (علمه شديد القوى) [النجم : ٥] . وهو جبريل (ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنى فتدلى) [النجم : ٦-٨] . فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوي وهو ذو المرة أي : القوة . وهو الذي استوى بالأفق الأعلى وهو الذي دنى فتدلى فكان من محمد صلى الله عليه وسلم قدر قوسين أو أدنى فأما الدنو والتدلي الذي في سورة الإسراء فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتدليه ولا تعرض في (سورة النجم) لذلك ، بل فيها أنه رآه نزلةً أخرى عند سدرة المنتهى وهذا هو جبريل ، رآه محمد صلى الله عليه وسلم على صورته مرتين : مرة في الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . والله أعلم(2) .

---

(1) مدارج السالكين (٣/٣١٩-٣٢٣) .
(2) زاد المعاد (٣/٣٨) .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] .

وجه احتجاجه[١] بإشارة الآية : أن الله سبحانه كشف لعبده صلى الله عليه وسلم ما لم يكشفه لغيره ، وأطلعه على ما لم يطلع عليه غيره . فحصل لقلبه الكريم من انكشاف الحقائق التي لا تخطر ببال غيره ما خصه الله به . و « الإيحاء » هو الإعلام السريع الخفي ومنه « الوحا ، الوحا » أي الإسراع الإسراع .

قوله : ﴿ **ما أوحى** ﴾ أبهمه لعظمه . فإن الإبهام قد يقع للتعظيم ، ونظيره قوله تعالى (فغشيهم من اليم ما غشيهم) [طه : ٧٨] . أي أمر عظيم فوق الصفة[٢] .

قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٣-١٥] .

وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء وسميت بذلك لأنها ينتهي إليها ما ينزل من عند الله فيقبض منها وما يصعد إليه فيقبض منها[٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٥] .

والمأوى مفعل من أوى يأوي إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به .

وقال عطاء عن ابن عباس : هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة .

وقال مقاتل والكلبي : هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء وقال كعب : جنة المأوى جنة فيها طير خضر ترتع فيها أرواح الشهداء . وقالت عائشة رضي الله عنها وزر بن حبيش : هي جنة من الجنان .

---

(١) أي الهروي رحمه الله تعالى في كلامه عن منزلة «المكاشفة» .
(٢) مدارج السالكين (٣/٢٢١) .
(٣) حادي الأرواح (٦١) .

والصحيح أنه اسم من أسماء الجنة كما قال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) [النازعات : ٤٠-٤١] .

وقال في النار (فإن الجحيم هي المأوى) [النازعات : ٣٩] . وقال (ومأواكم النار) [العنكبوت : ٢٥][1] .

قول الله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] .

وجرت عادة القوم : أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، حين أراه ما أراه (ما زاغ البصر وما طغى) وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية . وكذلك غيره .

وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير : إن هذا وصف لأدبه صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام . إذ لم يلتفت جانباً . ولا تجاوز ما رآه . وهذا كمال الأدب والإخلال به : أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله ، أو يتطلع أمام المنظور . فالالتفات زيغ . والتطلع إلى ما أمام المنظور : طغيان ومجاوزة فكمال إقبال الناظر على المنظور : أن لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ولا يتجاوزه .

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – وفي هذه الآية أسرار عجيبة . وهي من غوامض الأدب اللائقة بأكمل البشر صلى الله عليه وسلم : تواطأ هناك بصره وبصيرته ، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره .

فالبصيرة مواطئة له . وما شاهدته بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر . فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة ولهذا قال سبحانه وتعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى) [النجم : ١١-١٢] . أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره .

---

(١) حادي الأرواح (٨٦-٨٧) .

ولهذا قرأها أبو جعفر (ما كَذَّبَ الفؤاد ما رأى) بتشديد الذال – أي لم يكذب الفؤاد البصر ، بل صدقه وواطأه ؛ لصحة الفؤاد والبصر أو استقامة البصيرة والبصر . وكون المرئيّ المشاهد بالبصر والبصيرة حقاً . وقرأ الجمهور « ما كَذَبَ الفؤاد » بالتخفيف[1] . وهو متعد . وما « رأى » مفعوله : أي ما كذب قلبه ما رأته عيناه . بل واطأه ووافقه . فلمواطأة قلبه لقالبه ، وظاهره لباطنه ، وبصره لبصيرته : لم يكذب الفؤاد البصر . ولم يتجاوز البصر حده فيطغى ولم يمل عن المرئيّ فيزيغ ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئيّ . ما جاوزه ولا مال عنه . كما اعتدل القلب في الإقبال على الله والإعراض عما سواه . فإنه أقبل على الله بكليته . وللقلب زيغ وطغيان ، كما للبصر زيغ وطغيان . وكلاهما منتف عن قلبه وبصره . فلم يزغ قلبه التفاتا عن الله إلى غيره . ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه .

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه فإن عادة النفوس ، إذا أقيمت في مقام عال رفيع : أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه . ألا ترى أن موسى – صلى الله عليه وسلم – لما أقيم في مقام التكليم : المناجاة : طلبت نفسه الرؤية و نبينا صلى الله عليه وسلم لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه : فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبتة ؟ . ولأجل هذا ما عاقه عائق ، ولا وقف به مراد حتى جاوز السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه وقال « يقول بنو إسرائيل : إني كريم الخلق على الله وهذا قد جاوزني وخلفني علواً . فلو أنه وحده ؟ ولكن معه كل أمته » وفي رواية للبخاري[2] « فلما جاوزته بكى . قيل : ما يبكيك ؟ قال : أبكي أن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي » ثم جاوزه علواً فلم تعقه إرادة . ولم تقف به دون كمال العبودية همة .

---

(١) انظر « كتاب السبعة في القراءات » لابن مجاهد (٦١٤) .

(٢) رواه البخاري (٧ / ٢٤١) في مناقب الأنصار ، باب : المعراج .

و (١٣ / ٤٨٦) في التوحيد ، باب : ما جاء في قوله عز وجل: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾.

وانظر تفسير ابن كثير أول سورة الإسراء من الجزء الثالث. والدر المنثور نفس السورة أول الجزء الخامس.

ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوة الطرف . فيضع قدمه عند منتهى طرفه ، مشاكلاً لحال راكبه ، وبعد شأوه الذي سبق العالم أجمع في سيره ، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره ، كما كان قدمه صلى الله عليه وسلم لا يتأخر عن محل معرفته .

فلم يزل صلى الله عليه وسلم في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه وتكميل مراتب عبوديته له ، حتى خرق حجب السموات وجاوز السبع طباق . وجاوز سدرة المنتهى ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين . فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصباباً ، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً ، وأقيم مقاماً غبطه به الأنبياء والمرسلون . فإذا كان في المعاد أقيم مقاماً من القرب ثانياً ، يغبطه به الأولون والآخرون واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله ما زاغ البصر عنه وما طغى . فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى . وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم فقال تعالى (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم) [يس : ١-٤] . فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته ، حتى يجوزوه إلى جنات النعيم . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

فـ ﴿**ما ضل**﴾ : دليل على كمال علمه ومعرفته وأنه على الحق المبين ، ﴿ **وما غوى** ﴾ : دليل على كمال رشده وأنه أبر العالمين فهو الكامل في علمه وفي عمله وقد وصف صلى الله عليه وسلم بذلك خلفاءه من بعده وأمر باتباعهم على سنتهم فقال « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » رواه الترمذي . وغيره فالراشد ضد الغاوي والمهدي ضد الضال[2] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/٣٨٢-٣٨٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٣-٤٤) .

قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٣] .

فالظن الشبهة ، وما تهوى الأنفس : الشهوة ، والهدي الذي جاءنا من ربنا مخالف لهذا ، وهذا[١] .

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] .

وهي الصغائر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة رضي الله عنه : « إن العين تزني وزناها النظر واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والفم يزني وزناه القبل »[٢] . ومنه ألم بكذا أي قاربه ودنا منه وغلام ملم أي قارب البلوغ وفي الحديث « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »[٣] أي يقرب من ذلك ، وبالجملة فلا يستبين كون اللمم من أسماء الحب وإن كان قد ذكره جماعة إلا أن يقال : إن المحبوب قد ألم بقلب المحب ، أي نزل به ، ومنه ألمم بنا ، أي انزل بنا ، ومنه قوله :

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا[٤]

وقال رحمه الله تعالى :

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان – مكفرات لما بينهن ، إذا اجتنبت الكبائر »[٥] .

---

(١) الكلام في مسألة السماع (١٧٢) .

(٢) رواه البخاري في القدر (١١ / ٥١١) باب : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها ﴾ .
ومسلم (٥ / ٥١٢) في القدر ، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره ورواه غيرهما .

(٣) رواه البخاري (٦ / ٥٧) في الجهاد والسير ، باب : فضل النفقة في سبيل الله .
ومسلم (٣ / ٨٨) في الزكاة ، باب : كراهة الحرص على الدنيا. ورواه غيرهما.

(٤) روضة المحبين (٥٣) .

(٥) رواه مسلم (١ / ٥١٦) في الطهارة ، باب : فضل الوضوء والصلاة عقبه .

وأما ما يحكى عن أبي إسحاق الاسفرائيني أنه قال : الذنوب كلها كبائر ، وليس فيها صغائر . فليس مراده : أنها مستوية في الإثم ، بحيث يكون إثم النظر المحرم كإثم الوطء من الحرام ، وإنما المراد : أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصِيَ بها كلها كبائر ، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض ، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى .

والذي جاء في لفظ الشارع ، تسمية ذلك « لمماً » و « محقرات » كما في الحديث « إياكم ومحقرات الذنوب »[1] وقد قيل : إن « اللمم » المذكور في الآية من الكبائر حكاه البغوي[2] وغيره .

قالوا : ومعنى الاستثناء : أن يلم بالكبيرة مرة ثم يتوب منها ويقع فيها ثم ينتهي عنها لا يتخذها دأبه وعلى هذا يكون استثناء « اللمم » من الاجتناب إذ معناه : لا يصدر منهم ، ولا تقع منهم الكبائر إلا لمماً .

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر وهو منقطع أي لكن يقع منهم اللمم .

---

(١) حديث صحيح .
رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن سهل بن سعد رضي الله عنه (٥ / ٣٣١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ١٩٠): « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة » .
وهو عند الطبراني في الكبير (٦ / ١٦٥) .
وقال ابن حجر «إسناده حسن» فتح الباري (١١ / ٣٣٧) في الرقاق ، باب (٣٢) .
ورواه الإمام أحمد (١ / ٤٠٢) .
والطبراني في الكبير (١٠ / ٢٦١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
ورواه أيضاً الإمام أحمد (٦ / ٧٠ و ١٥١) . والدارمي (٢ / ٢١٣) .
وابن ماجه (الصحيح) (٢ / ٤١٦) في الزهد ، باب ذكر الذنوب .
وصححه الألباني ، كما في السلسلة الصحيحة رقم (٣٨٩ و ٥١٣) .

(٢) قال البغوي «اختلفوا في معنى الآية فقال قوم: هذا استثناء صحيح ، واللمم من الكبائر والفواحش ومعنى الآية: إلا أن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب ويقع الوقعة ثم ينتهي » ثم ذكر من قال ذلك من الصحابة رضي الله عنهم (٦ / ٢٦٥) .

وحسن وقوع الانقطاع بعد الإيجاب – والغالب خلافه أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ . إذ في الإيجاب هنا معنى النفي صريحاً . فالمعنى : لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش . فحسن استثناء اللمم . ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق على أن قال « الذنوب كلها كبائر » إذ الأصل في الاستثناء الاتصال ولا سيما وهو من موجب .

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر .

ثم اختلفوا في فصلين :

أحدهما : في « اللمم » ما هو ؟

والثاني : في « الكبائر » وهل لها عدد يحصرها أو حد يحدها ؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين .

فصـــل

فأما « اللمم » فقد روي عن جماعة من السلف : أنه الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه وإن كان كبيراً .

قال البغوي[1] : هذا قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عطاء عن ابن عباس . قال : وقال عبد الله بن عمرو بن العاص « اللمم ما دون الشرك » قال السدي : قال أبو صالح : سئلت عن قول الله عز وجل ﴿ **إلا اللمم** ﴾ فقلت : هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده » فذكرت ذلك لابن عباس فقال « لقد أعانك عليها ملك كريم » .

والجمهور : على أن « اللمم » ما دون الكبائر . وهو أصح الروايتين عن ابن عباس ، كما في صحيح البخاري من حديث طاووس عنه قال : ما رأيت أشبه

---

(١) انظر التعليق الفائت .

باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة . فزنا العين : النظر وزنا اللسان : النطق . والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » رواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة[1] وفيه « والعينان زناهما : النظر والأذنان : زناهما الاستماع واللسان : زناه الكلام . واليد : زناها البطش . والرجل : زناها الخطى » .

وقال الكلبي : « اللمم » على وجهين ؛ كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش .

والوجه الآخر : هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب عنه .

قال سعيد بن المسيب : هو ما ألم بالقلب أي ما خطر عليه . قال الحسين ابن الفضيل : « اللمم » النظر من غير تعمد ، فهو مغفور فإن أعاد النظر فليس بلمم ، وهو ذنب . وقد روى عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما »[2] .

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن « اللمم » ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم . فالله لا يؤاخذهم به ، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين : أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا . فأنزل الله هذه الآية ، وهذا قول زيد بن ثابت وزيد ابن أسلم .

والصحيح : قول الجمهور : أن اللمم صغائر الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك . هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم . وهو قول أبي هريرة

---

(١) مر قريبا .

(٢) رواه الترمذي (٥ / ٣٧٠) في التفسير ، سورة النجم .
وقال : « حسن صحيح غريب .. » وصححه الألباني كما في صحيح الترمذي (٣ / ١١١) .

وعبد الله بن مسعود . وابن عباس ومسروق والشعبي ولا ينافي هذا قول أبي هريرة وابن عباس في الرواية الأخرى « أنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها » فإن « اللمم » إما أنه يتناول هذا وهذا ويكون على وجهين . كما قال الكلبي أو أن أبا هريرة وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ولم يصر عليها ، بل حصلت منه فلتة في عمره – باللمم ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة .

وهذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم وغور علومهم ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث . وإنما يخاف العنت على من اتخذ الذنب عادته وتكرر منه مراراً كثيرة وفي ذلك آثار سلفية ، والاعتبار بالواقع يدل على هذا ويذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه دفع إليه سارق، فأمر بقطع يده فقال: يا أمير المؤمنين والله ما سرقت غير هذه المرة فقال: كذبت فلما قطعت يده قال: اصدقني كم لك بهذه المرة ؟ فقال كذا وكذا مرة ؟ فقال : صدقت إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب . أو كما قال .

فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم فهو من جنسه ونظيره . فالقولان عن أبي هريرة وابن عباس ، متفقان غير مختلفين . والله أعلم .

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حيناً بعد حين . فإنه يقال : ألم بكذا . إذا قاربه ولم يغشه ومن هذا سميت القبلة والغمزة لمماً لأنها تلم بما بعدها ويقال : فلان لا يزورنا إلا لماماً ، أي حيناً بعد حين فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية . وليس معنى الآية « والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم فإنهم لا يجتنبونه » فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم وهذا محال . وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه . فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه . ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ومضمون هذا : أنه لا يكون محسناً مجزياً بإحسانه ، ناجياً من عذاب الله إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش . فحسن حينئذ استثناء اللمم .

وإن لم يدخل في الكبائر . فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش .

وضابط الانقطاع : أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه ، وإن لم يدخل في نفسه . ولم يتناوله لفظه . كقوله تعالى (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) [مريم : ٦٢] . فإن السلام داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام . وكذلك قوله : (لايذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقا) [النبأ : ٢٤] .

فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم فكأنه قيل في الأول : لا يسمعون فيها شيئاً إلا سلاماً .

وفي الثاني : لا يذوقون فيها شيئاً إلا حميماً وغساقاً . ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحاً ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد وكذلك قوله تعالى (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) [النساء : ١٥٦] . فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن وأدق من هذا : دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه كقوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) [النساء : ٢٢] . إذ مفهوم هذا : أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم فإنه عفو وكذلك (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) [النساء : ٢٣] . وإن كان المراد به : ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله فحسن أن يقال (إلا ما قد سلف) .

فتأمل هذا فإنه من فقه العربية[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] .

فقد اختلفت طرق الناس في المراد بالآية . فقالت طائفة[2]: المراد بالإنسان ها هنا الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعي له بالأدلة التي ذكرناها . قالوا

---

(١) مدارج السالكين (٣١٥/١-٣١٩) .

(٢) في الرد على منكري وصول الأعمال من الحي إلى الميت .

وغاية ما في هذا التخصيص وهو جائز إذا دل عليه الدليل .

وهذا الجواب ضعيف جداً ومثل هذا العام لا يراد به الكافر وحده بل هو للمسلم والكافر وهو كالعام الذي قبله وهو قوله تعالى (ألا تزر وازرة وزر أخرى) [النجم : ٣٨]. والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح في إرادة العموم لقوله تعالى ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۞ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم : ٤٠-٤١] . وهذا يعم الشر والخير قطعاً ويتناول البر والفاجر والمؤمن والكافر كقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) [الزلزلة : ٧-٨] . وكقوله له في الحديث الإلهي : « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1] . وهو كقوله تعالى : (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه)[الانشقاق : ٦] .

ولا تغتر بقول كثير من المفسرين في لفظ الإنسان في القرآن ، الإنسان ها هنا أبو جهل والإنسان ها هنا عقبة بن أبي معيط والإنسان ها هنا الوليد بن المغيرة[2] . فالقرآن أجل من ذلك ، بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه كقوله تعالى (إن الإنسان لفي خسر) [العصر : ٢] . و(إن الإنسان لربه لكنود) [العاديات : ٦] . و (إن الإنسان خلق هلوعاً) [المعارج : ١٩] . و (إن الإنسان ليطغى أن رءاه استغنى) [العلق : ٦ -٧] و (إن الإنسان لظلوم كفار) [إبراهيم :٣٤] . و (حملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) [الأحزاب :٧٢] . فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه لا من ذاته فليس له من ذاته إلا هذه الصفات وما به من نعمة فمن الله وحده فهو الذي حبب إلى عبده الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان وهو الذي كتب في قلبه الإيمان .

---

(١) جزء من حديث قدسي أوله : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ... » .
رواه مسلم (٥ / ٤٣٩) في البر والصلة ، باب تحريم الظلم .

(٢) رحم الله ابن القيم ، فهذا هو الحق في تفسير القرآن ، المنزل هداية للعالمين في كل زمان ومكان .

وهو الذي يثبت أنبياءه ورسله وأولياءه على دينه وهو الذي يصرف عنهم السوء والفحشاء . وكان يرتجز بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا[1]

وقد قال تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله) [يونس : ١٠٠] . وقال تعالى (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) [المدثر : ٥٦] . (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) [التكوير : ٢٩] . فهو رب جميع العالم ربوبية شاملة لجميع ما في العالم من ذوات وأفعال وأحوال .

وقالت طائفة : الآية إخبار بشرع من قبلنا وقد دل شرعنا على أنه له ما سعى وما سُعي له . وهذا أيضاً أضعف من الأول أو من جنسه فإن الله سبحانه أخبر بذلك إخبار مقرر له محتج به لا إخبار مبطل له ولهذا قال (أم لم ينبأ بما في صحف موسى) [النجم : ٣٦] . فلو كان هذا باطلا في هذه الشريعة لم يخبر به إخبار مقرر له محتج به .

وقالت طائفة : اللام بمعنى على أي وليس على الإنسان إلا ما سعى . وهذا أبطل من القولين الأولين فإنه قول موضوع الكلام إلى ضد معناه المفهوم منه ولا يسوغ مثل هذا ولا تحتمله اللغة . وأما نحو (لهم اللعنة) [الرعد : ٢٥] فهي على بابها أي نصيبهم وحظهم وأما أن العرب تعرف في لغاتها لي درهم بمعنى علي درهم فكلا .

وقالت طائفة : في الكلام حذف تقديره ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ أو سعي له وهذا أيضاً من النمط الأول فإنه حذف ما لا يدل السياق عليه بوجه وقول على الله وكتابه بلا علم .

---

(١) رواه البخاري (٧ / ٤٦١) في المغازي ، باب : غزوة الخندق .
ومسلم (٤ / ٤٥٢) في الجهاد والسير ، باب : غزوة الأحزاب .
وهو عندهما من حديث البراء بن عازب قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه – أو أغبر بطنه – يقول : فذكره .
وعند مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرجزه أمام النبي صلى الله عليه وسلم .

وقالت طائفة أخرى : الآية منسوخة بقوله تعالى (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) [الطور : ٢١] . وهذا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وهذا ضعيف أيضاً ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس رضي الله عنهما ولا غيره أنها منسوخة والجمع بين الآيتين غير متعذر ولا ممتنع فإن الأبناء تبعوا الآباء في الآخرة كما كانوا تبعاً لهم في الدنيا وهذه التبعية هي من كرامة الآباء وثوابهم الذي نالوه بسعيهم وأما كون الأبناء لحقوا بهم في الدرجة بلا سعي منهم فهذا ليس هو لهم وإنما هو للآباء أقر الله أعينهم بإلحاق ذريتهم بهم في الجنة وتفضل على الأبناء بشيء لم يكن لهم كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين والخلق الذي ينشئهم للجنة بغير أعمال والقوم الذين يدخلهم الجنة بلا خير قدموه ولا عمل عملوه فقوله تعالى : (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) وقوله ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس والعقل والفطرة شاهدان بهما **فالأولى** : تقتضي أنه لا يعاقب بجرم غيره . **والثانية** : تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه ، **فالأولى** : تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا . **والثانية** : تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب ، فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين ونظيره قوله تعالى (من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) [الإسراء :١٥] . فحكم سبحانه لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة :

أحدها : أن هدى العباد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره .

الثاني : أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه على نفسه لا على غيره .

الثالث : أن أحداً لا يؤاخذ بجريرة غيره .

الرابع : أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله .

فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله

وفضله ، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته :

وقالت طائفة أخرى:المراد بالإنسان ها هنا الحي دون الميت وهذا أيضا من النمط الأول في الفساد .

وهذا كله من سوء التصرف في اللفظ العام وصاحب هذا التصرف لا ينفذ تصرفه في دلالات الألفاظ وحملها على خلاف موضوعها وما يتبادر إلى الذهن منها وهو تصرف فاسد قطعاً يبطله السياق والاعتبار وقواعد الشرع وأدلته وعرفه وسبب هذا التصرف السيء أن صاحبه يعتقد قولا ثم يرد كل ما دل على خلافه بأي طريقة اتفقت له ، فالأدلة المخالفة لما اعتقده عنده من باب الصائل لا يبالي بأي شيء دفعه وأدلة الحق لا تتعارض ولا تتناقض بل يصدق بعضها بعضاً .

وقالت طائفة أخرى : وهو جواب أبي الوفاء بن عقيل ، قال : الجواب الجيد عندي أن يقال الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء ، وأولد الأولاد ، ونكح الأزواج وأسدى الخير وتودد إلى الناس فترحموا عليه وأهدوا له العبادات وكان ذلك أثر سعيه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»[1] ويدل عليه قوله في الحديث الآخر «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به من بعده ، وصدقة جارية عليه أو ولد صالح يدعو له »[2] . ومن هنا قول الشافعي إذا بذل له ولده طاعة الحج كان ذلك سبباً لوجوب الحج عليه حتى كأنه في ماله زاد وراحلة بخلاف

---

(١) حديث صحيح .
رواه الترمذي (٣ / ٩٣٩) في الأحكام ، باب : ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده .
وأبو داود (الصحيح) (٦٧٤/٢) في الإجارة، باب: في الرجل يأكل من مال ولده.
وابن ماجه (٥/٢) في التجارات ، باب الحث على المكاسب . ورواه غيرهم .
وانظر الإرواء (٦ / ٦٥) .

(٢) رواه مسلم (٤ / ١٦٧) في الوصية ، باب : ما يلحق الإنسان من بعد وفاته ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه غيره .

بذل الأجنبي وهذا جواب متوسط يحتاج إلى تمام فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى في انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله كما ينتفع بعملهم في الحياة مع عمله فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض في الأعمال التي يشتركون فيها كالصلاة في جماعة فإن كل واحد منهم تضاعف صلاته إلى سبعة وعشرين ضعفاً لمشاركة غيره له في الصلاة فعمل غيره كان سبباً لزيادة أجره كما أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر بل قد قيل : إن الصلاة يضاعف ثوابها بعدد المصلين وكذلك اشتراكهم في الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك بين أصابعه »[1] ومعلوم أن هذا بأمور الدين أولى منه بأمور الدنيا ، فدخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه في حياته وبعد مماته ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم وقد أخبر الله سبحانه عن حملة العرش ومن حوله أنهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم[2] .

وأخبر عن دعاء رسله واستغفارهم للمؤمنين كنوح وإبراهيم ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم . فالعبد بإيمانه قد تسبب إلى وصول هذا الدعاء إليه فكأنه من سعيه .

يوضحه أن الله سبحانه جعل الإيمان سببا لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم ، فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل إليه وقد دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمرو بن العاص « إن أباك لو كان أقر بالتوحيد نفعه ذلك »[3] يعني العتق الذي فعل عنه بعد موته فلو أتى

---

(١) رواه البخاري (١٠ / ٤٦٤) في الأدب ، باب : تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً .
ومسلم (٥ / ٤٤٦) في البر ، باب تراحم المؤمنين . من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم..﴾ الآية (٧: غافر).

(٣) رواه الإمام أحمد (١٠ / ١٧٦) رقم (٦٧٠٤) وقال الهيثمي « رواه أحمد وفيه الحجاج بن أرطأة وهو مدلس » مجمع الزوائد (٤/١٩٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

بالسبب لكان قد سعى في عمل يوصل إليه ثواب العتق . وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً .

وقالت طائفة أخرى : القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وإنما نفى ملكه لغير سعيه وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى . فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه فإن شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ٤٢] .

متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى ، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها ، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب ، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل . وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه فاجتمع ما يراد منه كله في قوله : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) [الحجر : ٢١] . واجتمع ما يراد له في قوله ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ [النجم : ٤٢] . فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى .

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد ، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه ، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره .

وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى .

ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين ، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما يكون إليه .

---

(١) الروح (١٢٥-١٢٩) .

ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد[1] .

قال تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ [النجم : ٥٩-٦١] .

قال عكرمة عن ابن عباس : السمود : الغناء في لغة حمير يقال : اسمدي لنا ، أي غني لنا ، وقال أبو زبيد :

وكأن العزيف فيها غناء للندامى من شارب مَسْمود

قال أبو عبيدة : المسمود : الذي غني له . وقال عكرمة : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا . فنزلت هذه الآية وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية من أن « السمود » الغفلة والسهو عن الشيء . قال المبرد : هو الاشتغال عن الشيء بهم أو فرح يتشاغل به وأنشد :

رمى الحدثان نسوة آل حرب بمقدار سمدن له سمودا

وقال ابن الأنباري : السامد : اللاهي ، والسامد : الساهي . والسامد : المتكبر ، والسامد : القائم .

وقال ابن عباس : في الآية وأنتم مستكبرون وقال الضحاك أشرون بطرون . وقال مجاهد : غضاب مبرطمون . وقال غيره : لاهون غافلون معرضون .

فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه فهذه أربعة عشر اسماً ، سوى اسم الغناء[2] .

---

(١) الفوائد (١٩٦-١٩٧) .

(٢) إغاثة اللهفان (٢٥٨/١) .

وقال رحمه الله تعالى :

قال عكرمة عن ابن عباس إن السمود هو الغناء يقال سمد فلان إذا غنى وقد فسر السمود باللهو ، وفسر بالإعراض ، وفسر بالغفلة ، وفسر بالأشر والبطر .

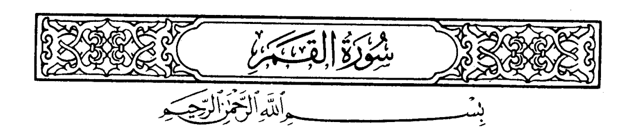
ولا ينافي تفسيره بالغناء فإن الغناء ثمرة ذلك كله فإن الحامل عليه اللهو والغفلة والإعراض والأشر والبطر وذلك كله مناف للعبودية[1] .

* * *

(١) الكلام في مسألة السماع (١١٣-١١٤) .

سُورَةُ القَمَرِ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر : ٣٤] .

المراد به أتباعه المؤمنون به من أقاربه وغيرهم[1] .

قول الله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

قال سفيان عن زياد بن إسماعيل المخزومي ثنا محمد بن عباد بن جعفر ثنا أبو هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاصمون في القدر فنزلت هذه الآية ﴿ **إن المجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ [القمر : ٤٧-٤٩] . رواه مسلم[2]

وقد رواه الدارقطني من حديث حبيب بن عمرو الأنصاري عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين خصماء الله وهم القدرية » . ولكن حبيب هذا قال الدارقطني[3] : مجهول والحديث مضطرب الإسناد ولا يثبت .

---

(١) جلاء الأفهام (١٢٤-١٢٥) .

(٢) رواه مسلم (٥ / ٥١١) في القدر ، باب : كل شيء بقدر .
والترمذي (٥ / ٣٧٢) في التفسير ، باب : سورة القمر .

(٣) لم أقف عليه عند الدارقطني، وإنما رواه الطبراني في الأوسط كما أشار الهيثمي في مجمع الزوائد: (٧/٢٠٦) قال « رواه الطبراني في الأوسط من رواية بقية وهو مدلس وحبيب مجهول » . وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع رقم (٧٦٣) .
وكذلك أشار صاحب كنز العمال أنه رواه الطبراني في الأوسط (١ / ١٢٠) رقم (٥٦٩) .

والمخاصمون في القدر نوعان :

أحدهما : من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره كالذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) [النحل : ٤٨] .

والثاني : من ينكر قضاءه وقدره السابق .

والطائفتان خصماء الله ، قال عوف : من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام إن الله تبارك وتعالى قدر أقداراً وخلق الخلق بقدر وقسم الآجال بقدر ، وقسم الأرزاق بقدر ، وقسم البلاء بقدر ، وقسم العافية بقدر ، وأمر ونهى .

وقال الإمام أحمد : القدر قدرة الله . واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جداً ، وقال : هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين . وهو كما قال أبو الوفاء ، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها .

وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق سلف على تكفيرهم وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله وفي تفسير على بن أبي طلحة عن ابن عباس ، في قوله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر : ٢٨] .

قال : الذين يقولون[1] إن الله على كل شيء قدير .

وهذا من فقه ابن عباس وعلمه بالتأويل ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات. فإن أكثر أهل الكلام لا يوفون هذه الجملة حقها ولو كانوا يقرون بها فمنكروا القدر وخلق أفعال العباد لا يقرون بها على وجهها ومنكرو أفعال الرب القائمة به لا يقرون بها على وجهها بل يصرحون أنه لا يقدر على فعل يقوم به ، ومن لا يقر بأن الله سبحانه كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء لا يقر بأن الله على كل شيء قدير ، ومن لا يقر بأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وأنه سبحانه مقلب القلوب حقيقة وأنه إن شاء يقيم القلب

(١) في تفسير الطبري « يعلمون » (٢٢ / ١٣٢) .

أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه لا يقر بأن الله على كل شيء قدير ، ومن لا يقر بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يقول من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له وأنه نزل إلى الشجرة فكلم موسى كلمه منها ، وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها ، وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده وأنه يتجلى لهم يضحك وأنه يريهم نفسه المقدسة وأنه يضع رجله على النار فيضيق بها أهلها وينزوي بعضها إلى بعض إلى غير ذلك من شؤونه وأفعاله التي من لم يقر بها لم يقر بأنه على كل شيء قدير فيا لها كلمة من حبر الأمة وترجمان القرآن وقد كان ابن عباس شديداً على القدرية وكذلك الصحابة[1] .

قال تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر : ٥٢] . قال عطاء ومقاتل كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ وروى حماد بن زيد عن داود بن أبي هند عن الشعبي : ﴿ **وكل شيء فعلوه في الزبر** ﴾ قال : كتب عليهم قبل أن يعملوه .

وقالت طائفة : المعنى أنه يحصى عليهم في كتب أعمالهم وجمع أبو إسحاق بين القولين فقال : مكتوب عليهم قبل أن يفعلوه ومكتوب عليهم إذا فعلوه للجزاء . وهذا أصح وبالله التوفيق[1] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر : ٥٤-٥٥] .

فسمى جنته مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها كما يقال : مودة صادقة إذا كانت ثابتة تامة وحلاوة صادقة وحملة صادقة ومنه الكلام الصدق لحصول مقصوده منه وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال ومنه الصدق في الحديث والصدق في العمل والصديق الذي يصدق قوله بالعمل ، والصَّدق بالفتح الصلب من الرماح ويقال للرجل الشجاع : إنه لذو مصدق أي

---

(١) شفاء العليل (٢٨-٢٩) .

(٢) شفاء العليل (٤٢) .

صادق الحملة ، وهذا مصداق هذا أي ما يصدقه ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة ومنه صدقني القتال وصدقني المودة . ومنه قدم صدق ، ولسان صدق ، ومدخل صدق ومخرج صدق ، وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء تحته وهو لا يتضمن أمراً ثابتاً قط وفسر قوم قدم صدق بالجنة وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من الله وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك .

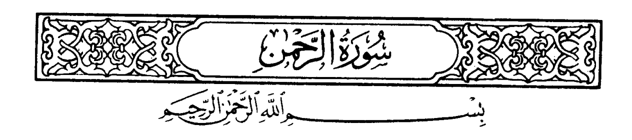
والتحقيق أن الجميع حق فإنهم سبقت لهم من الله الحسنى بتلك السابقة أي بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله وادخر لهم جزاءها يوم القيامة ولسان الصدق وهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع وأنه ثناء بحق لا بباطل ومدخل الصدق ومخرج الصدق وهو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامناً على الله وهو دخوله وخروجه بالله ولله وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد فإنه لا يزال داخلاً في أمر وخارجاً من أمر فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك كان قد أدخل مدخل صدق وأخرج مخرج صدق والله المستعان[1] .

* * *

(١) حادي الأرواح (٨٩-٩٠) .

سُورَةُ الرَّحمٰنِ





قال تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [الرحمن : ١-٢] .

فهذا الكتاب ثم قال : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧] .

والميزان يراد به العدل والآلة التي يعرف بها العدل وما يضاده .

والقياس الصحيح هو الميزان فالأولى تسميته بالاسم الذي سماه الله به فإنه يدل على العدل وهو اسم مدح واجب على كل واحد في كل حال بحسب الإمكان بخلاف اسم القياس فإنه ينقسم إلى حق وباطل وممدوح ومذموم ولهذا لم يجيء في القرآن مدحه ولا ذمه ولا الأمر به ولا النهي عنه فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وفاسد[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

إن الآيات ﴿ **الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان** ﴾ [الرحمن : ١-٣] . دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها فقوله خلق الإنسان إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني وخص الإنسان بالخلق لما تقدم وقوله : ﴿ **علم القرآن** ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه ، كما أنه صار إنساناً بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه . ثم قال ﴿ **علمه البيان** ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانا .

أحدها : البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات .

---

(١) إعلام الموقعين (١/١٨٠) .

الثاني : البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره .

الثالث : البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين للناظر معانيها كما يتبين للسامع معاني الألفاظ فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع والأول بيان للقلب وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) [الإسراء : ٣٦] . وقوله : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) [النحل : ٧٨] . ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله (صم بكم عمي) [البقرة : ١٨] . وقوله : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) [البقرة : ٧] . وقد تقدم بسط هذا الكلام[١] .

ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون[٢] بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة الرحمن فإنه سبحانه وتعالى ذكر خلق النوعين في قوله تعالى : ﴿ **خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار** ﴾ [الرحمن : ١٤-١٥] .

خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم وإنكار تكذيبهم بالآية ، وترغيبهم في وعده وتخويفهم من وعيده ، وتهديدهم بقوله تعالى : ﴿ **سنفرغ لكم أيها الثقلان** ﴾ [الرحمن : ٣١] . وتخويفهم من عواقب ذنوبهم وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام ، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم . وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا

(١) مفتاح دار السعادة (٣٠١) .
(٢) أي الجن .

فقال « لقد قرأتها على الجن ليلة الجن وكانوا أحسن مردوداً منكم : كنت كلما أتيت على آية ﴿ **فبأي آلاء ربكم تكذبان** ﴾ قالوا : لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »[1] وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب ، وعلمهم أنهم مقصودون به وقوله في هذه السورة ﴿ **سنفرغ لكم أيها الثقلان** ﴾ وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع .

قال قتادة : معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها ، ومجيء الآخرة والجزاء فيها ، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء . والفراغ في اللغة على وجهين : فراغ من الشغل وفراغ بمعنى القصد وهو في هذا الموضوع بالمعنى الثاني وقد قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء .

مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعتين وتارة مثنين وتارة مفردين لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك فالأول كقوله (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) [المعارج : ٤٠] . والثاني كقوله ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٧-١٨] . والثالث كقوله (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) [المزمل : ٩] . فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب موادها يطلعك على عظمة القرآن وجلالته وأنه تنزيل من حكيم حميد فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة وهي متعددة ، وحيث أفردا كان المراد أفقي المشرق

---

(١) حديث حسن .

رواه الترمذي (٥ / ٣٧٢) في التفسير ، باب : ومن سورة الرحمن .

والطبري في التفسير (٢٧ / ١٢٣) .

والبزار (٣ / ٧٤) كلهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٧/٧): « رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي، وثقه ابن حبان وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

والحاكم (٢ / ٢٧٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وقال: «صحيح على شرطهما» ووافقه الذهبي .

وحسنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٢١٥٠) .

والمغرب ، وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما فإنها تبتدىء صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها فهذا مشرق صعودها وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء : فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقاً واحداً ومشرق هبوطها بجملته مشرقا واحداً ، ويقابلها مغرباها فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع ، وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحداً تعرض له ، ولا فتح بابه وهو بحمد الله بين من السياق فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات فذكر أولاً نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض وهما النجم والشجر ، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة ، وأخبر أنه رفع هذه ، ووضع هذه ووسط بينها ذكر الميزان ثم ذكر العدل والظلم في الميزان فأمر بالعدل ونهى عن الظلم ، ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار ثم ذكر خلق نوعي المكلفين وهما نوع الإنسان ونوع الجان ، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين ، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك وقدر موضعهما اللفظ مفرداً ومجموعاً تجد السمع ينبو عنه ويشهد العقل بمنافرته للنظم[1] .

قول الله تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : ٢٦] .

ولم يقل « فيها » لأن عند الفناء ليس الحال حال القرار والتمكين[2] .

قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] .

يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويكشف غماً وينصر مظلوماً ويأخذ ظالماً ويفك عانياً ويغني فقيراً ويجبر كسيراً ويشفي مريضاً ويقيل عثرة ويستر عورة ويعز ذليلاً

---

(١) بدائع الفوائد (١٢١/١) .
(٢) بدائع الفوائد (٢١٠/٤) .

ويذل عزيزاً ويعطي سائلاً ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ويداول الأيام بين الناس ويرفع أقواماً ويضع آخرين ، يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر ، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك ، وفي تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحماني : حدثنا إسحاق بن سليمان عن معاوية بن يحيى عن يونس بن ميسرة عن أبي إدريس عن أبي الدرداء أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] . فقال : سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع أقواماً ويضع آخرين »[1] .

وفيه أيضاً من حديث حماد بن سلمة حدثنا الزبير أبو عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز عن أبيه قال : قال عبد الله بن مسعود : إن ربكم عز وجل ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه ، أيامكم عنده

---

(١) حديث صحيح .
ذكره البخاري معلقاً عن أبي الدرداء (٨ / ٤٨٦) في التفسير ، سورة الرحمن .
وقال الحافظ: «وصله المصنف – أي البخاري – في التاريخ وابن حبان في «الصحيح» وابن ماجه وابن أبي عاصم والطبراني عن أبي الدرداء مرفوعاً ، وأخرجه البيهقي في « الشعب » من طريق أم الدرداء عن أبي الدرداء مرفوعاً ، وللمرفوع شاهد آخر عن ابن عمر أخرجه البزار، وآخر عن عبد الله بن منيب أخرجه الحسن بن سفيان والبزار وابن جرير والطبراني . فتح الباري (٨ / ٤٩٠) .
وابن ماجه (الصحيح) (١/٤٠) في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، وقال الألباني: «حسن».
والطبري في تفسيره (٢٧ / ١٣٥) من حديث عبد الله بن منيب .
والبزار (٣ / ٧٣) قال الهيثمي: « رواه الطبراني في الكبير والأوسط، والبزار وفيه من لم أعرفهم » مجمع الزوائد (٧ / ١١٧) .
وانظر « ظلال الجنة » للألباني (١ / ١٣٠) .
وتفسير ابن كثير (٤ / ٢٩١) . سورة الرحمن .

ثنتا عشرة ساعة : تعرض عليه أعمالكم بالأمس ثلاث ساعات من أول النهار فيطلع منها على ما يكره فيغضب فيكون أول من يعلم بغضبه حملة العرش فتسبح حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة وينفخ جبريل في القرن فلا يبقى خلق لله في السموات ولا في الأرض إلا سمعه إلا الثقلين ويسبحون لذلك [ثلاث ساعات] حتى يمتلىء الرحمن رحمة فتلك ست ساعات ثم يدعوا بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات (يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) [آل عمران : ٦] .

(يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) [الشورى : ٤٩] . فتلك تسع ساعات ثم يدعو بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) . [الإسراء : ٣٠] [الروم : ٣٧] [سبأ : ٣٦] [الزمر : ٥٢] [الشورى : ١٢] . فتلك ثنتا عشرة ساعة . ثم قرأ عبد الله ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾[الرحمن : ٢٩] . ثم قال : هذا شأنكم وشأن ربكم عز وجل وذكره الطبراني[(١)] في المعجم الكبير من وجه آخر ، وهذا من تمام تصرفه في ملكه سبحانه فلو قصر تصرفه على وجه واحد ونمط واحد لم يكن تصرفاً تاماً[(٢)] .

قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] .

يغفر ذنباً ويفرج هماً ويكشف كرباً ويجبر كسيراً ويغني فقيراً ويعلم جاهلاً ويهدي ضالاً ويرشد حيران ويغيث لهفان ويفك عانياً ويشبع جائعاً ويكسو عاريا ويشفي مريضاً ويعافي مبتلًى ويقبل تائباً ، ويجزي محسناً وينصر مظلوماً ويقصم جباراً ويقيل عثرة ويستر عورة ويؤمن من روعة ويرفع أقواماً ويضع آخرين ، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩ / ٢٠٠) وقال الهيثمي: «فيه أبو عبد السلام، قال أبو حاتم: مجهول، وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وعبد الله بن مكرز أو عبيد الله على الشك لم أر من ذكره » مجمع الزوائد (١ / ٨٥) .

(٢) طريق الهجرتين (١١٥/١١٦) .

النهار وعمل النهار قبل الليل حجابه النور : لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه[1] .

قوله تعالى : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

فيها قولان :

أحدهما : إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات والأرض علماً – أي أن تعلموا ما فيهما – فاعلموه . ولن تعلموه إلا بسلطان ، أي إلا ببينة من الله وعلى هذا فالنفوذ ها هنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض .

الثاني : إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم ، فإنكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم . وقال الضحاك : معنى الآية إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدرككم . وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا . وفي الآية تقرير آخر وهو أن يكون هذا الخطاب لهم في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق فهرب الخلائق فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً .

كما قال تعالى (ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين) [غافر : ٣٢-٣٣] .

قال مجاهد : فارين غير معجزين ، وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قوله تعالى (والملك على أرجائها) [الحاقة : ١٧] .

---

(١) الوابل الصيب (٨٩) .

وقوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا** ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

وهذا القول اظهر . والله أعلم .

فإذا بدء الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم ﴿ **إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا** ﴾ أي إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا . وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول ، فإن قبلها ﴿ **سنفرغ** ﴾ [٣١] وهذا في الآخرة وبعدها ﴿ **فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان** ﴾ [الرحمن : ٣٧] . وهذا في الآخرة . وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن فإنه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالى ﴿ **يا معشر الجن والإنس** ﴾ فلابد أن يشترك الكل في سماع الخطاب ومضمونه وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وقال تعالى ﴿ **إن استطعتم** ﴾ ولم يقل إن استطعتما لإرادة الجماعة كما في آية أخرى (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم) [الأنعام : ١٣١] .

وقال تعالى : ﴿ **يرسل عليكما** ﴾ ولم يقل يرسل عليكم لإرادة الصنفين أي لا يختص به صنف على صنف بل يرسل ذلك على الصنفين معاً . وهذا وإن كان مراداً بقوله تعالى ﴿ **إن استطعتم** ﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن أي من استطاع منكم وحسن الخطاب بالتثنية في قوله تعالى ﴿ **عليكما** ﴾ أمر آخر وهو موافقة رءوس الآي ، فاتصلت التثنية بالتثنية وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما. والله أعلم .

قال ابن عباس : الشواظ : اللهب الذي لا دخان فيه .
والنحاس الدخان الذي لا لهب فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن : ٣٩] .

فأضاف الذنوب إلى الثقلين وهذا دليل على أنهما سويا في التكليف ، واختلف في هذا السؤال المنفي ، فقيل : هو وقت البعث والمصير إلى الموقف ، لا يسألون حينئذ ، ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل : المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار ، لا سؤال المحاسبة والمجازاة ، أي قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها وإنما يحاسبهم عليها .

فصـــل

فإذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب ، علم أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار ، وقد دل على ذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمنهم (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه) [الجن : ١٣] . وبهذه الحجة احتج البخاري ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفي هو نقصان الثواب والرهق الزيادة في العقوبة على ما عمل ، فلا ينقص من ثواب حسناته ولا يزداد في سيئاته ، ونظير هذا قوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) [طه : ١١٢] . أي لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته . وأيضاً فقد قال تعالى في سورة [الرحمن : ٤٦] ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وذكر ما في الجنتين إلى قوله تعالى ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن : ٥٦]. وهذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه :

أحدها : أن « من » من صيغ العموم فتتناول كل خائف .

الثاني : أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه ، فدل على استحقاقه به . وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب هل هي من إضافة المصدر إلى فاعله

أو إلى مفعوله ؟ على قولين :

أحدهما : أن المعنى ولمن خاف مقامه بين يدي ربه فعلى هذا هو من إضافة المصدر إلى المفعول .

والثاني : أن المعنى ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه ، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله وكذلك القولان في قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) [النازعات : ٤٠] . ونظيره قوله تعالى (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) [إبراهيم : ١٤] .

فهذه ثلاثة مواضع . وقد يقال : الراجح هو الأول وإن المعنى خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه :

أحدها : أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر فإذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم ، كقوله تعالى (فلا تخافوهم وخافون) [آل عمران : ١٧٥] . وقوله تعالى (ذلك لمن خشي ربه) [البينة : ٨] . وقوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) [النحل : ٥٠] . وقوله تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) [تبارك : ١٢] . ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم وإنما مدحهم بخوفه وخشيته . وقد يذكر الخوف متعلقاً بعذابه كقوله تعالى (يرجون رحمته ويخافون عذابه) [الإسراء : ٥٧] . وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن .

الثاني : أن هذا نظير قوله تعالى (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) [الأنعام : ٥١] . فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

الثالث : أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت . وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل ، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل . وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه

وقدرته عليه فهذا يقر به المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل فإن قيل : إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران ، فمن أين رجحتم أحدهما ؟ قيل : التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد ولهذا خوفنا تعالى في قوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) [المطففين : ٦] . ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى الله وذلك في يوم القيامة بخلاف مقام الله على العبد فإنه كل وقت . وأيضاً فإنه لا يقال لقدرة الله على العبد واطلاعه عليه وعلمه به : مقام الله ، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب وأيضاً فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) [الإسراء: ٧٩] . وقوله تعالى (خير مقاماً وأحسن ندياً) [مريم : ٧٣] . والمقصود أن قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان .

الثالث : قوله عقيب هذا الوعد (فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

الرابع : أنه ذكر في وصف نسائهم أنهن (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وهذا والله أعلم معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم ولا نساء الجن جن قبلهم .

ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار) [الكهف : ٣٠-٣١] . وأمثال هذه من العمومات ، وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون في العموم ، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد . ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولى من دخول كافرهم في آيات الوعيد ، فإن الوعد فضله والوعيد عدله ، وفضله من رحمته هي تغلب غضبه وأيضاً فإن دخول عاصيهم النار إنما كان لمخالفته أمر الله فإذا أطاع الله أدخل الجنة ، وأيضاً فإنه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار ، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة

مثواه . وأيضاً فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي الله غفر لهم وأجارهم من عذابه ، وكل من غفر له دخل الجنة ولابد ، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار وأيضاً فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم ، وأنهم مكلفون باتباعه ، وأن مطيعهم لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم ، لقوله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) [النساء : ٦٩] . وقد أخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأنهم يقولون (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم) [غافر : ٧-٨] . فدل على أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم فتعين دخولهم الجنة . والله أعلم .

وإذا ثبت تكليفهم بانقسامهم إلى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك ، فهم في الموازنة على نحو طبقات الإنس المتقدمة ، إلا أنهم ليس فيهم رسول وأفضل درجاتهم درجة الصالحين ، ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها فقد دل القرآن على انقسامهم إلى ثلاثة أقسام : صالحين ودونهم وكفار وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين . والله أعلم[1] .

قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

قيل : هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله[2] .

وأما الفرش فقد قال تعالى : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ [الرحمن : ٥٤] .

---

(١) طريق الهجرتين (٣٩١-٣٩٦) .
(٢) روضة المحبين (٣٦٥) .

وقال تعالى ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾ [الواقعة : ٣٤] فوصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق ، وهذا يدل على أمرين :

أحدهما : أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها ؛ لأن بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة . قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي هبيرة بن مريم عن عبد الله في قوله : بطائنها من إستبرق ، قال : هذه البطائن قد خبرتم بها فكيف بالظهائر ؟

الثاني : يدل على أنها فرش عالية لها سمك وحشو بين البطانة والظهارة وقد روي في سمكها وارتفاعها آثار إن كانت محفوظة فالمراد ارتفاع محلها . كما رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (وفرش مرفوعة) قال :«ارتفاعها كما بين السماء والأرض . ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام » . قال الترمذي : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين ابن سعد[1] .

قيل: ومعناه أن الارتفاع المذكور للدرجات والفرش عليها. قلت: رشدين بن سعد عنده مناكير . قال الدارقطني : ليس بالقوي ، وقال أحمد : لا يبالي عمن روى ، وليس به بأس في الرقاق . وقال : أرجو أنه صالح الحديث ، وقال يحيى ابن معين : ليس بشيء . وقال أبو زرعة : ضعيف . وقال الجوزجاني : عنده مناكير ، ولا ريب أنه كان سيىء الحفظ فلا يعتمد على ما ينفرد به[2] .

---

(١) رواه الترمذي (٤ / ٥٨٦) . في صفة الجنة ، باب : ما جاء في صفة ثياب أهل الجنة .
والإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣ / ٧٥) .
والبيهقي في البعث والنشور (٢٠١) رقم (٣١١) .
وقال العلامة المباركفوري: «وأخرجه أحمد والنسائي وابن أبي الدنيا، قال المنذري: ورواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي وغيرهما من حديث ابن وهب أيضاً عن عمرو بن الحارث عن دراج . انتهى » تحفة الأحوذي (٧ / ٢٤٧) .
والدر المنثور (٨ / ١٥) .
والترغيب والترهيب (٤ / ٢٦٢) .

(٢) انظر « تهذيب التهذيب » لابن حجر (٣ / ٢٧٧) .

وقد قال ابن وهب : حدثنا عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « في قوله (وفرش مرفوعة) قال : ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض »[1] .

وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ . والله أعلم .

وقال الطبراني : حدثنا المقدام بن داود حدثنا أسد بن موسى حدثنا حماد ابن سلمة عن علي بن زيد عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن كعب ، في قوله عز وجل (وفرش مرفوعة) قال : « مسيرة أربعين سنة ».

قال الطبراني : حدثنا إبراهيم بن نائلة ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي ، حدثنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفرش المرفوعة قال : لو طرح فراش من أعلاها لهوى إلى قرارها مائة خريف »[2] وفي رفع هذا الحديث نظر ، فقد قال ابن أبي الدنيا : حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا معاذ بن هشام قال : وجدت في كتابي أبي عن القاسم بن أبي أمامة ، في قوله عز وجل (وفرش مرفوعة) قال : « لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفا »[3] .

قال تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : ٥٦-٥٨] .

وصفهن سبحانه بقصر الطرف في ثلاثة مواضع :

أحدها : هذا .

والثاني : قوله تعالى في الصافات (وعندهم قاصرات الطرف عين) [الصافات : ٤٨] .

---

(١) قال ابن حجر: «دراج بن أبي السمح صدوق في حديثه عن أبي الهيثم، ضعيف» التقريب (١/٢٣٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨ / ٢٨٩) رقم (٧٩٤٧) .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٢٠): فيه جعفر بن الزبير الحنفي وهو ضعيف».

(٣) حادي الأرواح (١٦٩-١٧٠) .

والثالث : قوله تعالى في صٓ (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) [ص :٥٢] والمفسرون كلهم على أن المعنى قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم ، وقيل : قصرن طرف أزواجهن عليهن فلا يدعهم حسنهن وجمالهن أن ينظروا إلى غيرهن ، وهذا صحيح من جهة المعنى . وأما من جهة اللفظ : فقاصرات صفة مضافة إلى الفاعل الحسان الوجوه وأصله قاصر طرفهن ، أي ليس بطامح متعد . قال آدم : حدثنا ورقاء عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله ﴿ **قاصرات الطرف** ﴾ قال : يقول قاصرات الطرف على أزواجهن فلا يبغين غير أزواجهن ، قال آدم : وحدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن ، قال : قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم والله ما هن متبرجات ولا متطلعات وقال منصور عن مجاهد : قصرن أبصارهن وقلوبهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم وفي تفسير سعيد عن قتادة قال : وقصرن أطرافهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ، وأما الأتراب فجمع ترب : وهو لدة الإنسان .

قال أبو عبيدة وأبو إسحاق : أقران : أسنانهن واحدة قال ابن عباس وسائر المفسرين : مستويات على سن واحد وميلاد واحد بنات ثلاث وثلاثين سنة . وقال مجاهد : أتراب : أمثال . وقال أبو إسحاق : هن في غاية الشباب والحسن وسمي سن الإنسان وقرنه تربه ، لأنه مس تراب الأرض معه في وقت واحد والمعنى من الإخبار باستواء أسنانهن أنهن ليس فيهن عجائز قد فات حسنهن ، ولا ولائد لا يطقن الوطء بخلاف الذكور فإن فيهن الولدان وهم الخدم وقد اختلف في مفسر الضمير في قوله فيهن ، فقالت طائفة : مفسرة الجنتان وما حوتاه من القصور والغرف والخيام . وقالت طائفة : مفسرة الفرش المذكورة في قوله (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) [الرحمن : ٥٤] . وفي بمعنى على ، وقوله تعالى : ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جآن** ﴾ قال أبو عبيدة : لم يمسهن ، يقال ما طمث هذا البعير حبل قط أي ما مسه . وقال يونس : تقول العرب هذا جمل ما طمثه حبل قط أي ما مسه ،. وقال الفراء : الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية والطمث هو الدم وفيه لغتان طمث يطمث ويطمث قال الليث : طمثت الجارية إذا افترعتها ، والطامث في لغتهم هي الحائض ، قال أبو الهيثم : يقال للمرأة :

طمثت تطمث إذا أدميت بالافتضاض وطمثت على فعلت تطمث إذا حاضت أول ما تحيض فهي طامث وقال في قول الفرزدق :

خرجن اللاتي لم يطمثهن قبلي وهن أصح من بيض النعام

أي لم يمسسن ، قال المفسرون : لم يطأهن ولم يغشهن ولم يجامعهن هذه ألفاظهم . وهم مختلفون في هؤلاء فبعضهم يقول هن اللواتي أنشئن في الجنة من حورها وبعضهم يقول يعني نساء الدنيا أنشئن خلقاً آخر أبكاراً كما وصفهن .

قال الشعبي : نساء من نساء الدنيا لم يمسسن منذ أنشئن خلقاً .

وقال مقاتل : لأنهن خلقن في الجنة . وقال عطاء عن ابن عباس : هن الآدميات اللاتي متن أبكاراً .

وقال الكلبي : لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه إنس ولا جان .

قلت : ظاهر القرآن أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا وإنما هن من الحور العين ، أما نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس ، ونساء الجن قد طمثهن الجن ، والآية تدل على ذلك .

وقال أبو إسحاق : وفي هذه الآية دليل على أن الجن يغشى كما أن الإنس تغشى ويدل على أنهن الحور اللاتي خلقن في الجنة ، أنه سبحانه جعلهن مما أعده الله في الجنة لأهلها من الفواكه والثمار والأنهار والملابس وغيرها ، ويدل عليه أيضاً الآية التي بعدها وهي قوله تعالى : (حور مقصورات في الخيام) [الرحمن : ٧٢] . ثم قال (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) [الرحمن : ٧٤] .

قال الإمام أحمد : والحور العين لا يمتن عند النفخة للصور لأنهن خلقهن للبقاء. وفي الآية دليل لما ذهب إليه الجمهور أن مؤمن الجن في الجنة كما أن كافرهم في النار وبوب عليه البخاري في صحيحه(1) فقال : باب ثواب الجن وعقابهم ونص عليه غير واحد من السلف ، قال ضمرة بن حبيب : وقد سئل هل للجن

---

(١) في كتاب « بدء الخلق ، باب : ذكر الجن وثوابهم وعقابهم » فتح الباري (٦ / ٣٩٥) .

ثواب ؟ فقال نعم وقرأ هذه الآية ثم قال : الإنسيات للإنس والجنيات للجن . وقال مجاهد في هذه الآية : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه . والضمير في قوله ﴿ **قبلهم** ﴾ للمعنيين بقوله متكئين وهم أزواج هؤلاء النسوة وقوله: ﴿**كأنهن الياقوت والمرجان**﴾ قال الحسن وعامة المفسرين: أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان، شبههن في صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان ويدل عليه ما قاله عبد الله : أن المرأة من نساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقيها من ورائهن ذلك بأن الله يقول ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ . ألا وإن الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكا ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر[1] .

قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] . فذكرهما ثم قال ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٦٢] .

فهذه أربع قد اختلف في قوله ﴿ **ومن دونهما** ﴾ هل المراد به أنهما فوقهما أو تحتهما على قولين : فقالت طائفة : ﴿ **من دونهما** ﴾ أي أقرب منهما إلى العرش فيكونان فوقهما .

وقالت طائفة : بل معنى من دونهما تحتهما . قالوا : وهذا المنقول في لغة العرب إذ قالوا : هذا دون هذا أي دونه في المنزلة . كما قال بعضهم لمن بالغ في مدحه : أنا دون ما تقول فوق ما في نفسك . وفي الصحاح دون نقيض فوق وهو تقصير عن الغاية ، ثم قال : ويقال هذا دون هذا أي أقرب منه والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأوليين من عشرة أوجه :

أحدها : قوله (ذواتا أفنان) وفيه قولان :

أحدهما : أنه جمع فنن وهو الغصن .

والثاني : أنه جمع فن وهو الصنف أي ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما .

---
(١) حادي الأرواح (١٨٠-١٨٢) .

الثاني : قوله (فيهما عينان تجريان) [الرحمن : ٥٠] . وفي الأخريين (فيهما عينان نضاختان) [الرحمن : ٦٦] .

والنضاخة : هي الفوارة والجارية السارحة وهي أحسن من الفوارة فإنها تتضمن الفوران والجريان .

الثالث : أنه قال : (فيهما من كل فاكهة زوجان) [الرحمن : ٥٢] وفي الأخريين : (فيهما فاكهة ونخل ورمان) [الرحمن : ٦٨] . ولا ريب أن وصف الأولين أكمل واختلف في هذين الزوجين بعد الاتفاق على أنهما صنفان فقالت طائفة : الزوجان الرطب واليابس الذي لا يقصر في فضله وجودته عن الرطب وهو يتمتع به كما يتمتع باليابس وفيه نظر لا يخفى وقالت طائفة : الزوجان صنف معروف وصنف من شكله غريب وقالت طائفة : نوعان ولم تزد . الظاهر والله أعلم : أنه الحلو والحامض والأبيض والأحمر ، وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى وألذ للعين والفم .

الرابع : أنه قال (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) [الرحمن : ٥٤] .

وهذا تنبيه على فضل الظهائر وخطرها وفي الأخريين قال (متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) [الرحمن : ٧٦] . وفسر الرفرف بالمحابس والبسط ، وفسر بالفرش ، وفسر بالمحابس فوقها وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأوليين .

الخامس: أنه قال: (وجنى الجنتين دان) [الرحمن:٥٤] أي قريب وسهل يتناولونه كيف شاءوا ولم يذكر ذلك في الأخريين .

السادس: أنه قال (فيهن قاصرات الطرف) [الرحمن:٥٦] أي قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهن لهم ، وذلك يتضمن قصر أطراف أزواجهن عليهن فلا يدعهم حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن وقال في الأخريين (حور مقصورات في الخيام) [الرحمن : ٧٢] ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها .

السابع : أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه ولم يذكر ذلك في التي بعدها .

الثامن : أنه قال سبحانه في الجنتين الأوليين (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) [الرحمن : ٦٠] .

وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل فكان جزاؤهم بإحسان كامل .

التاسع : أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين ، وجعلهما جزاء لمن خاف مقامه وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه ، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين .

العاشر : أنه قال ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ [الرحمن : ٦٢] . والسياق يدل على أنه نقيض فوق . كما قال الجوهري فإن قيل : فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه ؟ قيل : لما كان الخائفون نوعين كما ذكرنا كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما فإن قيل : فهل الجنتان لمجموع الخائفين يشتركون فيهما أم لكل واحد جنتان وهما البستانان ؟ قيل : هذا فيه قولان للمفسرين ورجح القول الثاني بوجهين :

أحدهما : من جهة النقل .

والثاني : من جهة المعنى ، فأما الذي من جهة النقل فإن أصحاب هذا القول رووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « هما بستانان في رياض الجنة »[1] . وأما الذي من جهة المعنى فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر والثانية : جزاء اجتناب المحارم .

---

(١) لم أقف عليه إلا عند القرطبي ذكره عن المهدوي والثعلبي (٦٣٤٧/٧) .

فإن قيل : فكيف قال في ذكر النساء (فيهن) في الموضعين ولما ذكر غيرهن قال (فيهما) ؟

قيل : لما ذكر الفرش قال بعدها : (فيهن خيرات حسان) ثم أعاده في الجنتين الأخريين بهذا اللفظ ليتشاكل اللفظ والمعنى ... والله أعلم[١] .

قال تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : ٧٠] .

فالخيرات جمع خيرة وهي مخففة من خيرة كسيدة ولينة ، وحسان : جمع حسنة فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم ، حسان الوجوه .

قال وكيع : حدثنا سفيان عن جابر عن القاسم عن أبي بزة عن أبي عبيدة عن مسروق عن عبد الله قال : لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك ، لا ترحات ولا ذفرات ولا بخرات ولا طماحات[٢] .

قال تعالى في وصفهن[٣] : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٢] .

المقصورات المحبوسات . قال أبو عبيدة : خدرن في الخيام وكذلك قال وفيه معنى آخر ، وهو أن يكون المراد أنهن محبوسات على أزواجهن ، لا يرون غيرهم وهم في الخيام وهذا معنى قول من قال : قصرن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ، ولا يطمحن إلى من سواهم وذكره الفراء .

قلت : وهذا معنى (قاصرات الطرف) لكن أولئك قاصرات بأنفسهن وهؤلاء مقصورات وقوله في الخيام على هذا القول : صفة لحور أي هن في الخيام ، وليس معمولاً للمقصورات وكأن أرباب هذا القول فسروا بأن يكن محبوسات في الخيام لا يفارقنها إلى الغرف والبساتين .

---

(١) حادي الأرواح (٩١-٩٢) .

(٢) حادي الأرواح (١٨٣) .

(٣) في : وصف الحور العين .

وأصحاب القول الأول يجيبون عن هذا : بأن الله سبحانه وصفهن بصفات النساء المخدرات والمصونات وذلك أجمل في الوصف ولا يلزم من ذلك أنهن لا يفارقن الخيام إلى الغرف والبساتين ، كما أن نساء الملوك ودونهم من النساء المخدرات المصونات لا يمنعن أن يخرجن في سفر وغيره إلى منتزه وبستان ونحوه . فوصفهن اللازم لهن القصر في البيت ويعرض لهن مع الخدم الخروج إلى البساتين ونحوها . وأما مجاهد فقال : مقصورات قلوبهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ وقد تقدم وصف النسوة الأول بكونهن قاصرات الطرف ، وهؤلاء بكونهن مقصورات ، والوصفان لكلا النوعين فإنهما صفتا كمال . فتلك الصفة قصر الطرف عن طموحه إلى غير الأزواج وهذه الصفة قصر الرجل على التبرج والبروز والظهور للرجال[1] .

قال تعالى عن البسط والزرابي : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴾ [الرحمن : ٧٦] .

وقال تعالى : (فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة) [الغاشية : ١٣-١٦] . وذكر هشام عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال ﴿ **الرفرف** ﴾ رياض الجنة و ﴿ **العبقري** ﴾ عتاق الزرابي ، وذكر إسماعيل ابن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ **متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان** ﴾ قال : هي البسط قال وأهل المدينة يقولون : هي البسط وأما النمارق فقال الواحدي : هي الوسائد في قول الجميع واحدها : نمرقة بضم النون وحكى الفراء نمرقة بكسرها ، وأنشد أبو عبيدة :

إذا ما بساط اللهو مد وقربت للذاته أنماطه ونمارقه

قال الكلبي : وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض . وقال مقاتل : هو الوسائد مصفوفة على الطنافس، وزرابي : بمعنى البسط والطنافس واحدها زربية، في قول جميع أهل اللغة والتعبير ، ومبثوثة : مبسوطة منشورة .

(١) حادي الأرواح (١٨٢-١٨٣) .

فصـــل

وأما الرفرف فقال الليث : ضرب من الثياب خضر تبسط ، الواحد : رفرفة وقال أبو عبيدة : الرفارف البسط وأنشد لابن مقبل :

وإنا لنزّالون تغشى نعالنـا ... سواقط من أصناف ريط ورفرف

وقال أبو إسحاق : قالوا : الرفرف ههنا رياض الجنة وقالوا : الرفرف الوسائد ، وقالوا : الرفرف المحابس وقالوا : فضول المحابس للفرش وقال المبرد : هو فضول الثياب التي تتخذ الملوك في الفرش وغيره ، قال الواحدي : وكان الأقرب هذا لأن العرب تسمي كسر الخباء والخرقة التي تخاط في أسفل الخباء : رفرفاً ومنه الحديث في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم : « فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة »[1] قال ابن الأعرابي: الرفرف ها هنا طرف البساط فشبه ما فضل من المحابس عما تحته بطرف الفسطاط فسمي رفرفاً قلت : أصل هذه الكلمة من الطرف أو الجانب فمنه الرفرف في الحائط ومنه الرفرف وهو كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها ، الواحدة رفرفة ، ومنه رفرف الطير إذا حرك جناحه حول الشيء يريد أن يقع عليه ، والرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس. والواحدة رفرفة وكل ما فضل من شيء فشيء وعطف فهو رفرف وفي حديث

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ ، وذكره ابن الأثير في النهاية (٢ / ٢٤٢) .
ولكن عند البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه « .. حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة فكشف النبي صلى الله عليه وسلم ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف .. » فتح الباري (٢ / ١٩٣) في الأذان ، باب : أهل العلم والفضل أحق بالإمامة .
ومسلم (٢ / ٦٤) في الصلاة ، باب : استخلاف الإمام إذا عرض له عذر .
وابن ماجه (الصحيح) (١/٢٧١) في الجنائز ، باب : ما جاء في ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وعند الإمام أحمد (٣ / ١١٠،و ١٦٣) .
ومعنى: «كأنه ورقة مصحف» أي: شدة بياض وجهه وصفائه صلوات الله وسلامه عليه. والله أعلم.

ابن مسعود في قوله عز وجل (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قال : رأى رفرفاً أخضر سد الأفق[١] . وهو في الصحيحين[٢] .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] . وأصح القولين في ذلك : أن الجلال هو التعظيم والإكرام هو الحب وهو سر قول العبد : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وهذا في مسند الإمام أحمد من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام »[٣] أي الزموها والهجوا بها[٤] .

* * *

(١) هو في البخاري ، كما مر في سورة النجم برقم (٣) (٤/٢٨٢) .

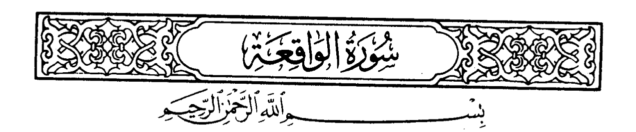
(٢) حادي الأرواح (١٧٠-١٧١) .

(٣) حديث صحيح .
رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤ / ١٧٧) من حديث ربيعة بن عامر رضي الله عنه . وصححه ووافقه الذهبي .
والحاكم (١ / ٤٩٨ - ٤٩٩) وصححه ووافقه الذهبي .
وانظر الصحيحة رقم (١٥٣٦) .

(٤) جلاء الأفهام (١٠٢-١٠٣) .

سُورَةُ الوَاقِعَةِ





قال تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الواقعة : ١٣-١٦] .

وقال تعالى: (فيها سرر مرفوعة) [الغاشية:١٣] فأخبر تعالى عن سررهم بأنها مصفوفة بعضها إلى جانب بعض ليس بعضها خلف بعض ولا بعيداً من بعض وأخبر أنها موضونة والوضن في اللغة : النضيد والنسيج المضاعف يقال : وضن فلان الحجر والآجر بعضه فوق بعض فهو موضون ، وقال الليث : الوضن : نسج السرير وأشباهه ، ويقال : درع موضونة مقارنة النسج وقال رجل من العرب لامرأته : ضني متاع البيت ، أي قاربي بعضه من بعضه ، قال أبو عبيدة والفراء والمبرد وابن قتيبة[1] : موضونة منسوجة مضاعفة متداخلة بعضها على بعض كما توضن حلق الدرع ومنه سمي الوضين وهو نطاق من سيور تنسج فيدخل بعضها على بعض وأنشدوا للأعشى :

ومن نسج داود موضونة   تساق مع الوحي عيراً فعيرا

قالوا : موضونة ، منسوجة بقضبان الذهب مشتبكة بالدر والياقوت والزبرجد . قال هشيم : أنبأنا حصين عن مجاهد عن ابن عباس قال : مرمولة بالذهب وقال مجاهد : موصولة بالذهب وقال علي بن طلحة عن ابن عباس : موضونة : مصفوفة . فأخبر سبحانه أنها مرفوعة . قال عطاء عن ابن عباس ، قال : سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين مكة وأيلة .

---

(١) انظر غريب القرآن لابن قتيبة (٤٤٦) سورة الواقعة .

وقال الكلبي : طول السرير في السماء مائة ذراع فإذا أراد الرجل أن يجلس عليه تواضع له حتى يجلس عليه فإذا جلس ارتفع إلى مكانه[١] .

قوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً ﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦] وهذا فيه نفي لسماع اللغو والتأثيم وإثبات لضده وهو السلام المنافي لهما فالمقصود به نفي شيء وإثبات ضده ، وعلى هذا فلا حاجة إلى تكلف دخوله تحت المستثنى منه ؛ لأنه يتضمن زوال هذه الفائدة من الكلام ومن رده إلى الأول . قال : لما نفى عنهم سماع اللغو والتأثيم وهما مما يقال فكأن النفس تشوفت إلى أنه هل يسمع فيها شيء غيره فقال : ﴿ إلا قيلا سلاماً سلاماً ﴾ فعاد المعنى إلى لا يسمعون فيها شيئاً إلا قيلا سلاماً سلاماً ، وأنت إذا تأملت هذين التقديرين رأيت الأول أصوب فإنه نفى سماع شيء وأثبت ضده ، وعلى الثاني نفى سماع كل شيء إلا السلام وليس المعنى عليه فإنهم يسمعون السلام وغيره فتأمله[٢] .

قال تعالى : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة : ٢٩] . قال أكثر المفسرين : هو الموز ، والمنضود : هو الذي قد نضد بعضه على بعض كالمشط . وقيل : الطلح : الشجر ذو الشوك نضر مكان كل شوكة ثمرة ، فثمره قد نضد بعضه إلى بعض ، فهو مثل الموز ، وهذا القول أصح ، ويكون من ذكر الموز من السلف أراد التمثيل لا التخصيص والله أعلم[٣] .

قال تعالى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٢٧-٣٣] . وقال تعالى: (ذواتا أفنان) [الرحمن:٤٨]. وهو جمع فنن وهو الغصن وقال : (فيها فاكهة ونخل ورمان) [الرحمن : ٦٨] . والمخضود : الذي قد خضد شوكه أي نزع وقطع فلا شوك فيه ، هذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل

(١) حادي الأرواح (١٧٤-١٧٥) .
(٢) بدائع الفوائد (٦٩/٣-٧٠) .
(٣) زاد المعاد (٣٣٧/٤) .

وقتادة وأبي الأحوص وقسامة بن زهير وجماعة ، واحتج هؤلاء بحجتين :

إحداهما : أن الخضد في اللغة القطع وكل رطب قضبته فقد خضدته وخضدت الشجر إذا قطعت شوكه فهو خضيد ومخضود ومنه الخضد على مثال الثمر وهو كل ما قطع من عود رطب خضد بمعنى مخضود كقبض وسلب والخضاد شجر رخو لا شوك فيه .

الحجة الثانية : قال ابن أبي داود :حدثنا محمد بن مصفى حدثنا محمد بن المبارك حدثنا يحيى بن حمزة ، حدثنا ثور بن يزيد ، حدثني حبيب بن عبيد عن عتبة ابن عبدٍ السلمي قال : كنت جالساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال : يارسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها . يعني الطلح . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود ، فيها سبعون لوناً الطعام لا يشبه لون آخر »[1] الملبود : الذي قد اجتمع شعره بعضه على بعض .

وقال عبد الله بن المبارك أنبأنا صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، أقبل أعرابي يوماً ، فقال : يارسول الله ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية ، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما هي » ؟ قال : السدر فإن له شوكاً ، مؤذياً ، قال : « أليس الله يقول : ﴿ في

---

(١) حديث صحيح .
رواه ابو بكر بن أبي داود برقم (٦٩) .
والطبراني في الكبير (١٧ / ١٣٠) برقم
وقال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح المجمع (١٠ / ٤١٤) .
وأبو نعيم في الحلية (٦ / ١٠٣) .
وانظر الدر المنثور (٨ / ١٢) .
و « الخصوة » البيضة من أعضاء التناسل وهي واحدة « الخُصى » مختار الصحاح (١٧٨) .
وأما « الملبود » فمعناه هنا « المكتنز اللحم ، الذي لزم بعضه بعضا فتلبد » النهاية (٢٢٥/٤) لابن الأثير وابن القيم ذكر أحد معانيه وليس المراد هنا . والله أعلم .

سدر **مخضود** ﴾ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة »[1] .

وقالت طائفة: المخضود هو: الموقر حملاً. وأنكر عليهم هذا القول وقالوا: لا يعرف في اللغة الخضد بمعنى الحمل ، و لم يصب هؤلاء الذين أنكروا هذا القول، بل هو قول صحيح وأربابه ذهبوا إلى أن الله سبحانه وتعالى لما خضد شوكه وأذهبه وجعل مكان كل شوكة ثمرة أوقرت بالحمل ، والحديثان المذكوران يجمعان القولين وكذلك قول من قال : المخضود الذي لا يعقر اليد ، ولا يرد اليد عنه شوك ولا أذى فيه . فسره بلازم المعنى ، وهكذا غالب المفسرين يذكرون لازم المعنى المقصود تارة وفرداً من أفراده تارة ومثالاً من أمثلته فيحكيها الجماعون للغث والسمين أقوالاً مختلفة ولا اختلاف بينها .

فصــــل

وأما الطلح فأكثر المفسرين قالوا : إنه شجرة الموز ، قال مجاهد : أعجبهم طلح « وَجٍّ »[2] وحسنه فقيل لهم : ﴿ **وطلح منضود** ﴾ وهذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وقالت طائفة أخرى : بل هو شجر عظام طوال وهو شجر البوادي الكثير الشوك عند العرب قال حاديهم :

بشرهـــا دليلهـــا وقـــالا غداً ترين الطلح والجبـالا

ولهذا الشجر رائحة وظل وظليل وقد نضد بالحمل والثمر مكان الشوك وقال ابن قتيبة : هو الذي نضد بالحمل أو بالورق والحمل من أوله إلى آخره فليس له ساق بارز . وقال مسروق : ورق الجنة نضيد من أسفلها إلى أعلاها

---

(١) رواه الإمام ابن المبارك (٧٤ - ٧٥) في زيادات الزهد من رواية نعيم بن حماد .
ورواه الحاكم بسنده عن سليم بن عامر - وهو تابعي ثقة - عن أبي أمامة رضي الله عنه (٢ / ٤٧٦) وصححه ووافقه الذهبي .
والبيهقي في البعث والنشور ص (١٨٧) .
وذكره ابن كثير من رواية الحافظ أبي بكر أحمد بن سلمان النجاد (٤ / ٣٠٨) .

(٢) « وَجٌّ » هي الطائف ، انظر معجم البلدان لياقوت (٤ / ٨) و (٥ / ٣٦١) .

وأنهارها تجري من غير أخدود . وقال الليث : الطلح شجر أم غيلان ليس له شوك أحجن من أعظم العضاة شوكاً وأصلبه عوداً وأجود صنعاً . قال أبو إسحاق : يجوز أن يعني به شجر أم غيلان لأن له نوراً طيب الرائحة جداً فوعدوا بما يحبون مثله إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على سائر ما في الدنيا فإنه ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسامي والظاهر أن من فسر الطلح المنضود بالموز إنما أراد التمثيل به لحسن نضده وإلا فالطلح في اللغة : هو الشجر العظام من شجر البوادي . والله أعلم[1] .

قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[الواقعة : ٣٥-٣٨] .أعاد الضمير إلى النساء ولم يجر لهن ذكر لأن الفرش دلت عليهن إذ هي محلهن وقيل الفرش في قوله : (وفرش مرفوعة) كناية عن النساء كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها ولكن قوله مرفوعة يأبى هذا إلا أن يقال : المراد رفعة القدر وقد تقدم تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للفرش وارتفاعها فالصواب أنها الفرش نفسها ودلت على النساء لأنها محلهن غالباً قال قتادة وسعيد بن جبير : خلقناهن خلقاً جديداً . وقال ابن عباس : يريد نساء الآدميات . وقال الكلبي ومقاتل : يعني نساء أهل الدنيا العجز الشمط يقول تعالى : خلقناهن بعد الكبر والهرم بعد الخلق الأول في الدنيا ويؤيد هذا التفسير حديث أنس المرفوع : « هن عجائزكم العمش الرمص »[2] . رواه الثوري عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عنه ويؤيده ما رواه يحيى الحماني حدثنا ابن

---

(١) حادي الأرواح (١٣٦-١٣٨) .

(٢) رواه الترمذي (٥ / ٣٧٥) في التفسير ، باب : سورة الواقعة .
وقال : « حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيد . وهو ويزيد بن أبان يضعفان في الحديث » .
ورواه الطبري (٢٧ / ١٨٥) .
والبيهقي في البعث عنهما ص (٢١٧) .
قال صاحب تحفة الأحوذي : « (عُمشاً) بضم فسكون جمع عمشاء ، من العمش في العين محركة ، وهو ضعف الرؤية مع سيلان دمعها في أكثر أوقاتها ، (رمصاً) : جمع رمصاء ، من الرمص، محركة، وهو وسخ أبيض يجتمع في الموق .. » (٩ / ١٨٣) .

إدريس عن ليث عن مجاهد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها عجوز فقال : من هذه فقالت : إحدى خالاتي قال : « أما إنه لا يدخل الجنة العجوز فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله». فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إنا أنشأنهن إنشاء﴾ خلقاً آخر يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا وأول من يكسى إبراهيم خليل الله ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم : (إنا أنشأنهن إنشاء)[1] .

قال آدم بن أبي إياس حدثنا شيبان عن الزهري عن جابر الجعفي عن يزيد ابن مرة عن سلمة بن يزيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله ﴿ إنا أنشأنهن إنشاء ﴾ قال : « يعني الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا »[2].

قال آدم : وحدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة العُجُز» فبكت عجوز فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أخبروها أنها يومئذ ليست بعجوز ، إنها يومئذ شابة إن الله عز

---

(١) رواه البيهقي في البعث والنشور ص (٢١٦) .
وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢ / ١٠٧) .

(٢) رواه أبو داود الطيالسي رقم (١٣٠٧) .
والطبري في تفسيره (٢٧ / ١٨٥) .
وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٤ / ٣١١) .
والطبراني في الكبير (٧ / ٤٠) .
والبيهقي في البعث رقم (٣٤٥) ص (٢١٧) .
كلهم من طريق « جابر الجعفي ، عن يزيد بن مرة ، عن سلمة بن يزيد فذكره .. » وجابر الجعفي ضعيف ، ولم أوفق لمعرفة «يزيد بن مرة» هذا ولم أجد في الرواة في المصادر المشهورة غير «يزيد ابن مرة الذراع » ذكره ابن حبان في الثقات (٩ / ٢٧٤) .
وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٩ / ٢٩٠) وقال: «ثقة صدوق» وقال: «سمع منه أبي» . اهـ .
وهو قطعاً غير يزيد هنا .
وقريب من اسمه «يزيد الهاشمي أبو مرة مولى عقيل ويقال: مولى هانىء، روى عن طائفة من الصحابة». تهذيب التهذيب (١١ / ٣٧٤) . والله أعلم .

وجل يقول : ﴿ إنا أنشأنهن إنشاء ﴾ »[1] .

وقال ابن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق حدثنا مسعدة بن اليسع حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم أتته عجوز من الأنصار فقالت : يارسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : « إن الجنة لا يدخلها عجوز » فذهب نبي الله صلى الله عليه وسلم فصلى ثم رجع إلى عائشة فقالت عائشة : لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة فقال صلى الله عليه وسلم : « إن ذلك كذلك إن الله تعالى إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكارا »[2] .

وذكر مقاتل قولاً آخر وهو اختيار الزجاج أنهن الحور العين التي ذكرهن قيل : أنشأهن الله عز وجل لأوليائه لم يقع عليهن ولادة والظاهر أن المراد أنشأهن الله تعالى في الجنة إنشاء ويدل عليه وجوه :

أحدها : أنه قد قال في حق السابقين : (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب – إلى قوله – كأمثال اللؤلؤ المكنون) فذكر سررهم وآنيتهم وشرابهم

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل (مختصر الألباني) رقم (٢٠٥) وقال الألباني « إسناده ضعيف ، فمع إرسال الحسن إياه ، فإن مبارك بن فضالة الراوي عنه مدلس وقد عنعنه » وقد حسنه الشيخ في كتابه « غاية المرام » رقم (٣٧٥) لشواهده السابقة .
ورواه البيهقي في البعث رقم (٣٤٦) .
ورواه البغوي في تفسيره (٧ / ١٩) من طريق الترمذي .
ورواه عبد بن حميد كما في تفسير ابن كثير (٤ / ٣١١) .
وانظر تفسير الطبري (٢٧ / ١٨٦) .

(٢) ابن أبي شيبة ، عبد الله بن محمد الإمام الحجة العلم، سيد الحفاظ، وصاحب الكتب الكبار: « المسند » و « المصنف » وهو مطبوع في الدار السلفية بالهند و « التفسير »، وهذا الأثر أظنه في تفسيره حيث لم أعثر عليه في مصنفه ، وانظر (١٣ / ٤٨٦) من مصنفه . وترجمة ابن أبي شيبة في السير (١١ / ١٢٢) .
ورواه الطبراني في الأوسط كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٤١٩) وقال : « فيه مسعدة ابن اليسع وهو ضعيف » .
ورواه أبو نعيم في صفة الجنة (٣ / ٢٣١) .
وانظر رقم (٢) ص (٣٥١) ورقم (١) ص (٣٥٢) في أول السورة والله أعلم .

وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم من الحور العين ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفرشهم ونساءهم والظاهر : أنهن مثل نساء من قبلهن خلقن في الجنة .

الثاني : أنه سبحانه قال : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء** ﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان ؛ لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك ، كقوله : (وأن عليه النشأة الأخرى) [النجم : ٤٧] . وقوله : (ولقد علمتم النشأة الأولى) [الواقعة : ٦٢] .

الثالث : أن الخطاب بقوله (وكنتم أزواجاً ثلاثة) [الواقعة : ٣] . إلى آخره للذكور والإناث والنشأة الثانية أيضاً عامة للنوعين وقوله ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء** ﴾ [الواقعة : ٣٥] . ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء وتأمل تأكيده بالمصدر والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات بل هي أحق به منهن ، فالإنشاء واقع على الصنفين . والله أعلم .

وقوله ﴿ **عرباً** ﴾ جمع عروب وهن المتحببات إلى أزواجهن ، قال ابن الأعرابي : العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة إليه . وقال أبو عبيدة : العروب الحسنة التبعل . قلت : يريد حسن مواقعتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع . وقال المبرد : هي العاشقة لزوجها وأنشد للبيد :

وفي الحدوج عروب غير فاحشة ... ريا الروادف يعشى دونها البصر

وذكر المفسرون في تفسير (العُرُب) : أنهن العواشق المتحببات الغنجات الشكلات ، المتعشقات ، الغلمات ، المغنوجات ، كل ذلك من ألفاظهم ، وقال البخاري في صحيحه : عُرُباً مثقلة واحدها عروب - مثل صبور وصبُر - تسميها أهل مكة العَرِبة ، وأهل المدينة : الغنجة ، وأهل العراق الشكلة . (والعرب) المتحببات إلى أزواجهن . هكذا ذكره في كتاب (بدء الخلق)[1] . وقال في (كتاب التفسير) في سورة

(١) فتح الباري (٦ / ٣٦٥) كتاب : بدء الخلق ، باب : ما جاء في صفة الجنة .

الواقعة : عرباً مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر تسميها أهل مكة العربة وأهل المدينة الغنجة وأهل العراق الشكلة[١] .

قلت : فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها وهذه غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن وفي قوله : (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) [الرحمٰن : ٥٦] ، إعلام بكمال اللذة بهن فإن لذة الرجل بالمرأة التي لم يطأها سواه لها فضل على لذته بغيرها وكذلك هي أيضاً[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة : ٣٧] .

إذ العرب جمع عروب وهي المرأة المتحببة إلى زوجها بأخلاقها ولطافتها وشمائلها . قال ابن الأعرابي : العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة إليه . وقال أبو عبيدة : هي الحسنة التبعل . قال المبرد : هي العاشقة لزوجها . وقال البخاري في صحيحه : هي الغنجة ، ويقال الشكلة[٣] . فهذا وصف أخلاقهن وذلك وصف خلقهن وأنت إذا تأملت الصفات التي وصفهن الله بها رأيتها مستلزمة لهذه الصفات ولما وراءها . والله المستعان[٤] .

قال تعالى : ﴿ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ [الواقعة : ٥٥] . هي الإبل العطاش ، قلت : جمع أهيم هيم مثل أحمر وحمر وهو جمع فعلاء أيضاً كصفراء وصفر[٥] .

---

(١) فتح الباري (٨ / ٤٩٢) في التفسير ، سورة الواقعة .
(٢) حادي الأرواح (١٨٣-١٨٥) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) التبيان في أقسام القرآن (٢٧٥-٢٧٦) .
(٥) روضة المحبين (٥٩) .

قال تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة:٥٨-٦٠] كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله (وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون) [الواقعة : ٦٠] . فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم ، وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها ، فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا وأقرب إلى العقل والفهم وأبعد من كل شبهة وشك ، وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان . وقال في سورة الإنسان (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) [الإنسان : ٣٨] . فهذه النشأة الأولى ثم قال (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) [الإنسان : ٢٨] . فهذه النشأة الأخرى ، ونظير هذا (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى) [النجم : ٤٥] . وهذا في القرآن كثير جداً يقرن بين النشأتين مذكراً للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى وبالله التوفيق(١) .

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة : ٧٣] . تذكرة تذكر بها الآخرة ومنفعة للنازلين بالقسواء وهم المسافرون يقال : أقوى الرجل إذا نزل بالقي والقوي وهي الأرض الخالية ، وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيها لعباده والله أعلم بمراده من كلامه على أنهم كلهم مسافرون وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر(٢) .

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]. ففيهما قولان أحدهما أنها النجوم المعروفة وعلى هذا ففي مواقعها أقوال :

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٩٩-٢٠٠) .

(٢) طريق الهجرتين (١٣١-١٣٢) .

أحدها : أنه انكدارها وانتشارها يوم القيامة وهذا قول الحسن والمنجمون يكذبون بهذا ولا يقرون به .

والثاني : مواقعها : منازلها قاله عطاء وقتادة .

والثالث : أنه مغاربها .

والرابع : أنه مواقعها عند طلوعها وغروبها . حكاه ابن عطية عن مجاهد وأبي عبيدة .

والخامس : أن مواقعها : مواضعها من السماء هذا الذي حكاه ابن الجوزي عن قتادة حكاه ابن عطية[1] عنه فيحتمل أن يكونا واحداً وأن يكونا قولين .

السادس : أن مواقعها : انقضاضها أثر العفريت وقت الرجوم ، حكاه ابن عطية أيضاً ولم يذكر أبو الفرج ابن الجوزي سوى الثلاثة الأول . والقول الثاني : أن مواقع النجوم هي منازل القرآن ونجومه التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة . قال ابن عطية ويزيد هذا القول عود الضمير على القول في قوله (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون) وذلك أن ذكره لم يتقدم إلا على هذا التأويل ، ومن لا يتأول هذا التأويل يقول : إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم ذكره لشهرة الأمر ووضوح المعنى كقوله تعالى : (حتى توارت بالحجاب) [ص : ٣٢] : و (كل من عليها فان) [الرحمن : ٢٦] وغير ذلك . قلت : ويزيد القول الأول أنه أعاد الضمير بلفظ الإفراد والتذكير ومواقع النجوم جمع فلو كان الضمير عائد عليها لقال إنها لقرآن كريم إلا أن يقال مواقع النجوم دل على القرآن فأعاد الضمير عليه لأن مفسر الضمير يكتفى فيه بذلك وهو من أنواع البلاغة والإيجاز فإن كان المراد من القسم نجوم القرآن بطل استدلاله بالآية وإن كان المراد الكواكب وهو قول الأكثرين ، فلما فيها من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى وانفراده بالخلق والإبداع فإنه لا ينبغي أن تكون الإلهية

---

(١) انظر زاد المسير (٨ / ١٥١) .
وتفسير « المحرر الوجيز » لابن عطية (١٥ / ٣٨٥) .

إلا له وحده ، كما أنه وحده المنفرد بخلقها وإبداعها ، وما تضمنته من الآيات والعجائب فالإقسام بها أوضح دليل على تكذيب المشركين والمنجمين والدهرية ونوعي المعطلة كما تقدم ، وكذلك قوله (النجم الثاقب) [الطارق : ٣] على أن فيه قولين آخرين غير القول الذي ذكره : أحدهما أنه الثريا وهذا قول ابن زيد حكاه عنه أبو الفرج ابن الجوزي ، وعنه رواية ثانية أنه زحل حكاها ابن عطية والثاني أنه الجدي حكاه ابن عطية عن ابن عباس ، وقول آخر حكاه أبو الفرج ابن الجوزي عن علي بن أحمد النيسابوري أنه جنس النجوم(١)(٢) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة : ٧٥-٨٠] . ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى وأقسام الخلق فيها، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى وإخراج النبات من الأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وخلق النار ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن وأنه تنزيله وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها فقيل : هي آيات القرآن ، ومواقعها : نزولها شيئاً بعد شيء . وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ، في رواية عطاء ، وقول سعيد بن جبير ، والكلبي ، ومقاتل ، وقتادة . وقيل : النجوم هي الكواكب ، ومواقعها مساقطها عند غروبها . هذا قول أبي عبيدة وغيره . وقيل : مواقعها انتشارها وانكدارها يوم القيامة ، وهذا قول الحسن . ومن حجة هذا القول أن لفظ مواقع تقتضيه ، فإنه مفاعل من الوقوع ، وهو السقوط . فلكل نجم موقع وجمعها مواقع . ومن حجة قول من قال هي مساقطها عند الغروب ، أن الرب تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها ، إذ فيها وفي أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما تقدم في قوله تعالى :

(١) زاد المسير (٨ / ١٥١) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٥٣٥-٥٣٦) .

(فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس) [التكوير : ١٥-١٦] . وقال (والنجم إذا هوى) [النجم : ١] . وقال (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) [المعارج : ٤٠]. ويرجح هذا القول أيضاً أن النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله تعالى (وإدبار النجوم) [الذاريات : ٤٩] . وقوله : (والشمس والقمر والنجوم) [الأعراف : ٥٤] .

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم ، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه :

أحدها : أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي . فتلك هداية في الظلمات الحسية ، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية فجمع بين الهدايتين ، مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين ، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن ، والنجوم آياته المشهودة المعاينة . والقرآن آياته المتلوة السمعية ، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول .

ومن قرأ (بموقع النجوم) على الإفراد ، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد ، والموقع اسم جنس ، والمصادر إذا اختلفت جمعت ، وإذا كان النوع واحداً أفردت ، قال تعالى (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) [لقمان : ١٩] . فجمع الأصوات لتعدد النوع ، وأفرد صوت الحمير لوحدته ، فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه . وتعدد الموقع لتعدده ، إذ لكل نجم موقع .

فصل

والمقسم عليه ها هنا قوله ﴿ **إنه لقرآن كريم** ﴾ ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله : ﴿ **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى : ﴿ **لو تعلمون عظيم** ﴾ فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض ، ألطف شيء وأحسنه موقعاً . وأحسن

ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيداً أو تنبيهاً أو احترازاً . كقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) [الأعراف : ٤٢] . فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله : (لا نكلف نفسا إلا وسعها) [الأنعام : ١٥٢] لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم : أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات ، فرفع ذلك بقوله (لا نكلف نفساً إلا وسعها) وهذا أحسن من قول من قال : إنه خبر عن الذين آمنوا ، ثم أخبر عنهم بخبر آخر . فهما خبران عن مخبر واحد . فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا ، بل هو حكم شامل لجميع الخلق ، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أي نفساً منهم . وتعطيل هذه الفائدة الجليلة .

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) [النحل : ٥٧] . فاعترض بقوله (سبحانه) بين الجعلين ، وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام ، من قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد ، وتعظيم المقسم به والمخبر عنه ، ورفع توهم خلاف المراد ، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك .

فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر :

لو ان الباخلين وأنت منهم رأوك تعلموا منك المطالا

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر :

فلا هجره يبدو وفي اليأس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

فقوله : وفي اليأس راحة جواب لتقدير سؤال سائل وما يغني عنك هجره ؟ فقال : وفي اليأس راحة ، أي المطلوب أحد أمرين : إما يأس مريح ، أو وصال صاف .

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي :

ألا زعمت بنو جعد بأني وقد كذبوا كبير السن فاني

ومنه قول نصيب :

فكدت و لم أخلق من الطير إن بدا　　سنا بارق نحو الحجاز أطير

فقوله : ولما أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار لو قال فكدت أطير فيقال له : وهل خلقت من الطير ، فاحترز بهذا الاعتراض . وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا ، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز . فأخبر أنه كاد يطير على أنه أبعد شيء من الطيران ، فإنه لم يخلق من الطير ، ولا عجب طيران من خلق من الطير ، وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير ، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه فتأمله .

ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر :

قد كنت أبكي وأنت راضية　　حذار هذا الصدود والغضب
إن تم ذا الهجر ياظلوم ولا　　تم فما لي في العيش من أرب

وقول الآخر :

إن سليمى والله يكلؤها　　ضنت بشيء ما كان يرزؤها

وقول الآخر :

إن الثمانين وبلغتها　　قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ومنه الاعتراض بالقسم ، كقوله :

ذاك الذي وأبيك يعرف مالكا　　والحق يدفع ترهات الباطل

ومن اعتراض الاستعطاف قوله :

فمن لي بالعين التي كنت مرة　　إلي بها - نفسي فداؤك - تنظر

فاعترض بقوله : نفسي فداؤك ، استعطافا .

فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر) [النحل : ١٠١] . فقوله (والله أعلم بما ينزل) اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أموراً : منها الجواب عن سؤال سائل :

ما حكمة هذا التبديل وما فائدته . ومنها أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم ، ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى وأن كلا منهما منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني .

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك) [لقمان : ١٤] . فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به ، توكيداً لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها ، وتذكيراً لولدها بحقها ، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب . ومنه قوله تعالى (وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها) [البقرة : ٧٢ -٧٣] فاعترض بقوله : (والله مخرج ما كنتم تكتمون) بين الجمل المعطوف بعضها على بعض ، إعلاماً بأن تدارؤهم وتدافعهم في شأن القتيل ليس نافعاً لهم في كتمانه ، فالله يظهر ولابد . ولا تستطل هذا الفصل وأمثاله ؛ فإنه يعطيك ميزاناً ، وينهج لك طريقاً يعينك على فهم الكتاب والله المستعان .

فصــــل

ثم قال : ﴿ **إنه لقرآن كريم** ﴾ فوصفه بما يقتضي حسنه ، وكثرة خيره ، ومنافعه ، وجلالته ؛ فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع ، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله ، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه . ووصف به عرشه ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره ، من النبات ، وغيره ، ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن . قال الكلبي : إنه لقرآن كريم . أي حسن كريم على الله ، وقال مقاتل : كرمه الله وأعزه ؛ لأنه كلامه . وقال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله كريم جميل الفعال . وإنه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة . وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر . وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة وكذلك الكريم في الناس واللئيم .

فصـــل

ثم قال تعالى : ﴿ فى كتاب مكنون ﴾ اختلف المفسرون في هذا : فقيل هو اللوح المحفوظ . والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة ، وهو المذكور في قوله : (في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة) [عبس ١٣-١٦] . ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه . وهذا هو الصحيح في معنى الآية ، ومن المفسرين من قال : إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر .

والأول أرجح لوجوه :

أحدها : أن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين ، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه ، كما قال تعالى (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون) [الشعراء : ٢١٠-٢١١] . فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ، ولا يقدرون عليه . فإن الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه ، وقد يليق بمن لا يقدر عليه . فنفى عنهم الأمور الثلاثة ، وكذلك قوله في سورة عبس (في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة) [عبس : ١٣-١٦] . فوصف محله بهذه الصفات بياناً أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به . وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر .

الوجه الثاني : أن السورة مكية ، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين ، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة . وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنه السور المدنية .

الثالث : أن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا في حياة

رسول الله ﷺ ، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر . وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه .

الوجه الرابع : وهو قوله : ﴿ **في كتاب مكنون** ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر ، كما قال تعالى : (كأنهن بيض مكنون) [الواقعة : ٤٩] . وهكذا قال السلف . قال الكلبي : مكنون من الشياطين ، وقال مقاتل : مستور . وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار . وقال أبو إسحق : مصون في السماء يوضحه .

الوجه الخامس : أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً فقوله : ﴿ **قرآن كريم في كتاب مكنون** ﴾ كقوله : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) [البروج : ٢٠] يوضحه .

الوجه السادس : أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين ، وأبلغ في تعظيم القرآن ، من كون المصحف لا يمسه محدث .

الوجه السابع : قوله ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظاً ومعنى ، ولو كان نهياً لكان مفتوحاً . ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره ، إلى معنى النهي . والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته . وليس ها هنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي .

الوجه الثامن : أنه قال : ﴿ **إلا المطهرون** ﴾ ولم يقل إلا المتطهرون ، ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون . كما قال تعالى (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) [البقرة : ٢٢٢] . وفي الحديث « اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين »[١] ، فالمتطهر فاعل التطهير ، والمطهر الذي طهره غيره ، فالمتوضيء متطهر ، والملائكة مطهرون .

---

(١) رواه الترمذي (١ / ٧٧) في الطهارة ، باب : ما بعد الوضوء .
وقال: «في إسناده اضطراب .. » وصححه الألباني ، انظر الإرواء (١ / ١٣٤) .

الوجه التاسع : أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الإخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة ، إذ مجرد كون الكلام مكنوناً في كتاب ، لا يستلزم ثبوته ، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً في كتاب ، وهذا أمر مشترك ، والآية إنما سيقت لبيان مدحه وتشريفه ، وما اختص به من الخصائص ، التي تدل على أنه منزل من عند الله ، وأنه محفوظ مصون ، لا يصل إليه شيطان بوجه ما ، ولا يمس محله إلا المطهرون ، وهم السفرة الكرام البررة .

الوجه العاشر : ما رواه سعيد بن منصور في سننه حدثنا أبو الأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ قال : المطهرون الملائكة[1] . وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع . قال الحاكم : تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة . والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن . ويجب الرجوع إلى تفسيرهم . وقال حرب في مسائله : سمعت إسحق في قوله ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ قال : النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون . قال الملائكة .

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر فقال هذا من باب التنبيه والإشارة ، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون ، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر[2]. والحديث مشتق من هذه الآية. وقوله «لاتمس القرآن إلا وأنت طاهر» رواه أهل السنن من حديث الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده : أن في الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن في السنن ، والفرائض ، والديات (أن لا يمس القرآن إلا

---

(١) ذكره في الدر المنثور (٨ / ٢٦) .

(٢) قال شيخ الإسلام رضي الله عنه في الفتاوى الكبرى (١ / ٥٦): « مذهب الأئمة الأربعة أنه لا يمس المصحف إلا طاهر .. » . اهـ . ثم ذكر حديث عمرو بن حزم ، وغيره ، وهذا هو الأقرب والأليق لمقام القرآن . والله أعلم .

طاهر) قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحا[١] وقال أيضاً : لا أشك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه . وقال أبو عمر بن عبد البر : هو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم ، معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد . لأنه أشبه التواتر في مجيئه . لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة . ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلا . وقد رواه ابن حبان في صحيحه[٢] . ومالك في موطئه وفي المسألة آثار أخر مذكورة في غير هذا الموضع .

فصـــل

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي . قال البخاري في صحيحه في هذه الآية : لا يجد طعمه إلا من آمن به[٣] . وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته ، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه . فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ، ففي قلبه منه حرج . ومن قال : إن له باطناً يخالف ظاهره ، وإن له تأويلا يخالف ما يفهم منه ، ففي

---

(١) رواه مالك في موطئه (١ / ١٩٩) .
وعبد الرزاق في مصنفه (١ / ٣٤١) رقم (١٣٢٨) .
وأبو داود في مراسيله (١٢١) .
والحاكم (١ / ٣٩٥) وصححه ووافقه الذهبي، وروي عن غير عمرو بن حزم، انظر تخريجه مفصلاً في الإرواء للشيخ الجليل الألباني (١ / ١٥٨) . وتعليق محقق المراسيل لأبي داود ، الأستاذ شعيب الأرناؤوط .

(٢) صحيح ابن حبان رقم (٨٩٣) .

(٣) صحيح البخاري (٥١٧/١٣) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها..﴾.

قلبه منه حرج . ومن قال : إن له تأويلا لا نفهمه ولا نعلمه ، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ، ففي قلبه منه حرج ومن سلط عليه آل الآرائيين وهذيان المتكلمين ، وسفسطة المسفسطين ، وخيالات المتصوفين ، ففي قلبه منه حرج . ومن جعله تابعاً لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه ، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يأتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه ، ففي قلبه منه حرج ، وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم .

وأنت إذا تأملت قوله ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه ، وقياس الشيء على نظيره ، واعتباره بمشاكله ، وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن فهمت هذه المعاني كلها من الآية ، وبالله التوفيق .

فصـــل

ثم أكد ذلك وقرره وأطده بقوله ﴿ **تنزيل من رب العالمين** ﴾ وكما أنه لازم لكونه قرآنا كريماً في كتاب مكنون فهو ملزوم له . فهو دليل عليه مدلول له .

وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين :

أحدهما : أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ وهو الذي تكلم به . ومن هنا قال السلف : منه بدأ . ونظيره (ولكن حق القول مني) [السجدة : ١٣] . وقوله : (قل نزله روح القدس من ربك) [النحل : ١٠٢] .

والثاني : علو الله سبحانه فوق خلقه ، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول ، وتعرفه الفطر – هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل . والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم . وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ، ويدعهم هملا ، ويخلقهم عبثاً ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ، فمن أقر بأنه رب العالمين ؛ أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله ، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله ، وصحة ما جاء به . وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

وقد أشار سبحانه إلى الطريقين في غير موضع من كتابه ، كقوله (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [فصلت : ٥٣] . فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة ، ثم قال : (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) فهذا استدلال بكمال ربوبيته وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به . وهذه الطريق أخص وأقوى وأكمل وأعلى ، والأول أعم وأشمل . وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى : (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل) وأين الاستدلال بأوصاف الرب تعالى وكماله المقدس على ثبوت النبي وبعثه من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته ؟

وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها بصفات الرب تعالى وصفات محمد صلى الله عليه وسلم واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته ، وأنه رسول الله حقاً ، وأن من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأبى أن يخزيه ، وأنه يؤيده ، ويعليه ، ويتم نعمته عليه[1] .

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة

---

(١) رواه البخاري (١ / ٣٠) في بدء الوحي ، باب : (٣) «حدثنا يحيى بن بكير .. » .
ومسلم (١ / ٣٧٧) في الإيمان ، باب : بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المتكلمين من الفرق ما لا يخفى وإذا حصل للعبد الفقه في الأسماء والصفات انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من الأقوال ، والطرائق والمذاهب والعقائد – أعظم انتفاع ، وأتمه ، وقد بينا في كتابنا المعالم[1] بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوية من أسماء الرب وصفاته ، وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات ، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات ، فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد ، إذ ليست حكمة الرب تعالى ، وكمال علمه وأسمائه وصفاته ، تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه ، فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العملي في باب الأمر والنهي ، وهذا باب حرام على الجهمي المعطل أن يلجه إلى الجنة ، حرام عليه ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة ، والله العزيز الوهاب لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، وبه التوفيق .

فصــل

ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الأذهان في غير موضعه ، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به ، ويفرق به ويعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه لا يمنة ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به فهو روح الوجود وحياة العالم ، ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر ، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ولم ينزل للمداهنة ؟ وإنما أنزل بالحق وللحق . والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به ؟

---

(١) هو كتابه المشهور « إعلام الموقعين ... » انظر كتاب العلامة « بكر أبو زيد » « ابن قيم الجوزية حياته .. » ص (٢٠٩) .

ثم قال سبحانه: ﴿**وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**﴾ [الواقعة: ٨٢] لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق ، فرزق البدن الطعام والشراب ، ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاطره ، ومحبته ، والشوق إليه ، والأنس بقربه ، والابتهاج بذكره ، وكان لا حياة له إلا بذلك ، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب - أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق ، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما ، ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين ، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته ، فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما ، ومنهم من قتر عليه في الرزقين ، ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب ، وبالعكس ، وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه ، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد ، فإن الله تعالى تأذن أنه لابد أن يزيد الشكور من نعمه ولابد أن يسلبها من لم يشكرها ، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيباً ، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة ، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر فجعلوا رزقهم التكذيب وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال : التقدير : وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون . وقال آخرون : التقدير : وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون ، فحذف مضافين معاً ، وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى ، ومن بعض معنى الآية قوله : مطرنا بنوء كذا وكذا[1] فهذا لايصح أن تدل عليه الآية ويراد بها ، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى . والله أعلم .

فصل

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى ، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى ، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة ، وذكر

(١) رواه البخاري (٢ / ٦٠٦) في الاستسقاء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون .. ﴾ .
ومسلم (١ / ٢٥٨) في الإيمان ، باب : بيان كفر من قال مطرنا لنوء .

بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته ، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون ، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته ، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره فقال **﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾**[الواقعة:٨٣] أي وصلت الروح إلى هذا الموضع، بحيث فارقت، ولم تفارق، فهي برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، ملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس ، ولكنهم لا يبصرون بهم ، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون ، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين ، ولا مستوعبين ليوم الحساب .

فإن قيل : أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما ؟

قيل : هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه ، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مربوبون مملوكون ، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم ، قاهر آمر ، ناه ، أو لا يقرون بذلك فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله ، وأن لا يجعلوا له نداً ، ولا شريكاً وهذا هو الذي جاءهم به رسوله ، ونزل عليه به كتابه ، وإن أنكروا ذلك وقالوا إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم ، فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك ، بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له ، سواء الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات ، وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له ، ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع ، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن ، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية . ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة ، والاختصار التام ، وندائها إلى معناها من أقرب مكان ، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام ، ودلائل الربوبية والتوحيد ، والبعث ، وفصل النزاع في معرفة الروح وأنها تصعد ، وتنزل ، وتنتقل من مكان إلى مكان ، وما أحسن إعادة « لولا » ثانياً قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الأول ، وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحداً ، وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني ، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط

بين لولا الأولى والثانية ، والشرط الأول والثاني ، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه .

فتضمنت الآيتان تقريراً وتوبيخاً ، واستدلالا على أصول الإيمان : من وجود الخالق سبحانه ، وكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وربوبيته ، وتصرفه في أرواح عباده ، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء ، وأن أرواحهم بيده ، يذهب بها إذا شاء ويردها إليهم إذا شاء ، ويخلي أبدانهم منها تارة ، ويجمع بينها وبينهما تارة ، وإثبات المعاد ، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه ، وإثبات ملائكته ، وتقرير عبودية الخلق ، وأتى بهذا في صورة تحضيضين ، وتوبيخين ، وتقريرين ، وجوابين ، وشرطين ، وجزاءين – منتظمة أحسن الانتظام ، ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً بعضها ببعض ، وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه قال الفراء : وأجيبت (فلولا إذا بلغت) و (فلولا إن كنتم غير مدينين) بجواب واحد وهو ﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ [الواقعة: ٨٧] قال: ومثله قوله تعالى: (فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [البقرة : ٣٨] . أجيبا بجواب واحد وهما شرطان . قال الجرجاني : قوله (ترجعونها) جواب قوله (فلولا) المتقدمة والمتأخرة ، على تأويل : فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها ، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين ، كما تزعمون ؟ يقول تعالى : إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا حساب ، ولا جزاء ، ولا إله ، ولا رب يقوم بذلك ، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم ؟ فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه ، فهل دلكم ذلك على أن الأمر إلى مليك قادر قاهر ، متصرف فيكم وهو الله الذي لا إله إلا هو ؟ وقال أبو إسحق : معناه فهلا ترجعون الروح ، إن كنتم غير مملوكين مدبرين ؟ فهلا إن كان الأمر كما تزعمون في كما يقول قائلكم (لو أطاعونا ما قتلوا) [آل عمران : ١٦٨] . و (ولو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) [آل عمران : ١٥٦] . أي إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلا فهلا ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم ؟ وهلا تردون عن أنفسكم الموت .

قلت : وكان هذا يلتفت إلى قوله تعالى : (قل كونوا حجارة أو حديداً . أو خلقاً مما يكبر في صدوركم) [الإسراء : ٥٠-٥١] . أي إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقاً جديداً ، فكونوا خلقاً لا يفنى ولا يبلى ، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك . ووجه الملازمة ما تقدم ذكره ، وهو إما أن تقروا بأن لكم ربا متصرفاً فيكم ، ومالكاً لكم ، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته ، يميتكم إذا شاء ، ويحييكم إذا شاء ، فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقاً حديداً بعد ما أماتكم . وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك ، نافذ المشيئة فيكم ، والقدرة فيكم ، فكونوا خلقاً لا يقبل الفناء والموت فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقاً يموت ، ويحيا ، أن يحييكم بعد ما أماتكم ؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقاً لا يموت . والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت . وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد .

فصـــل

فلما قام الدليل ، ووضح السبيل ، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون ، مجزيون محاسبون - ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول . والقيامة الصغرى ، وهي ثلاث طبقات : طبقة المقربين ، وطبقة أصحاب اليمين ، وطبقة المكذبين ، فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة . وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة : فالروح الفرح والسرور ، والابتهاج ولذة الروح ، فهى كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها ، وذلك قوتها وغذاؤها ، والريحان الرزق ، وهو الأكل والشرب ، والجنة المسكن الجامع لذلك كله . فيعطون هذه الثلاث في البرزخ ، وفي المعاد الثاني .

ثم ذكر الطبقة الثانية ، وهي طبقة أصحاب اليمين ، ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين فقال : ﴿ **وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من**

أصحاب اليمين ﴾ [الواقعة : ٩٠-٩١] . والسلام مصدر من سلم ، أي فلك السلامة ، والخطاب له نفسه . أي : يقال لك السلامة ، كما يقال للقادم : لك الهناء . ولك السلامة ، ولك البشرى ، ونحو ذلك من الألفاظ ، كما يقولون : خير مقدم ، ونحو ذلك فهذه تحية عند اللقاء . قال مقاتل : يسلم الله لهم أمرهم ، ويتجاوز عن سيئاهم ويتقبل حسناتهم . وقال الكلبي : يسلم عليه أهل الجنة ، ويقولون : السلامة لك ، وعلى هذا فقوله ﴿ **من أصحاب اليمين** ﴾ أي : هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين ، فإنه إذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية ، وقالوا السلامة لك . وفي الآية أقوال أخر ، فيها تكلف وتعسف ، فلا حاجة إلى ذكرها .

ثم ذكر الطبقة الثالثة ، وهي طبقة الضال في نفسه المكذب لأهل الحق ، وإن له عند الموافاة نزل الحميم ، وسكنى الجحيم . ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأي العين لمن آمن بالله ورسوله فقال : ﴿ **إن هذا لهو حق اليقين**﴾ فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين ، وعن درجة اليقين إلى حقه .

ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به ، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : ٧٥-٧٨] .

هذا كلام فيه اعتراضان أحدهما قوله : ﴿ **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ لأنه اعترض بين القسم الذي هو ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ وبين جوابه الذي هو ﴿ **إنه لقرآن كريم** ﴾ وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذي هو قسم وبين صفته التي هي عظيم وهو قوله تعالى : ﴿ **لو تعلمون** ﴾ فذلك اعتراضان ولو جاء الكلام غير معترض فيه ؛ لوجب أن يكون

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢١٩-٢٤٢) .

فلا أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم ، وفائدة هذا الاعتراض بين القسم وجوابه إنما هو تعظيم لشأن المقسم به في نفس السامع ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ **لو تعلمون عظيم** ﴾ كيف هذا الاعتراض بين الصفة والموصوف ، وذلك أوقع في النفس لتعظيم المقسم به أي إنه من عظيم الشأن وفخامة الأمر بحيث لو علم ذلك لوفى حقه من التعظيم[1] .

وأنت إذا تأملت قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩]. وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وأن هذا القرآن حاء من عند الله وأن الذي جاء به روح مطهر فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل .

ووجدت الآية أخت قوله (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون) [الشعراء : ٢١٠-٢١١] . وجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر ، ووجدتها دالة أيضاً بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به ، كما فهمه البخاري من الآية فقال في صحيحه في باب (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها) [آل عمران : ٩٣] . لا يمسه : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ولا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) [الجمعة .٥] .
وتجد تحته أيضاً أنه لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه ، مصروفة عنه ، فتأمل هذا النسب القريب وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه ، فهذا من الفهم الذي أشار إليه عليٌّ رضي الله عنه[2] .

(١) الفوائد المشوق (٩٥) .
(٢) إعلام الموقعين (١/٢٨٩-٢٩٠) .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى:

قال[١] : والصحيح في الآية أن المراد به : الصحف التي بأيدي الملائكة لوجوه عديدة :

منها : أنه وصفه بأنه ﴿ **مكنون** ﴾ والمكنون المستور عن العيون وهذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة .

ومنها : أنه قال ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ وهم الملائكة ولو أراد المتوضئين لقال : لا يمسه إلا المتطهرون كما قال تعالى (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) [البقرة : ٢٤٢] . فالملائكة مطهرون والمؤمنون متطهرون .

ومنها : أن هذا إخبار ولو كان نهياً لقال : لا يمسسه بالجزم . والأصل في الخبر : أن يكون خبراً صورة ومعنى .

ومنها : أن هذا رد على من قال : إن الشيطان جاء بهذا القرآن فأخبر تعالى : أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين ولا وصول لها إليه ، كما قال تعالى في آية الشعراء : (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون) [الشعراء : ٢١٠-٢١١] . وإنما تناله الأرواح المطهرة وهم الملائكة .

ومنها : أن هذا نظير الآية التي في سورة عبس (فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة) [عبس : ١١-١٦] .

قال مالك في موطئه : أحسن ما سمعت في تفسير قوله (لا يمسه إلا المطهرون) أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس[٢] .

ومنها : أن الآية مكية من سورة مكية تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات الصانع والرد على الكفار وهذا المعنى أليق بالمقصود من فرع عملي وهو حكم مس المحدث المصحف .

---

(١) يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .
(٢) الموطأ (١ / ١٩٩) .

ومنها : أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس لم يكن في الإقسام على ذلك بهذا القسم العظيم كثيرة فائدة إذ من المعلوم : أن كل كلام فهو قابل لأن يكون في كتاب حقاً أو باطلاً بخلاف ما إذا وقع القسم على أنه في كتاب مصون مستور عن العيون عند الله لا يصل إليه شيطان ولا ينال منه ولا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية فهذا المعنى أليق وأجل وأخلق بالآية وأولى بلا شك .

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : لكن تدل الآية بإشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون لكرامتها على الله فهذه الصحف أولى أن لا يمسها إلا طاهر[١] .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

حقيقة هذا أنه لا يمس محله إلى المطهر وإشارته أنه لا يجد حلاوته ويذوق طعمه ويباشر حقائق قلبه المطهر من الأنجاس والأدناس وإلى هذا المعنى أشار البخاري[٢] في صحيحه ، فهذه من أصح الإشارات[٣] .

قوله تعالى ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٢] .

أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به ، قال الحسن : تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون . قال : وخسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به[٤] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٦ -٨٧] .

المعنى فلولا ترجعونها أي تردون الروح إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مربوبين مملوكين إن كنتم صادقين ، وهنا الثاني شرط للأول والمعنى إن كنتم

---

(١) مدارج السالكين (٢/٤١٦-٤١٨) .
(٢) سبق تخريجه رقم (٣) (٤/٣٦٦) .
(٣) السماع (٣٩٦) .
(٤) شفاء العليل (٤٢) .

صادقين في قولكم فهلا تردونها إن كنتم غير مدينين ويدل عليه قول الشاعر أنشده عبد الله بن مالك[1] :

إن تستغيثوا بنا أن تذعروا تجدوا منا معاقل عز زانها الكـرم

ومعلوم أن الاستغاثة إنما تكون بعد الذعر ، فالذعر شرط فيها ومن هذا قول الدريدي :

فإن عثرت بعدها أن والت نفسي من هاتا فقولا لالعا

ومعلوم أن العثور مرة ثانية إنما يكون بعد النجاة الأولى فوالت شرط في الشرط الثاني وعلى هذا فإذا ذكرت الشرطين ، وأتيت بالجواب كان جواباً للأول خاصة والثاني جرى معه مجرى الفضلة والتتمة كالحال وغيرها من الفضلات . قاله ابن مالك[1] . وأحسن من هذا أن يقال ليس الكلام بشرطين يستدعيان جوابين ، بل هو شرط واحد وتعليق واحد اعتبر في شرطه قيد خاص جعل شرطاً فيه وصار الجواب للشرط المقيد فهو جواب لهما معاً بهذا الاعتبار وإيضاحه أنك إذا قلت : إن كلمت زيداً إن رأيته فأنت طالق ، جعلت الطلاق جزءاً على كلام مقيد بالرؤية لا على كلام مطلق ، وكأنه قال إن كلمته ناظرة إليه فأنت طالق . وهذا يبين لك حرف المسئلة ويزيل عنك إشكالها جملة وبالله التوفيق[1] .

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٦-٨٧] .

أي هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين .

وهذه الآية تحتاج إلى تفسير فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب ولابد أن يكون الدليل مستلزماً لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول لما بينهما من التلازم ، فكل ملزوم دليل على لازمه ولا يجب العكس .

---

(١) بدائع الفوائد (٣/٢٤٧-٢٤٨) .

ووجه الاستدلال : أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته ، فإما أن يقروا بأن لهم رباً قاهراً متصرفاً فيهم كما سيميتهم إذا شاء ويحييهم إذا شاء ويأمرهم وينهاهم ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم ، وإما أن لا يقروا برب هذا شأنه ، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور والدين الأمري والجزائي ، وإن أنكروه كفروا به ، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم وهذا خطاب للحاضرين عند المحتضر وهم يعاينون موته : أي فهلا تردون الروح إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا بمقهورين لقاهر قادر تمضي عليكم أحكامه وتنفذ أوامره ، وهذا غاية التعجيز لهم إذ بين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ولو اجتمع على ذلك الثقلان، فيا لها من آية دالة على ربوبيته سبحانه ووحدانيته وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة : ٩١] .

فليس هذا سلام تحية ولو كان تحية لقال فسلام عليه كما قال : (سلام على إبراهيم) [الصافات : ١٠٩] . (سلام على نوح) [الصافات :٧٩] . ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله ، فذكر أنهم ثلاثة أقسام : مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم ، ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة ، ووعد المقرب بالغنيمة والفوز ، وإن كان كل منهما سالماً غانماً ، وظالم بتكذيبه وضلاله فأوعده بنزل من حميم وتصلية جحيم فلما لم يكن المقام مقام تحية وإنما هو مقام إخبار عن حاله ذكر ما يحصل له من السلامة . (فإن قيل) فهذا فرق صحيح ، لكن ما معنى اللام في قوله لك ومن هو المخاطب بهذا الخطاب وما معنى حرف من في قوله من أصحاب اليمين ، فهذه ثلاثة أسئلة في الآية (قيل) قد وفينا بحمد الله بذكر الفرق بين

(١) الجواب الكافي (٣١٠-٣١١) .

هذا السلام في الآية وبين سلام التحية وهو الذي كان المقصود وهذه الأسئلة وإن كانت متعلقة بالآية فهي خارجة عن مقصودنا ولكن نجيب عنها إكالاً للفائدة بحول الله وقوته ، وإن كنا لم نر أحداً من المفسرين شفى في هذا الموضع الغليل ولا كشف حقيقة المعنى واللفظ بل منهم من يقول المعنى فمسلم لك أنك من أصحاب اليمين ، ومنهم من يقول غير ذلك مما هو حوم على معناها من غير ورود .

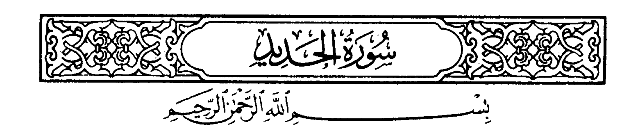
فاعلم أن المدعو به من الخير والشر مضاف إلى صاحبه بلام الإضافة الدالة على حصوله له ومن ذلك قوله تعالى (أولئك لهم اللعنة) [الرعد : ٢٥] . و لم يقل عليهم اللعنة إيذاناً بحصول معناها وثبوته لهم ، وكذلك قوله (ولكم الويل مما تصفون) [الأنبياء : ١٨] . ويقول في ضد هذا لك الرحمة ولك التحية ولك السلام ، ومنه هذه الآية (فسلام لك) أي ثبت لك السلام وحصل لك وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب فهو خطاب للجنس أي فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين كما تقول : هنيئاً لك يا من هو منهم ، ولهذا والله أعلم أتى بحرف (من) في قوله : ﴿ **من أصحاب اليمين** ﴾ والجار والمجرور في موضع حال أي سلام لك كائناً من أصحاب اليمين كما تقول هنيئاً لك من أتباع رسول الله وحزبه ، أي كائناً منهم والجار والمجرور بعد معرفة ينتصب على الحال كما تقول أحببتك من أهل الدين والعلم أي كائناً منهم فهذا معنى هذه الآية وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير فقد حام عليه منهم من حام وما ورد ولا كشف المعنى ولا أوضحه فراجع ما قالوه ، والله الموفق المان بفضله[1] .

* * *

(١) بدائع الفوائد (١٤٦/٢-١٤٧) .

سُورَةُ الحَدِيدِ





بسم الله الرحمن الرحيم

وأرشد من بلي بشيء من وسوسة التسلسل في الفاعلين إذا قيل له : هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ أن يقرأ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] .

كذلك قال ابن عباس لأبي زميل سماك بن الوليد الحنفي وقد سأله : ما شيء أجده في صدري ؟ قال : ما هو ؟ قال : قلت : والله لا أتكلم به .

قال : فقال لي : أشيء من شك ؟ قلت : بلى . فقال لي : ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله عز وجل (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك)[1] [يونس : ٩٤] . قال : فقال لي : فإذا وجدت في نفسك شيئاً ، فقل : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء وبطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه لكان ذلك هو الرب الخلاق ولابد أن ينتهي الأمر إلى خالق غير مخلوق وغني عن غيره وكل شيء فقير إليه ، قائم بنفسه وكل شيء قائم به موجود بذاته وكل شيء موجود به ، قديم لا أول له وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه ، باق لذاته ، وبقاء كل شيء به ، فهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء ، الظاهر الذي ليس فوقه

(١) راجع الآية (٩٤) من سورة يونس .

شيء ، الباطن الذي ليس دونه شيء[١] .

قال تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : ١١] .

فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر ، والمعنى : هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافاً مضاعفة ؟ وسمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً ، حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل ؛ لأن الباذل متى علم أن المستقرض مليءٌ وفيٌّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه فإن علم أن عين ماله يعود إليه ولابد طوعت له نفسه بذله ، وسهل عليه إخراجه فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف إيمانه . ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها، وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية ، فإنه سماه قرضاً وأخبر أنه هو المقترض لاقرض حاجة ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء لمعاملته ، وليعرف مقدار الربح فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة ، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم . وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسناً وذلك يجمع أموراً ثلاثة :

أحدها : أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه .

الثاني : أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله .

---

(١) زاد المعاد (٢/٤٦١-٤٦٢) .

الثالث : أن لا يمن به ولا يؤذي فالأول يتعلق بالمال والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله والثالث بينه وبين الآخذ[1] .

قال الله تعالى: ﴿ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ . ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿ بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد : ١٣-١٤] .

وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة ، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه . وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم ؛ فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء ، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفراً وأخبث قلوباً ، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم ، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين[2] .

قال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد : ١٩] .

وقيل : إن الوقف على قوله تعالى ﴿ **هم الصديقون** ﴾ ثم يبتدىء ﴿ **والشهداء عند ربهم** ﴾ فيكون الكلام جملتين :

أخبر في إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون ، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه .

وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين ، هنا وفى سورة

---

(١) طريق الهجرتين (٣٣٨-٣٣٩) .

(٢) طريق الهجرتين (٣٧٥) .

النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيد » ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضي الله عنه .

وقيل : إن الكلام كله جملة واحدة وأخبر عن المؤمنين بأنهم الصديقون والشهداء عند ربهم ، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة وهو قوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس) [البقرة : ١٤٣] . وهم المؤمنون فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفاً لجملة المؤمنين الصديقين ، وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله . وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين ويكون قوله ﴿ والشهداء ﴾ مبتدأ خبره ما بعده لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً في سبيل الله ، ويرجحه أيضاً أنه لو كان الشهداء داخلا في جملة الخبر لكان قوله تعالى ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ [الحديد : ١٩] . داخلا أيضاً في جملة الخبر عنهم ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء :

أحدها : أنهم هم الصديقون .

والثاني : أنهم هم الشهداء .

والثالث : أن لهم أجرهم ونورهم .

وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف ، وهذا كما تقول : « زيد كريم وعالم له مال » والأحسن في هذا تناسب الأخبار بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعاً فتقول : زيد كريم عالم له مال ، أو كريم وعالم وله مال ، فتأمله .

ويرجحه أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء ، وهم الصديقون والشهداء والصالحون وهم المذكورون في الآية وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً فهولاء ثلاثة أصناف ثم ذكر الرسل في قوله تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات) [الحديد : ٢٥] . فيتناول ذلك الأصناف

الأربعة المذكورة في سورة النساء فهؤلاء هم السعداء ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان : كفار ومنافقون فقال تعالى (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) [الحديد : ١٩] وذكر المنافقون في قوله تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) [الحديد : ١٣] . فهؤلاء أصناف العالم كلهم وترك سبحانه وتعالى ذكر المخلط صاحب الشائبتين على طريقة القرآن في ذكر السعداء والأشقياء دون المخلطين غالباً لسر اقتضته حكمته فليحذر صاحب التخليط فإنه لا ضمان له على الله ولا هو من أهل وعده المطلق[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قد ذكر الله النوعين في سورة الحديد في قول الله تعالى : ﴿ **إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم** ﴾ [الحديد : ١٨] . فهؤلاء أصحاب الأجور والثواب ثم قال : ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون** ﴾ فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب ثم قال : ﴿ **والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ فقيل هذا عطف على الخبر من ﴿ **الذين آمنوا بالله ورسله** ﴾ أخبر عنهم بأنهم هم الصديقون وأنهم الشهداء الذين يشهدون على الأمم ثم أخبر عنهم أن لهم أجراً وهو قوله تعالى : ﴿ **لهم أجرهم ونورهم** ﴾ فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور : أنهم صديقون وشهداء فهذه هي المرتبة والمنزلة .

قيل : تم الكلام عند قوله تعالى ﴿ **الصديقون**﴾ ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء فقال : ﴿ **والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان ثم المؤمنين الذين قد رسخ الإيمان في قلوبهم وامتلأوا منه فهم الصديقون وهم أهل العلم والعمل والأولون أهل البر والإحسان ولكن هؤلاء أكمل صديقية منهم ، ثم ذكر الشهداء وأنه تعالى يجري عليهم رزقهم ونورهم لأنهم لما بذلوا أنفسهم لله تعالى أثابهم الله تعالى عليها أن جعلهم أحياء

(١) طريق الهجرتين (٣٢٨-٣٢٩) .

عنده يرزقون فيجري عليهم رزقه ونورهم فهؤلاء السعداء ثم ذكر الأشقياء فقال : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ والمقصود أنه سبحانه وتعالى ذكر أصحاب الأجور والمراتب . وهذان الأمران هما اللذان وعدهما فرعون السحرة إن غلبوا موسى عليه الصلاة والسلام فقالوا : (إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين) [الأعراف : ١١٤] .

أي أجمع لكم بين الأجر والمنزلة عندي والقرب مني فالعمال عملوا على الأجور والعارفون عملوا على المراتب والمنزلة والزلفى عند الله .

وأعمال هؤلاء القلبية أكثر من أعمال أولئك وأعمال أولئك البدنية قد تكون أكثر من أعمال هؤلاء(١) .

قال تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ ﴾ [الحديد : ٢٠] .

فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولى البصائر وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان واللعب واللهو لا حقيقة لهما ، وأنهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت يقطع بها الجاهلون العمر فيذهب ضائعا في غير شيء ثم أخبر أنها زينة زُينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة ولما آثرتها على الأجل الدائم الذي هو خير وأبقى ، قال الإمام : حدثنا وكيع وحدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها »(٢) .

---

(١) الوابل الصيب (٨٧-٨٨) .

(٢) عدة الصابرين (١٦٨-١٦٩) .

قال رحمه الله تعالى :

قال أبو داود الطيالسي ثنا عبد المؤمن هو ابن عبد الله قال : كنا عند الحسن فأتاه يزيد بن أبي مريم السلولي يتوكأ على عصا فقال : يا أبا سعيد أخبرني عن قول الله عز وجل (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) [الحديد : ٢٢] . فقال الحسن : نعم والله إن الله ليقضي القضية في السماء ثم يضرب لها أجلا إنه كائن في يوم كذا وكذا في ساعة كذا وكذا في الخاصة والعامة حتى أن الرجل ليأخذ العصا ما يأخذها إلا بقضاء وقدر . قال يا أبا سعيد : والله لقد أخذتها وأني عنها لغني ثم لا صبر لي عنها . قال الحسن : أو لا ترى .

واختلف في الضمير في قوله ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [الحديد:٢٣] فقيل: هو عائد على الأنفس لقربها منه ، وقيل : هو عائد على الأرض ، وقيل : عائد على المصيبة ، والتحقيق أن يقال : هو عائد على البرية التي تعم هذا كله ودل عليه السياق وقوله ﴿ نبرأها ﴾ فينتظم التقادير الثلاثة انتظاماً واحداً . والله أعلم[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر سبحانه أنه قدر ما يصيبهم من البلاء في أنفسهم قبل أن يبرأ الأنفس أو المصيبة أو الأرض أو المجموع وهو الأحسن ، ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه وأنه يسير عليه وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده على ما فاتهم إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته ، ولابد قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفائت فلم يأسوا عليه ولم يفرحوا بالحاصل لعلمهم أن المصيبة مقدرة في كل ما على الأرض فكيف يفرح بشيء قد قدرت المصيبة فيه قبل خلقه ، ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل ، ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها

(١) شفاء العليل (٧) .

وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع ، وهذه هي أنواع المصائب فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه هانت عليه وخف حملها وأنزلها منزلة الحر والبرد[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قيل : من قبل أن نبرأ المصيبة ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأرض ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأنفس وهو أولى لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ، ولو قيل : يرجع إلى الثلاثة أي من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه[٢] .

قال تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

دل ذلك أن في نفس الأمر قسطاً وأن الله سبحانه أنزل كتابه وأنزل الميزان وهو العدل لتقوم الناس بالقسط أنزل الكتاب لأجله والميزان ، فعلم أن في نفس الأمر ما هو قسط وعدل حسن ومخالفته قبيحة ، وأن الكتاب والميزان نزلا لأجله ومن ينفي الحسن والقبح يقول : ليس في نفس الأمر ما هو عدل حسن وإنما صار قسطاً وعدلاً بالأمر فقط ونحن لا ننكر أن الأمر كساه حسنا وعدلا إلى حسنه وعدله في نفسه فهو في نفسه قسط حسن وكساه الأمر حسناً آخر يضاعف به كونه عدلاً فصار ذلك ثابتاً له من الوجهين جميعاً[٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

أخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ، ومن أعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل ، وقوامه وأن الشرك لظلم عظيم فالشرك أظلم الظلم والتوحيد أعدل العدل فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر ، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له ، وما كان أشد موافقة لهذا

---

(١) شفاء العليل (١٩٤) .
(٢) الروح (١٤٩) .
(٣) مفتاح دار السعادة (٣٣٦) .

المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات[1] .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : ٢٧] .

« رهبانية » منصوب « بابتدعوها » على الاشتغال إما بنفس الفعل المذكور – على قول الكوفيين – وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور – على قول البصريين – أي وابتدعوا رهبانية . وليس منصوباً بوقوع الجعل عليه فالوقف التام عند قوله ﴿ **ورحمة** ﴾ ثم يبتدىء ﴿ **ورهبانية ابتدعوها** ﴾ أي لم نشرعها لهم . بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم ولم نكتبها عليهم .

وفي نصب قوله ﴿ **إلا ابتغاء رضوان الله** ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه مفعول له ، أي لم نكتبها عليهم إلا إبتغاء رضوان الله وهذا فاسد ، فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه . كيف وقد أخبر : أنهم هم ابتدعوها ؟ فهي مبتدعة غير مكتوبة . وأيضاً فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه فيتحد السبب والغاية نحو قمت إكرماً . فالقائم هو المكرم . وفعل الفاعل ها هنا هو « الكتابة » و ﴿ **ابتغاء رضوان الله** ﴾ فعلهم ، لا فعل الله فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله . لاختلاف الفاعل .

وقيل : بدل من مفعول « كتبناها » أي ما كتبناه عليهم إلا ابتغاء رضوان الله وهو فاسدأيضاً ، إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية فتكون بدل الشيء من الشيء . ولا بعضها ، فتكون بدل بعض من كل . ولا أحدهما مشتمل على الآخر ، فتكون بدل اشتمال . وليس بدل غلط .

فالصواب : أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع أي لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله . ودل على هذا قول « ابتدعوها » ثم ذكر الحامل

(١) الجواب الكافي (١٩٠) .

لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله ثم ذمهم بترك رعايتها . إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وهو إجماع – أو كالإجماع – في أحد النسكين .

قالوا : والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاءً يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً .

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة . والقصد : أن الله سبحانه وتعالى ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها . فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده وأذن بها وحث عليها[1] .

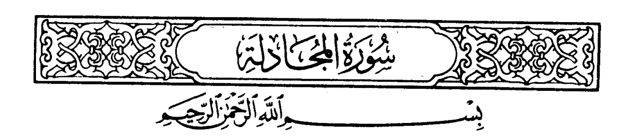
قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

وفي قوله ﴿ **تمشون به** ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو بالنور وأن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم ولا نافع لهم بل ضرره أكثر من نفعه ، وفيه أن أهل النور هم أهل المشي في الناس ، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع ، فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم ولا لأقوالهم ولا لأقدامهم إلى الطاعات ، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم وفي قوله ﴿ **تمشون به** ﴾ نكتة بديعة وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها بين الناس في الدنيا ، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه[2] .

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/٦٠) .
(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٥-٦) .

سُورَةُ المجَادلَة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١].

فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه في إثبات صفة السمع للرب تعالى حقيقة وأنه بنفسه سمع[١].

حُكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهار، وبيان ما أنزل الله فيه، ومعنى العودِ الموجبِ للكفارة

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. [المجادلة: ٢-٤]

---

(١) الصواعق المرسلة (١/٣٩٠).

ثبت في « السنن » و « المساند »[١] : أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة ، وهي التي جادلت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتكت إلى الله ، وسمع الله شكواها مِن فوق سبع سماوات ، فقالت : يا رسول الله ! إن أوسَ بنَ الصامت تزوَّجني وأنا شابة مرغوب فيَّ : فلما خلا سني ، ونثرت له بطني ، جعلني كأمِّهِ عنده ، فقال لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَا عِنْدِي في أمرك شيءٌ » فقالت : اللهم إني أشكو إليك[٢].

ورُوي أنها قالت : إن لي صبيةً صِغاراً إن ضمَّهم إليه ؛ ضاعُوا ، وإن ضممتُهم إليَّ ؛ جَاعُوا ، فنزلَ القرآنُ .

وقالت عائشة[٣] : الحمدُ لله الذي وَسِعَ سمعهُ الأصواتَ ، لقد جاءت خولةُ بنتُ ثعلبة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في كِسْرِ البيت يَخْفى عليَّ بعضُ كلامِها ، فأنزل الله عزَّ وجَلَّ ﴿ **قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّتي تُجَادِلُكَ في زَوْجِهَا وتَشْتكي إلى الله والله يَسْمَعُ تَحاوُرَكما إنَّ الله سميعٌ بَصيرٌ** ﴾ [المجادلة : ١] .

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم « لِيُعْتِقْ رَقَبَةً » ، قالت : لا يجد ، قال : « فَيَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ » ، قالت : يا رسول الله ! إنه شيخ كبير ما بِهِ مِنْ صيام ، قال : « فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكيناً » ، قالت : ما عنده من شيء يتصدَّقُ به ، **قالت : فأتي ساعتئذ بِعَرق مِنْ تَمْر ، قلت : يارسول الله ، فإني أعينه بعَرق**

---

(١) حديث « خولة بنت مالك بن ثعلبة » صحيح ، مشهور في تفسير آيات الظهار ، ورواه كثير من أئمة السنة مطولاً ومختصراً . انظر الدر المنثور (٨ / ٦٩) .

(٢) روى قريباً منه ابن ماجه (الصحيح) (١ / ٣٥١) في الطلاق ، باب : الظهار .
والحاكم (٢ / ٤٨١) . ومعنى « ونثرت له بطني » أي أنها ولدت له أولاداً كثيرين وهي شابة .

(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٦ / ٤٦) .
والنسائي (٦ / ١٦٨) في الطلاق ، باب : الظهار .
والطبري (٢٨ / ٢) .
وعلق البخاري قول عائشة رضي الله عنها (٣٨٤/١٣) في التوحيد، باب ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾.

آخرَ ، قالَ : « أحْسَنْتِ فَأَطْعِمي عَنْهُ سِتِّينَ مِسْكيناً وارْجعي إلى ابْنِ عَمِّكِ »(١).

وفي السنن : أن سلمة بن صخر البياضي ظاهر مِن امرأته مدةَ شهرِ رمضان ، ثم واقعها ليلةً قبل انسلاخه ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أنتَ بِذَاكَ يَا سَلمة » ، قال : قلت : أنا بِذَاكَ يا رسول الله مرتين وأنا صابر لأمر الله ، فاحكمْ فيَّ بما أراك الله ، قال : « حَرِّرْ رَقَبَةً » ، قلت : والذي بعثك بالحقِّ نبياً ما أملِكُ رقبة غيرَها ، وضربتُ صفحة رقبتي ، قال : « فَصُمْ شَهْرَيْنِ متتابعَين » ، قال : وهل أصبتُ الذي أصبتُ إلا في الصيامِ ، قال : « فأطعم ، وسْقاً مِن تمرٍ بين سِتينَ مسكيناً » قلت : والَّذي بعثك بالحقِّ لقد بِتْنَا وَحْشَيْن ما لنا طَعَام ، قال : « فانْطَلِقْ إلى صَاحِبِ صَدَقَة بَني زُرَيْق فَلْيَدْفَعْهَا إلَيْكَ فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً وَسْقاً مِنْ تَمرٍ وكُلْ أنْتَ وعِيَالُكَ بَقِيَّتَها » . قال : فَرُحْتُ إلى قومي ، فقلتُ : وجدت عندكم الضيقَ وسوء الرأي ، ووجدتُ عندَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم السَّعَةَ وحُسْنَ الرأي ، وقد أمر لي بصدَقَتِكم(٢).

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس ، أنَّ رجلاً أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد ظاهَرَ مِن امرأته فوقع عليها ، فقال : يا رسولَ الله إني ظاهرتُ مِن امرأتي ، فوقعتُ عليها قَبْلَ أن أكفِّر ، قال : « وَمَا حَمَلَكَ عَلى ذلِكَ يَرْحَمُكَ الله » قال : رَأَيْتُ خَلْخَالَها في ضَوْءِ القَمَرِ ، قال « فَلاَ تَقْرَبْها حَتَّى تَفْعَل مَا أَمَرَكَ الله »(٣) قال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦ / ٤١٠) .
وأبو داود (الصحيح) (٢ / ٤١٨) في الطلاق ، باب : في الظهار وقال الألباني: « حسن ».

(٢) حديث صحيح .
رواه أبو داود (الصحيح) (٢ / ٤١٦) في الطلاق ، باب : في الظهار .
والترمذي (٥ / ٣٧٧) في التفسير، باب : سورة المجادلة وقال: « حديث حسن ».
وابن ماجه (الصحيح) (٢ / ٣٥١) في الطلاق ، باب : في الظهار .
والحاكم (٢ / ٢٠٣) وصححه ووافقه الذهبي، وراجع الإرواء (٧ / ١٧٦) .

(٣) رواه الترمذي (٣ / ٥٠٢) في الطلاق ، باب : ما جاء في المظاهر يواقع قبل أن يكفر، وقال: « حسن غريب صحيح » .

وفيه أيضاً : عن سلمة بن صخر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في المظاهر يُواقِعُ قبل أن يُكَفِّر ، فقال : « كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ »[1]. وقال : حسن غريب ، انتهى ، وفيه انقطاع بين سليمان بن يسار ، وسلمة بن صخر .

وفي مسند البزار ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن عمرو بن دينار ، عن طاووس ، عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : أتى رجلٌ إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني ظاهرتُ من امرأتي ، ثم وقعتُ عليها قبل أن أُكفِّر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألم يقل الله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ ؟ » فقال : أَعْجَبَتْني ، فقال : « أَمْسِكْ عنها حَتَّى تُكَفِّرَ » قال البزار : لا نعلمه يُروى بإسناد أحسنَ من هذا ، على أن إسماعيل بن مسلم قد تُكلِّم فيه ، وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم .

فتضمنت هذه الأحكام أموراً :

أحدُها : إبطال ما كانوا عليه في الجاهلية ، وفي صدر الإسلام من كون الظهار طلاقاً ، ولو صرَّح بنيته له ، فقال : أنتِ عليَّ كظهر أمي ، أعني به الطلاق ، لم يكن طلاقاً وكان ظهاراً ، وهذا بالاتفاق إلا ما عساه من خلاف شاذ ، وقد نصَّ عليه أحمد والشافعي وغيرهما . قال الشافعي : ولو ظاهر يُريد طلاقاً ، كان ظهاراً ، أو طلَّق يُريد ظهاراً كان طلاقاً ، هذا لفظه ، فلا يجوز أن يُنسب إلى مذهبه خلافُ هذا ، ونص أحمد على أنه إذا قال : أنت عليَّ كظهر أمي أعني به الطلاقَ أنه ظهار ، ولا تُطلق به ، وهذا لأن الظهار كان طلاقاً في الجاهلية ، فنسخ ، فلم يجزْ أن يُعاد إلى الحكم المنسوخ .

= وابن ماجه (الصحيح) (١ / ٣٥٢) في الطلاق ، باب : المظاهر يجامع قبل أن يكفر .
والنسائي (١٦٧/٦) في الطلاق ، باب : الظهار .
وانظر الإرواء (٧ / ١٧٩) .

(١) رواه الترمذي (الصحيح) (١ / ٣٥٢) في الطلاق ، باب : في المظاهر يواقع قبل أن يكفر، وقال: « حسن غريب ، والعمل عليه ... » وصححه الألباني .
وابن ماجه (الصحيح) (١ / ٣٥٢) في الطلاق ، باب : المظاهر يجامع قبل أن يكفر .

وأيضاً فأوس بن الصامت إنما نوى به الطلاقَ على ما كان عليه ، **وأجري** عليه حكم الظهار دون الطلاق .

وأيضاً فإنه صريح في حكمه ، فلم يجز جعلُه كناية في الحكم الذي أبطله عز وجل بشرعه ، وقضاء الله أحقُّ ، وحكم الله أوجبُ .

ومنها : أن الظهار حرام لا يجوزُ الإقدامُ عليه لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور ، وكلاهما حرام ، والفرقُ بين جهة كونه منكراً وجهةِ كونه زوراً أن قوله : أنت عليَّ كظهر أمي يتضمنُ إخباره عنها بذلك ، وإنشاءه تحريمها ، فهو يتضمن إخباراً وإنشاءً ، فهو خبرٌ زورٌ وإنشاءٌ منكرٌ فإن الزور هو الباطل خلاف الحق الثابت ، والمنكر خلاف المعروف ، وختم سبحانه الآية بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُور ﴾ .

وفيه إشعار بقيام سبب الإثم الذي لولا عفوُ الله ومغفرته لآخذ به .

ومنها : أن الكفارة لا تجب بنفس الظهار ، وإنما تجبُ بالعود ، وهذا **قولُ** الجمهور ، وروى الثوري ، عن ابن أبي نَجيح ، عن طاووس قال : إذا تكلَّم بالظهار ، فقد لَزِمَه ، وهذه رواية ابن أبي نجيح عنه ، وروى معمر ، عن طاووس ، عن أبيه في قوله تعالى : ﴿ **ثمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا** ﴾ ، قال : جعلها عليه كظهر أمه ، ثم يعُود ، فيطؤها ، فتحرير رقبة . وحكى الناس عن مجاهد : أنه تجب الكفارةُ بنفس الظهار ، وحكاه ابنُ حزم عن الثوري ، وعثمان البتي ، وهؤلاء لم يخف عليهم أن العود شرط في الكفارة ، ولكنِ العود عندهم هو العود إلى ما كانوا عليه في الجاهلية من التظاهر ، كقوله تعالى في جزاء الصيد : (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ) [المائدة : ٩٥] أي : عاد إلى الاصطياد بعد نزول تحريمه ، ولهذا **قال : (عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ)** [المائدة : ٩٥] . **قالوا : ولأن الكفارة إنما وجبت في مقابلة ما تكلم به من المنكر والزور ، وهو الظهارُ دون الوطء ، أو العزم عليه ،** قالوا : ولأن الله سبحانه لما حرَّم الظهار ، ونهى عنه كان العود هو فعل المنهي عنه ، كما قال تعالى : (عَسى رَبُّكُم أَنْ يَرْحَمَكُمْ وإنْ عُدْتُم عُدْنَا) [الإسراء : ٨] أي : إن عدتم إلى الذنب ، عدنا إلى العقوبة ، فالعودُ هنا نفسُ فعلِ المنهي عنه .

قالوا : ولأن الظهارَ كان طلاقاً في الجاهلية ، فُنقِلَ حكمهُ من الطلاق إلى الظهار ، ورتب عليه التكفير ، وتحريم الزوجة حتى يكفِّر ، وهذا يقتضي أن يكون حكمهُ معتبراً بلفظه كالطلاق .

ونازعهم الجمهور في ذلك ، وقالوا : إن العود أمرٌ وراء مجرد لفظ الظهار ، ولا يَصِحُّ حمل الآية على العود إليه في الإسلام لثلاثة أوجه :

أحدها : أن هذه الآية بيان لحكم من يُظاهر في الإسلام ، ولهذا أتى فيها بلفظ الفعل مستقبلاً ، فقال : ﴿ **يُظاهرون** ﴾ ، وإذا كان هذا بياناً لحكم ظِهار الإسلام ، فهو عندكم نفسُ العود ، فكيف يقول بعده : ﴿ **ثم يعودون** ﴾ ، وإن معنى هذا العود غير الظهار عندكم ؟ .

الثاني : أنه لو كان العودُ ما ذكرتم ، وكان المضارعُ بمعنى الماضي ، كان تقديرُه : والذين ظاهروا مِن نسائهم ، ثم عادوا في الإسلام ، ولما وجبت الكفارةُ إلا على من تظاهر في الجاهلية ثم عاد في الإسلام ، فمِن أين تُوجبونها على من ابتدأ الظهار في الإسلام غيرَ عائد ؟ فإن هنا أمرين : ظِهار سابق ، وعود إليه ، وذلك يبطلُ حكم الظهار الآن بالكلية إلا أن تجعلوا « يظاهرون » لفرقة ويعودون لفرقة ، ولفظ المضارع نائباً عن لفظ الماضي وذلك مخالف للنظم ، ومخرج عن الفصاحة .

الثالث : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أمر أوسَ بن الصَامت ، وسلمة بن صخر بالكفارة ، ولم يسألهما : هل تظاهرا في الجاهلية أم لا ؟ فإن قلتم : ولم يسألهُما عن العود الذي تجعلونه شرطاً ، ولو كان شرطاً ، لسألهما عنه . قيل : أما من يجعلُ العود نفس الإمساك بعد الظهار زمناً يُمْكِنُ وقوع الطلاق فيه ، فهذا جارٍ على قوله ، وهو نفسُ حجته ، ومن جعل العودَ هو الوطء والعزم ، قال : سياق القصة بيِّن في أن المتظاهرين كان قصدُهم الوطء ، وإنما أمسكوا له ، وسيأتي تقريرُ ذلك إن شاء الله تعالى .

وأما كون الظهار منكراً من القول وزوراً ، فنعم هو كذلك ، ولكن الله

عز وجل إنما أوجب الكفارة في هذا المنكر والزور بأمرين : به ، وبالعود ، كما أن حكم الإيلاء إنما يترتب عليه وعلى الوطء لا على أحدهما .

فصـــل

وقال الجمهور : لا تجبُ الكفارةُ إلا بالعود بعد الظهار ، ثم اختلفوا في معنى العود : هل هو إعادة لفظ الظهارِ بعينه ، أو أمر وراءه ؟ على قولين ، فقال أهلُ الظاهر كُلُّهم : هو إعادة لفظِ الظهارِ ، ولم يحكُوا هذا عن أحد من السلف البتة ، وهو قول لم يُسبقوا إليه ، وإن كانت هذه الشَّكاةُ لا يكاد مذهب من المذاهب يخلو عنها . قالوا : فلم يوجب الله سبحانه الكفارة إلا بالظهار المعاد لا المبتدأ . قالوا : والاستدلال بالآية من ثلاثة وجوه :

أحدها : أن العرب لا يُعقل في لغاتها العودُ إلى الشيء إلا فعل مثله مرةً ثانية ، قالوا : وهذا كتابُ الله ، وكلامُ رسوله ، وكلامُ العرب بيننا وبينكم ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام : ٢٨] ، فهذا نظيرُ الآية سواء في أنه عدَّى فعل العود باللام ، وهو إتيانُهم مرة ثانية بمثل ما أتوا به أولاً ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء : ٨] أي : إن كررتم الذنب ، كررنا العقوبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [المجادلة : ٨] وهذا في سورة الظهار نفسها ، وهو يُبين المرادَ مِن العود فيه ، فإنه نظيرُه فعلاً وإرادة ، والعهد قريب بذكره .

قالوا : وأيضاً ، فالذي قالوه : هو لفظُ الظهار ، فالعود إلى القول هو الإتيانُ به مرة ثانية لا تعقِلُ العرب غيرَ هذا . قالوا : وأيضاً فما عدا تكرار اللفظ إما إمساك ، وإما عزم ، وإما فعل ، وليس واحد منها بقول ، فلا يكون الإتيان به عوداً ، لا لفظاً ولا معنى ، ولأن العزم والوطءَ والإمساكَ ليس ظهاراً ، فيكون الإتيان بها عوداً إلى الظهار .

قالوا : ولو أريد بالعودِ الرجوعُ في الشيء الذي منع منه نفسه كما يُقال :

عاد في الهبة ، لقال : ثم يعودون فيما قالوا ، كما في الحديث : « العَائِدُ في هِبتِهِ ، كَالعَائِد في قَيْئِهِ »[١].

واحتج أبو محمد بن حزم بحديث عائشة رضي الله عنها ، أن أوس بن الصامت كان به لمم ، فكان إذا اشتدَّ به لَمَمُه ، ظاهَرَ من زوجته ، فأنزل الله عز وجَلَّ فيه كفارةَ الظهار[٢] . فقال : هذا يقتضي التكرارَ ولا بُدَّ ، قال : ولا يصِحُّ في الظهار إلا هذا الخبرُ وحدَه ، قال : وأما تشنيعُكم علينا بأن هذا القولَ لم يَقُلْ بهِ أحد من الصحابة ، فأرونا مِن الصحابة من قال : إن العود هو الوطء ، أو العزم ، أو الإمساك ، أو هو العود إلى الظهار في الجاهلية ولو عن رجل واحدٍ من الصحابة ، فلا تكونون أسعدَ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منا أبداً .

فصــل

ونازعهم الجمهورُ في ذلك ، وقالوا : ليسَ معنى العود إعادة اللفظ الأول ، لأن ذلك لو كان هو العود ، لقال : ثُمَّ يُعيدون ما قالوا ، لأنه يُقال : أعاد كلاَمَه بعينه ، وأما عاد ، فإنما هو في الأفعال ، كما يقال : عاد في فعله ، وفي هبته ، فهذا استعماله بـ«في» . ويقال : عاد إلى عمله وإلى ولايته ، وإلى حاله ، وإلى إحسانه وإساءته ، ونحوِ ذلك ، وعاد له أيضاً .

وأما القول : فإنما يقال : أعاده كما قال ضِماد[٣] بن ثعلبة للنبي صلى الله عليه وسلم : أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ وكما قال أبو سعيد : أَعِدْهَا عَلَيَّ يا رسول الله ،

---

(١) رواه البخاري (٥ / ٢٧٧) في الهبة ، باب : لا يحل لأحد أن يرجع في هبته ..
ومسلم (٤ / ١٤٦) نفس الكتاب والباب .

(٢) رواه أبو داود (٢ / ٤١٨) في الطلاق ، باب: الظهار، وقال الألباني: صحيح .
وانظر المحلى لابن حزم (١٠ / ٥٢) كتاب الظهار .

(٣) رواه مسلم (٢ / ٥٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنه في الجمعة، باب: خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في الجمعة .

وهذا ليس بلازم ، فإنه يقال : أعاد مقالته ، وعاد لِمقالته ، وفي الحديث : « فعاد لمقالته » ، بمعنى أعادها سواء ، وأفسدُ مِن هذا ردُّ مَنْ رَدَّ عليهم بأن إعادةَ القول محال ، كإعادة أمس ، قال : لأنه لا يتهيأ اجتماعُ زمانين ، وهذا في غاية الفساد ، فإن إعادةَ القولِ مِن جنس إعادة الفعل ، وهي الإتيان بمثل الأول لا بعينه ، والعجبُ مِن متعصِّب يقول : لا يُعْتَدُّ بخلاف الظاهرية ، ويبحثُ معهم بمثل هذه البحوث ، ويردُّ عليهم بمثل هذا الردِّ ، وكذلك ردُّ من ردَّ عليهم بمثل العائد في هبته ، فإنه ليس نظيرَ الآية ، وإنما نظيرُها (أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ) [المجادلة : ٨] ، ومع هذا فهذِهِ الآية تُبين المرادَ مِن آية الظهار ، فإن عودَهم لِمَا نُهُوا عنه ، هو رجوعُهم إلى نفس المنهي عنه ، وهو النجوى ، وليس المرادُ به إعادةَ تلك النجوى بعينها ، بل رجوعُهم إلى المنهي عنه ، وكذلك قولُه تعالى في الظهار : ﴿ يَعُودونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أي : لقولهم . فهو مصدر بمعنى المفعول ، وهو تحريمُ الزوجة بتشبيهها بالمحرَّمة ، فالعودُ إلى المحرم هو العودُ إليه ، وهو فعلهُ ، فهذا مأخذُ من قال : إنه الوطء .

ونكتة المسألة : أن القولَ في معنى المقول ، والمقول هو التحريم ، والعود له هو العودُ إليه ، وهو استباحته عائداً إليه بعد تحريمه ، وهذا جارٍ على قواعد اللغة العربية واستعمالِها ، وهذا الذي عليه جمهورُ السلف والخلف ، كما قال قتادة ، وطاووس ، والحسن ، والزهريُّ ، ومالك ، وغيرُهم ، ولا يُعرف عن أحد مِن السلف أنه فسر الآية بإعادة اللفظ البتة لا من الصحابة ، ولا مِن التابعين ، ولا مَنْ بعدهم ، وهاهنا أمر خفيَ على مَنْ جعلَه إعادةَ اللفظ ، وهو أن العودَ إلى الفعل يستلزِمُ مفارقة الحال التي هو عليها الآن ، وعودَه إلى الحال التي كان عليها أولاً ، كما قال تعالى (وإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا) [الإسراء : ٨] . ألا ترى أن عودهم مفارقة ما هم عليه من الإحسان ، وعودُهم إلى الإساءة ، وكقول الشاعر :

وإنْ عَادَ لِلإحْسَانِ فَالعَوْدُ أَحْمَدُ

والحَالُ التي هو عليها الآن التحريمُ بالظهار ، والتي كان عليها إبان الوطء **بالنكاح الموجب للحل، فَعَوْدُ المظاهر عودٌ إلى حِلٍّ كان عليه قبل الظهار، وذلك**

هو الموجبُ للكفارة فتأمله ، فالعودُ يقتضي أمراً يعودُ إليه بعدَ مفارقته ، وظهر سِرُّ الفرق بينَ العود في الهبة ، وبينَ العود لما قال المظاهِرُ ، فإنَّ الهبة بمعنى الموهوب وهو عين يتضمَّن عودُه فيه إدخالَه في مُلكِهِ وتصرُّفه فيه ، كما كان أولاً ، بخلاف المظاهر ، فإنه بالتحريم قد خرج عن الزوجية ، وبالعودِ قد طلب الرجوعَ إلى الحالِ التي كان عليها معها قَبلَ التحريم ، فكان الألْيق أن يقال : عاد لكذا ، يعني : عاد إليه . وفي الهبة : عاد إليها ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أوسَ بن الصامِت ، وسلمة بن صخر بكفارة الظِّهار ، ولم يتلفظا به مرتين ، فإنَّهما لم يُخبرا بذلك عن أنفسهما ، ولا أخبر به أزواجُهما عنهما ، ولا أحدٌ من الصحابة ، ولا سألهما النبيُّ صلى الله عليه وسلم : هَلْ قلتُما ذلك مرة أو مرتين ؟ ومثلُ هذا لو كان شرطاً لما أهمل بيانه .

وسِرُّ المسألة أن العودَ يتضمن أمرين : أمراً يعود إليه ، وأمراً يعود عنه ، ولا بُدَّ منهما فالذي يعود عنه يتضمَّن نقضَه وإبطاله ، والذي يعودُ إليه يتضمَّن إيثاره وإرادته ، فعودُ المظاهر يقتضي نقضَ الظِهار وإبطاله ، وإيثار ضدِّه وإرادته ، وهذا عينُ فهم السلفِ من الآية ، فبعضُهم يقول : إن العود هو الإصابة ، وبعضُهم يقول : الوطء ، وبعضُهم يقول : اللمس ، وبعضُهم يقول : العزم .

وأما قولُكم : إنه إنما أوجب الكفارة في الظهار المعاد ، إن أردتم به المعاد لفظُه ، فدعوى بحسب ما فهمتموه ، وإن أردتم به الظهارَ المعادَ فيه لما قال المظاهِرُ ، لم يَسْتَلزم ذلك إعادة اللفظ الأول .

وأما حديث عائشة رضي الله عنها في ظِهار أوس بن الصامت ، فما أصحَّه ، وما أبعدَ دلالته على مذهبكم .

فصــــل

ثمَّ الذين جعلوا العودَ أمراً غيرَ إعادة اللفظ اختلفُوا فيه : هل هو مجردُ إمساكِها بعد الظهار ، أو أمرٌ غيره ؟ على قولين . فقالت طائفة : هو إمساكها

زمناً يتَّسِعُ لقوله : أنت طالق ، فمتى لم يَصِلِ الطلاق بالظهار ، لزِمته الكفارة ، وهو قولُ الشافعي ، قال منازعوه : وهو في المعنى قول مجاهد ، والثوري ، فإن هذا النَّفَسَ الواحدَ لا يُخرِجُ الظِّهارَ عن كونه موجب الكفارة ، ففي الحقيقة لم يُوجب الكفارة إلا لفظُ الظِّهار ، وزمنُ قوله : أنت طالق لا تأثيرَ له في الحكم إيجاباً ولا نفياً ، فتعليقُ الإيجابِ به ممتنع ، ولا تُسمى تلك اللحظةُ والنَّفَسُ الواحد مِن الأنفاس عوداً لا في لغة العرب ولا في عُرف الشارع ، وأيُّ شيء في هذا الجزء اليسير جداً مِن الزمان من معنى العود أو حقيقته ؟ .

قالوا : وهذا ليس بأقوى مِن قول من قال : هو إعادةُ اللفظ بعينه ، فإن ذلك قول معقول يفهم منه العودُ لغةً وحقيقةً ، وأما هذا الجزءُ مِن الزمان ، فلا يفهمُ من الإنسان فيه العود البتة . قالوا : ونحنُ نُطالبكم بما طالبتمُ به الظاهرية : من قال هذا القولَ قبل الشافعي ؟ قالوا : والله سبحانه أوجبَ الكفارةَ بالعودِ بحرف « ثم » الدالة على التراخي عن الظهار ، فلا بد أن يكونَ بينَ العود وبين الظهار مدةٌ متراخية ، وهذا ممتنع عندكم ، وبمجردِ انقضاء قوله : أنت علي كظهر أمي صار عائداً ما لم يصله بقوله : أنتِ طالق ، فأين التراخي والمهلة بين العود والظهار ؟ والشافعي لم ينقل هذا عن أحد من الصحابة والتابعين ، وإنما أخبر أنه أولى المعاني بالآية ، فقال : الذي عَقَلْتُ ممَّا سَمِعْتُ في ﴿ **يعودون لما قالوا** ﴾ ، أنه إذا أتت على المظاهِرِ مدةٌ بعد القول بالظهار ، لم يُحرِّمْهَا بالطلاق الذي يحرم به ، وجبت عليه الكفارةُ ، كأنهم يذهبون إلى أنه إذا أمسك ما حرَّم على نفسه أنه حلال ، فقد عاد لما قال ، فخالفه ، فأحلَّ ما حرم ، ولا أعلمُ له معنى أولى به من هذا[1]. انتهى .

(١) انظر مختصر الأم للمزني (٢٠٣ - ٢٠٤) .

فصـــل

والذين جعلوه أمراً وراءَ الإمساك اختلفوا فيه ، فقال مالك في إحدى الروايات الأربع عنه ، وأبو عُبيد : هو العزم على الوطء ، وهذا قول القاضي أبي يعلى وأصحابه ، وأنكره الإمام أحمد ، وقال مالك : يقول : إذا أجمع ، لزمته الكفارة ، فكيف يكون هذا لو طلَّقها بعد ما يُجمع ، أكان عليه كفارة إلا أن يكون يذهبُ إلى قول طاووس إذا تكلم بالظهارِ ، لزمه مثلُ الطلاق ؟ .

ثم اختلف أربابُ هذا القول فيما لو مات أحدُهما ، أو طلَّق بعد العزم ، وقبل الوطء ، هل تستقر عليه الكفارة ؟ فقال مالك وأبو الخطاب : تستقِرُّ الكفارةُ . وقال القاضي وعامةُ أصحابه : لا تستقِرُّ ، وعن مالك رواية ثانية : أنه العزم على الإمساك وحدَه ، وروايةُ « الموطأ » خلاف هذا كله : أنه العزمُ على الإمساك والوطء معاً . وعنه رواية رابعة : أنه الوطء نفسه ، وهذا قولُ أبي حنيفة وأحمد . وقد قال أحمد في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ يَعُودُون لِمَا قَالُوا** ﴾ ، قال : الغشيانُ إذا أراد أن يغشى ، كَفَّرَ ، وليس هذا باختلاف رواية ، بل مذهبُه الذي لا يُعرف عنه غيره أنه الوطء ويلزمه إخراجها قبله عند العزم عليه .

واحتج أرباب هذا القول بأن الله سبحانه قال في الكفارة : ﴿ **مِنْ قَبْلِ أن يتماسَّا** ﴾ فأوجب الكفارة بعد العود ، وقبل التماس ، وهذا صريح في أن العود غير التماس ، وأن ما يحرم قبل الكفارة ، لا يجوز كونُه متقدماً عليها . قالوا : ولأنه قصد بالظهار تحريمها ، والعزم على وطئها عود فيما قصده . قالوا : ولأن الظِّهار تحريم ، فإذا أراد استباحتها ، فقد رجع في ذلك التحريم ، فكان عائداً . قال الذين جعلوه الوطء : لا ريب أن العود فعل ضد قوله كما تقدم تقريره ، والعائد فيما نهي عنه وإليه وله : هو فاعلُه لا مريدُه ، كما قال تعالى : (ثُمَّ يَعُودونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ) ، فهذا فعل المنهي عنه نفسه لا إرادته ، ولا يلزم أرباب هذا القول ما ألزمهم به أصحابُ العزم ، فإن قولهم : إن العودَ يتقدم التكفير ، والوطء

متأخر عنه ، فهم يقولون : إن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أي : يريدون العود كما قال تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ) ، وكقوله تعالى : (إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وجُوهَكُمْ) [المائدة : ٦] ، ونظائره مما يطلق الفعل فيه على إرادته لوقوعه بها . قالوا : وهذا أولى من تفسير العود بنفس اللفظ الأول ، وبالإمساك نَفَساً واحداً بعد الظهار ، وبتكرار لفظ الظهار ، وبالعزم المجردِ لو طلَّق بعده ، فإن هذِهِ الأقوال كُلَّها قد تبين ضعفها ، فأقرب الأقوال إلى دلالة اللفظ وقواعد الشريعة وأقوال المفسرين ، هو هذا ، وبالله التوفيق .

فصل

ومنها : أن من عجز عن الكفارة ، لم تسقُط عنه ، فإن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أعان أوسَ بنَ الصامت بِعَرَقٍ من تمر ، وأعانته امرأته بمثله ، حتى كفَّر ، وأمر سلمةَ بن صخر أن يأخذ صدقةَ قومه ، فيكفِّر بها عن نفسه ، ولو سقطت بالعجز ، لما أمرهما بإخراجها ، بل تبقى في ذمته ديناً عليه ، وهذا قول الشافعي ، وأحد الروايتين عن أحمد .

وذهبت طائفة إلى سقوطِها بالعجز ، كما تسقط الواجبات بعجزه عنها ، وعن إبدالها .

وذهبت طائفة أن كفارةَ رمضان لا تبقى في ذمته ، بل تسقُط ، وغيرُها من الكفارات لا تسقط ، وهذا الذي صححه أبو البركات ابن تيمية .

واحتجَّ من أسقطها بأنها لو وجبت مع العجز ، لما صُرِفَتْ إليه ، فإن الرجل لا يكونُ مَصْرِفاً لكفارته ، كما لا يكون مَصْرِفاً لزكاته ، وأربابُ القول الأول يقولون : إذا عجز عنها ، وكفر الغيرُ عنه ، جاز أن يَصْرِفَهَا إليه ، كما صرف النبي صلى الله عليه وسلم كفارةَ من جامع في رمضان إليه وإلى أهله ، وكما أباح لسلمة بن صخر أن يأكُل هو وأهلُه من كفارته التي أخرجها عنه من صدقة قومه ، وهذا مذهبُ أحمد ، رواية واحدة عنه في كفارة من وطىء أهله

في رمضان ، وعنه في سائر الكفارات روايتان .

والسنة تَدُلُّ على أنه إذا أعسر بالكفارة ، وكفَّرَ عنه غيرُه ، جاز صرف كفارته إليه ، وإلى أهله .

فإن قيل : فهل يجوز له إذا كان فقيراً له عيال وعليه زكاة يحتاج إليها أن يصرفها إلى نفسه وعياله ؟ قيل : لا يجوز ذلك لعدم الإخراج المستحق عليه ، ولكن للإمام أو الساعي أن يدفع زكاته إليه بعد قبضها منه في أصحِّ الروايتين عن أحمد .

فإن قيل : فهل له أن يسقطها عنه ؟ قيل : لا ، نص عليه ، والفرق بينهما واضح .

فإن قيل : فإذا أذن السيد لعبده في التكفير بالعتق ، فهل له أن يعتق نفسه ؟ قيل : اختلفت الرواية فيما إذا أذن له في التكفير بالمال ، هل له أن ينتقلَ عن الصيامِ إليه ؟ على روايتين ، إحداهما : أنه ليس له ذلك ، وفرضُه الصيام ، والثانية : له الانتقال إليه ، ولا يلزمُه لأنَّ المنع لِحقِّ السيد ، وقد أذن فيه . فإذا قلنا : له ذلك ، فهل له العتقُ ؟ اختلفت الروايةُ فيه عن أحمد ، فعنه في ذلك روايتان ، ووجهُ المنع : أنه ليس من أهل الولاء ، والعتق يَعْتَمِدُ الولاء ، واختار أبو بكر وغيرُه أن له الإعتاق ، فعلى هذا ، هل له عِتقُ نفسه ؟ فيه قولان في المذهب ، ووجهُ الجواز إطلاقُ الإذن ووجهُ المنع أن الإذن في الإعتاق ينصرفُ إلى إعتاق غيره ، كما لو أذن له في الصدقة انصرف الإذن إلى الصدقة على غيره .

فصـــل

ومنها : أنه لا يجوز وطء المظاهر منها قبل التكفير ، وقد اختلف هاهنا في موضعين :

أحدهما : هل له مُبَاشَرتها دُونَ الفرج قبل التكفير ، أم لا ؟

والثاني : أنه إذا كانت كفارتُهُ الإطعام ، فهل له الوطء قبلهَ أم لا ؟ وفي المسألتين قولان للفقهاء ، وهما روايتانِ عن أحمد ، وقولان للشافعي .

ووجه منع الاستمتاع بغير الوطء ، ظاهرُ قوله تعالى : ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا** ﴾ ، ولأنه شبهها بمن يحرم وطؤها ودواعيه ، ووجهُ الجواز أن التَّماسَّ كنايةٌ عن الجماع ، ولا يلزم مَن تحريم الجماع تحريمُ دواعيه ، فإن الحائضَ يحرم جماعُها دون دواعيه ، والصائمُ يحرم منه الوطءُ دون دواعيه ، والمسبية يحرم وطُؤها دونَ دواعيه ، وهذا قولُ أبي حنيفة .

وأما المسألةُ الثانية وهي وطؤها قبل التكفير : إذا كان بالإطعام ، فوجه الجواز أن الله سبحانه قيَّد التكفيرَ بكونه قبل المسيس في العتق والصيام ، وأطلقه في الإطعام ، ولكل منهما حِكمة ، فلو أراد التقييدَ في الإطعام ، لذكره كما ذكره في العتق والصيام ، وهو سبحانه لم يقيد هذا ويطلق هذا عبثاً ، بل لِفائدة مقصودة ، ولا فائدة إلا تقييد ما قيَّده ، وإطلاقُ ما أطلقه . ووجهُ المنع استفادةُ حكم ما أطلقه مما قيده ، إما بياناً على الصحيح ، وإما قياساً قد ألغى فيه الفارق بين الصورتين ، وهو سبحانه لا يُفرِّقُ بين المتماثلين ، وقد ذكر : ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا** ﴾ مرتين ، فلو أعاده ثالثاً ، لطال به الكلام ، ونبَّه بذكره مرتين على تكرر حكمه في الكفارات ، ولو ذكره في آخر الكلام مرةً واحدةً ، لأوهم اختصاصه بالكفارة الأخيرة ، ولو ذكره في أول مرة لأوهم اختصاصه بالأولى ، وإعادته في كُلِّ كفارة تطويل ، وكان أفصحَ الكلام وأبلَغه وأوجزه ما وقع .

وأيضاً فإنه نبه بالتكفير قبل المسيس بالصوم مع تطاول زمنه ، وشدة الحاجة إلى مسيس الزوجة على أن اشتراط تقدمه في الإطعام الذي لا يطول زمنه أولى .

فصــل

ومنها: أنه سبحانه أمر بالصيام قبل المسيس، وذلِكَ يَعُمُّ المسيسَ ليلاً ونهاراً، ولا خلاف بين الأئمة في تحريمِ وطئها في زمن الصوم ليلاً ونهاراً، وإنما اختلفوا، هل يبطل التتابُع به؟ فيه قولان.

أحدهما: يبطل وهو قولُ مالك، وأبي حنيفة، وأحمد في ظاهر مذهبه.

والثاني: لا يبطل، وهو قولُ الشافعي، وأحمد في رواية أخرى عنه.

والذين أبطلوا التتابعَ معهم ظاهرُ القرآن، فإنه سبحانه أمر بشهرين متتابعين قبل المسيسِ، ولم يُوجد، ولأن ذلك يتضمَّن النهي عن المسيس قبل إكمال الصيام وتحريمه، وهو يُوجب عدم الاعتدادِ بالصوم، لأنه عمل ليس عليه أمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيكون رداً.

وسر المسألة أنه سبحانه أوجب أمرين.

أحدهما: تتابع الشهرين.

والثاني: وقوعُ صيامهما قبل التماس، فلا يكون قد أتى بما أمر به إلا بمجموع الأمرين.

فصــل

ومنها: أنه سبحانه وتعالى أطلق إطعامَ المساكين ولم يُقيده بقدر، ولا تتابع، وذلك يقتضي أنه لو أطعمهم فغدَّاهم وعشاهم مِن غير تمليك حبٍّ أو تمر، جاز، وكان ممتثلاً لأمر الله، وهذا قولُ الجمهور ومالك، وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وسواء أطعمهم جملة أو متفرقين.

فصـــل

ومنها : أنه لا بُدَّ من استيفاء عدد الستين ، فلو أطعم واحداً ستين يوماً لم يجزه إلّا عن واحدٍ ، هذا قول الجمهور : مالك ، والشافعي ، وأحمد في إحدى الروايتين عنه .

والثانية : أن الواجب إطعام ستين مسكيناً ، ولو لواحدٍ وهو مذهب أبي حنيفة .

والثالثة : إن وجد غيره لم يجز ، وإلا أجزأه ، وهو ظاهرُ مذهبه ، وهي أصح الأقوال .

فصـــل

ومنها : أنه لا يجزئه دفعُ الكفارة إلا إلى المساكين ، ويدخُل فيهم الفقراء كما يدخل المساكينُ في لفظ الفقراء عند الإطلاق ، وعمم أصحابُنا وغيرهم الحكمَ في كلِّ من يأخذ من الزكاة لحاجته ، وهم أربعة : الفقراء ، والمساكين ، وابنُ السبيل ، والغارمُ لمصلحته ، والمكاتب . وظاهر القرآن اختصاصها بالمساكين ، فلا يتعدَّاهم .

فصـــل

ومنها : أن الله سبحانه أطلقَ الرقبةَ هاهنا ، ولم يُقيدها بالإيمان ، وقيَّدها في كفارة القتل بالإيمان ، فاختلف الفقهاء في اشتراط الإيمان في غير كفارة القتل ، على قولين : فشرطه الشافعيُّ ، ومالك ، وأحمد في ظاهر مذهبه ، ولم يشترطه أبو حنيفة ، ولا أهلُ الظاهر ، والذين لم يشترطوا الإيمان قالوا : لو كان شرطاً

لبيَّنه الله سبحانه ، كما بينه في كفارة القتل ، بل يُطلق ما أطلقه ، ويُقيد ما قيده ، فيعمل بالمطلق والمقيد . وزادت الحنفيّة أن اشتراط الإيمان زيادة على النص ، وهو نسخ ، والقرآن لا يُنسخ إلا بالقرآن أو خبرٍ متواترٍ .

قال الآخرون : واللفظ للشافعي : شرط الله سبحانه في رقبة القتل مؤمنة ، كما شرطَ العدلَ في الشهادة ، وأطلق الشهودَ في مواضع ، فاستدللنا به على أن ما أطلقَ مِن الشهادات على مثل معنى ما شَرَطَ وإنما رد الله أموال المسلمين على المسلمين لا على المشركين وفرض الله الصدقاتِ ، فلم تجز إلا للمؤمنين ، فكذلك ما فرضَ مِن الرقاب لا يجوزُ إلا لمؤمن[1]، فاستدل الشافعيُّ بأن لسان العرب يقتضي حملَ المطلق على المقيد إذا كان مِن جنسه ، فحملَ عرفَ الشرع على مقتضى لسانهم .

وهاهنا أمران :

أحدهما : أن حمل المطلق على المقيد بيانٌ لا قياس .

الثاني : أنه إنما يحمل عليه بشرطين : **أحدهما** : اتحاد الحكم . **والثاني** : أن لا يكون للمطلق إلا أصل واحد . فإن كان بين أصلين مختلفين ، لم يُحمل إطلاقُه على أحدهما إلا بدليل يُعينه . قال الشافعي : ولو نذر رقبةً مطلقةً لم يُجزه إلا مؤمنة . وهذا بناء على هذا الأصل ، وأن النذر محمولٌ على واجب الشرع ، وواجبُ العتق لا يتأدى إلا بعتق المسلم . ومما يدل على هذا ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن استفتى في عتق رقبة منذورة : « ائتني بها » ، فسألها : أينَ الله ؟ فقالت : في السماء ، فقال : « من أنا ؟ » قالت : أنتَ رسول الله ، فقال : « أعتقها فإنها مؤمنة »[2]. قال الشافعي : فلما وصفت الإيمانَ ، أمر بعتقها . انتهى .

---

(١) انظر مختصر المزني (٢٠٤) .

(٢) رواه مسلم من حديث معاوية بن حكم السلمي (٢ / ١٧٠) في المساجد ، باب : تحريم الكلام في الصلاة .

وهذا ظاهر جداً أن العِتقَ المأمورَ به شرعاً لا يُجزىء إلا في رقبة مؤمنة ، وإلا لم يكن للتعليل بالإيمان فائدة ، فإن الأعم متى كان عِلة للحكم كان الأخصُّ عديمَ التأثير .

وأيضاً فإن المقصود من إعتاق المسلم تفريغُه لعبادة ربه ، وتخليصُه من عبودية المخلوق إلى عبودية الخالق ، ولا ريبَ أن هذا أمرٌ مقصودٌ للشارع محبوب له ، فلا يجوزُ إلغاؤه ، وكيف يستوي عند الله ورسوله تفريغُ العبد لعبادته وحدَه ، وتفريغُه لعبادة الصليب ، أو الشمس والقمر والنار ، وقد بيَّن سبحانه **اشتراط الإيمان في كفارة القتل ، وأحال ما سكت عنه على بيانه كما بين اشتراط** العدالة في الشاهدين ، وأحال ما أطلقه ، وسكت عنه على ما بينه ، وكذلك غالبُ مطلقات كلامه سبحانه ومقيداته لمن تأملها ، وهي أكثرُ من أن تُذكر ، فمنها : قوله تعالى فيمن أمر بصدقة ، أو معروف ، أو إصلاح بين الناس : ﴿ وَمَنْ يَفْعَل ذلِكَ ٱبْتِغَاء مَرْضَاتِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء : ١١٤] ، وفي موضع آخر ، بل مواضع يُعلق الأجر بنفس العمل اكتفاءً بالشرط المذكور في موضعه ، وكذلك قولُه تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ [الأنبياء : ٩٤] ، وفي موضع يُعلِّق الجزاء بنفس الأعمال الصالحة اكتفاءً بما علم من شرط الإيمان ، وهذا غالب في نصوص الوعد والوعيد[1] .

فصـــل

ومنها : أنه لو أعتق نِصفي رقبتين لم يكن معتقاً لرقبة ، وفي هذا ثلاثةُ أقوال للناس ، وهي روايات عن أحمد . **ثانيها** : الإجزاء . **وثالثها** : وهو أصحها : أنه إن تكملت الحريةُ في الرقبتين أجزأه ، وإلا فلا ، فإنه يَصْدُقُ عليه أنه حرَّر رقبة ، أي : جعلها حرة بخلاف ما إذا لم تكمل الحرية .

(١) زاد المعاد (٥ / ٣٢٢ - ٣٤٢) .

فصـــل

ومنها : أن الكفارة لا تسقُط بالوطء قبلَ التكفير ، ولا تتضاعف ، بل هي بحالها كفارةٌ واحدة ، كما دل عليه حكمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تقدم ، قال الصلتُ بنُ دينار : سألتُ عشرة مِن الفقهاء عن المظاهر يُجامع قبل أن يكفر ، فقالوا : كفارة واحدة . قال : وهم الحسنُ ، وابنُ سيرين ، ومسروق ، وبكر ، وقتادة ، وعطاء ، وطاووس ، ومجاهد ، وعكرمة . قال : والعاشر : أراه نافعاً ، وهذا قولُ الأئمة الأربعة .

وصحَّ عن ابن عمر ، وعمرو بن العاص ، أن عليه كفارتين ، وذكر سعيد بن منصور ، عن الحسن ، وإبراهيم في الذي يُظاهر ، ثم يطؤها قبل أن يكفِّر : عليه ثلاثُ كفارات ، وذكر عن الزهري ، وسعيد بن جبير ، وأبي يوسف ، أن الكفارة تسقُطُ ، ووجه هذا أنه فات وقتها ، ولم يبق له سبيل إلى إخراجها قبل المسيس .

وجواب هذا ، أن فوات وقت الأداء لا يُسقطُ الواجب في الذمّة كالصلاةِ والصيام وسائر العبادات ، ووجهُ وجوب الكفارتين أن إحداهما .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره :

﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً . وإن الله لعفو غفور ﴾ [المجادلة : ٢] .

إن قيل : فما تقولون في قول المظاهر : أنت عليّ كظهر أمي : هل هو إنشاء أو إخبار ؟ فإن قلتم : إنشاء كان باطلا من وجوه :

أحدها : أن الإنشاء لا يقبل التصديق والتكذيب ، والله سبحانه قد كذبهم هنا في ثلاثة مواضع :

أحدها : في قوله ﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ فنفى ما أثبتوه . وهذا حقيقة التكذيب ، ومن طلق امرأته ، لا يحسن أن يقال : ما هي مطلقته .

والثاني: في قوله ﴿وإنهم ليقولون منكراً من القول﴾ والإنشاء لا يكون منكراً من القول ، وإنما يكون المنكر هو الخبر .

والثالث : أنه سماه « زوراً » والزور : هو الكذب . وإذا كذبهم الله دل على أن الظهار إخبار لا إنشاء .

الثاني : أن الظهار محرم ، وليس جهة تحريمه إلا كونه كذباً . والدليل على تحريمه : خمسة أشياء :

أحدها : وصفه بالمنكر . **والثاني** : وصفه بالزور . **والثالث** : أنه شرع فيه الكفارة ولو كان مباحاً لم يكن فيه كفارة . **والرابع** : أن الله قال : ﴿ **ذلكم توعظون به** ﴾ والوعظ إنما يكون في غير المباحات . **والخامس** : قوله : ﴿ **وإن الله لعفو غفور** ﴾ والعفو والمغفرة : إنما يكونان عن الذنب .

وإن قلتم : هو إخبار ، فهو باطل من وجوه :

أحدها : أن الظهار كان طلاقا في الجاهلية فجعله الله في الإسلام تحريماً تزيله الكفارة . وهذا متفق عليه بين أهل العلم . ولو كان خبراً لم يوجب التحريم ، فإنه إن كان صدقا فظاهر ، وإن كان كذبا : فأبعد له من أن يترتب عليه التحريم .

والثاني : أنه لفظ الظهار يوجب حكمه الشرعي بنفسه ، وهو التحريم . وهذا حقيقة الإنشاء ، بخلاف الخبر . فإنه لا يوجب حكمه بنفسه . فسلب كونه إنشاء مع ثبوت حقيقة الإنشاء فيه : جمع بين النقيضين .

والثالث : أن إفادة قوله : أنت علي كظهر أمي : للتحريم ، كإفادة قوله :

أنت حرة ، وأنت طالق ، وبعتك ورهنتك ، وتزوجتك ، ونحوها لأحكامها فكيف يقولون : هذه إنشاءات دون الظهار ؟ وما الفرق .

قيل : أما الفقهاء فيقولون : الظهار إنشاء . ونازعهم بعض المتأخرين في ذلك . وقال : الصواب أنه إخبار .

وأجاب عما احتجوا به من كونه إنشاء .

قال : أما قولهم : كان طلاقا في الجاهلية : فهذا لا يقتضي أنهم كانوا يثبتون به الطلاق ، بل يقتضي أنهم كانوا يزيلون به العصمة عند النطق به . فجاز أن يكون زوالها لكونه إنشاء ، كما زعمتم ، أو لكونه كذبا ، وجرت عادتهم أن من أخبر بهذا الكذب زالت عصمة نكاحه ، وهذا كما التزموا تحريم الناقة إذا جاءت بعشرة من الولد . ونحو ذلك .

قال : وأما قولكم : إنه يوجب التحريم المؤقت . وهذا حقيقة الإنشاء ، لا الإخبار – فلا نسلم أن ثم تحريماً البتة . والذي دل عليه القرآن : وجوب تقديم الكفارة على الوطء ، كتقديم الطهارة على الصلاة . فإذا قال الشارع : لا تصل حتى تتطهر ولا يدل ذلك على تحريم الصلاة عليه ، بل ذلك نوع ترتيب .

سلمنا أن الظهار ترتب عليه تحريم ، لكن التحريم عقب الشيء قد يكون لاقتضاء اللفظ له ، ودلالته عليه . وهذا هو الإنشاء ، وقد يكون عقوبة محضة كترتيب حرمان الإرث على القتل .

وليس القتل إنشاء للتحريم ، وكترتيب التعزير على الكذب ، وإسقاط العدالة به . فهذا ترتيب بالوضع الشرعي ، لا بدلالة اللفظ .

وحقيقة الإنشاء : أن يكون ذلك اللفظ وضع لذلك الحكم . ويدل عليه ، كصيغ العقود . فسببية القول أعم من كونه سبباً بالإنشاء أو بغيره ، فكل إنشاء سبب ، وليس كل سبب إنشاء . فالسببية أعم فلا يستدل بمطلقها على الإنشاء . فإن الأعم لا يستلزم الأخص فظهر الفرق بين ترتب التحريم على الطلاق ، وترتبه على الظهار .

قال : وأما قولكم : إنه كالتكلم بالطلاق والعتاق والبيع ونحوها : فقياس في الأسباب ، فلا نقبله ، ولو سلمناه فنص القرآن يدفعه .

وهذه الاعتراضات عليهم باطلة .

أما قوله : إن كونه طلاقا في الجاهلية لا يقتضي أنهم كانوا يثبتون به الطلاق إلخ فكلام باطل قطعاً . فإنهم لم يكونوا يقصدون الإخبار بالكذب ليترتب عليه التحريم ، بل كانوا إذا أرادوا الطلاق أتوا بلفظ الظهار إرادة للطلاق ، ولم يكونوا عند أنفسهم كاذبين ولا مخبرين . وإنما كانوا منشئين للطلاق به . ولهذا كان هذا ثابتاً في أول الإسلام . حتى نسخه الله بالكفارة في قصة خولة بنت ثعلبة وكانت تحت عبادة بن الصامت . فقال لها « أنت علي كظهر أمي فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن ذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حرمت عليه » . فقالت : يا رسول الله ، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق ، وإنه أبو ولدي ، وأحب الناس إلي فقال : « حرمت عليه » فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أراك إلا قد حرمت عليه ، ولم أومر في شأنك بشيء » . فجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا قال لها : حرمت عليه هتفت وقالت : أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي ، وإن لي صبية صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا . وجعلت ترفع رأسها إلى السماء ، وتقول : اللهم إني أشكو إليك ، وكان هذا أول ظهار في الإسلام . فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قضي الوحي ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادعي زوجك » ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما** ﴾ [المجادلة : ١-٤] الآيات .

فهذا يدل على أن الظهار كان إنشاء للتحريم الحاصل بالطلاق في أول الإسلام ، ثم نسخ ذلك بالطلاق . وبهذا يبطل ما نظّر به من تحريم الناقة عند ولادها عشرة أبطن ونحوه . فإنه ليس هناك لفظ إنشاء يقتضي التحريم ، بل هو

شرع منهم لهذا التحريم عند هذا السبب .

وأما قوله : إنا لا نسلم أنه يوجب تحريماً : فكلام باطل . فإنه لا نزاع بين الفقهاء أن الظهار يقتضي تحريماً تزيله الكفارة . فلو وطئها قبل التكفير أثم بالإجماع المعروف من الدين ، والتحريم المؤقت هنا كالتحريم بالإحرام ، وبالصيام وبالحيض .

وأما تنظيره بالصلاة مع الطهر ففاسد ، فإن الله أوجب على المصلي أن يصلي صلاة بطهر . فإذا لم يأت بالطهر ترك ما أوجب الله عليه ، فاستحق الإثم ، وأما المظاهر فإنه حرم على نفسه امرأته وشَبَّهها بمن تحرم عليه ؛ فمنعه الله من قربانها حتى يكفر . فهنا تحريم مستند إلى طهارة . وفي الصلاة لا تجزىء منه بغير طهر ؛ لأنها صلاة غير مشروعة أصلا .

وقوله : التحريم عقب الشيء قد يكون لاقتضاء اللفظ له ، وقد يكون عقوبة إلخ .

جوابه : أنهما غير متنافيين في الظهار ، فإنه حرام ، وتحرم المرأة به تحريماً مؤقتاً حتى يكفر ، وهذا لا يمنع كون اللفظ إنشاء ، كجمع الثلاث عند من يوقعها ، والطلاق في الحيض ، فإنه يحرم ويعقبه التحريم . وقد قلتم : إن طلاق السكران يصح عقوبة له ، مع أنه لم يقصد إنشاء سبب تطلق به امرأته اتفاقا . فكون التحريم عقوبة لا ينفي أن يستند إلى أسبابها التي تكون إنشاءات لها.

وقوله : السببية أعم من الإنشاء .

جوابه : أن السبب نوعان : فعل وقول ، فمتى كان قولا لم يكن إلا إنشاء . فإن أردتم بالعموم : أن سببية القول أعم من كونها إنشاء وإخباراً فممنوع وإن أردتم أن مطلق السببية أعم من كونها سببية بالفعل وبالقول ، فمسلم ولا يفيدكم شيئاً .

وفصل الخطاب : أن قوله : أنت علي كظهر أمي : يتضمن إنشاء وإخباراً فهو إنشاء من حيث قصد التحريم بهذا اللفظ ، وإخبار من حيث تشبيهها بظهر

أمه، ولهذا جعله الله منكراً من القول وزوراً، فهو منكر باعتبار الإنشاء، وزور باعتبار الإخبار .

وأما قوله : إن المنكر هو الخبر الكاذب من النُّكر ، والنكر أعم منه . فالإنكار في الإنشاء والإخبار ، فإنه ضد المعروف ، فما لم يؤذن فيه من الإنشاء فهو منكر ، وما لم يكن صدقا من الإخبار فهو زور[1].

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [المجادلة : ٥] .

والكبت : الإذلال والخزي والتصريع على الوجه ، قال النضر وابن قتيبة[2] : هو الغيظ والحزن .

وقال أهل التفسير : كبتوا أهلكوا وأخزوا وحزنوا وإذا كان المحاد مكبوتاً فلو كان آمنًا على نفسه وماله لم يكن مكبوتاً بل مسروراً جذلاً يشفي صدره من الله ورسوله ، آمناً على دمه وماله فأين الكبت إذن ؟ ويدل عليه قوله : ﴿ **كبتوا كما كبت الذين من قبلهم** ﴾ فخوفهم بكبت نظير كبت من قبلهم : وهو الإهلاك من عنده أو بأيدي عباده وأوليائه وقوله : (**كتب الله لأغلبن أنا ورسلي**) [المجادلة : ٢١] عقيب قوله : ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله** ﴾ دليل على أن المحاداة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادين غالباً إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم فعلم أن المحاد ليس بمسالم فلا يكون له أمان مع المحادة ، وقد جرت سنة الله سبحانه أن الغلبة لرسله بالحجة والقهر فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه ، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوه ، يوضحه أن المحادة مشاقة ، لأنها من الحد والفصل والبينونة ، وكذلك المشاقة من الشق وكذلك المعاداة من العُدْوة وهي الجانب يكون أحد العدوين في شق وجانب وحد ، وعدوه الآخر في غيرها ، والمعنى في ذلك كله معنى المقاطعة والمفاصلة وذلك لا يكون إلا مع انقطاع الحبل الذي بيننا وبين أهل العهد لا يكون مع اتصال الحبل أبداً يوضحه

(١) بدائع الفوائد (١/١١ -١٥) .

(٢) انظر « تفسير غريب القرآن » لابن قتيبة صـ (١١٠ و ٤٥٧) .

أن الحبل وصلة وسبب فلا يجامع المفاصلة والمباينة وأيضاً فإنها إذا كانت بمعنى المشاقة فقد قال تعالى : (**فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب**) [الأنفال : ١٢ - ١٣] فأمر بضرب أعناقهم وعلل ذلك بمشاقتهم ومحادتهم ، وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه ، وهذا دليل تاسع في المسألة وترتيبه هكذا : هذا مشاق لله ورسوله والمشاق لله ورسوله مستحق ضرب العنق وتبينت صحة المقدمتين[1].

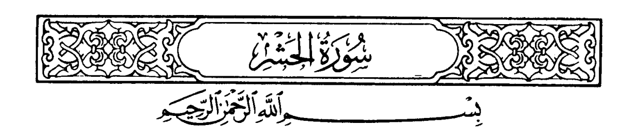
قوله تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة : ١١] واللام في العلم ليست للاستغراق ، وإنما هي للعهد أي : العلم الذي بعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم و إذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجباً[2].

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/٨٢٦ -٨٢٨) .

(٢) أعلام الموقعين (١/١٦٥) .

سُورَةُ الحَشْرِ



قال الله تعالى : ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ إلى آخر الآية [الحشر : ٧ - ١٠] .

فأخبر سبحانه أن ما أفاء على رسوله بجملته لمن ذكر في هذه الآيات ولم يخص منه خمسة بالمذكورين ، بل عمم وأطلق واستوعب ويصرف على المصارف الخاصة وهم أهل الخمس ثم على المصارف العامة وهم المهاجرون والأنصار وأتباعهم إلى يوم الدين . فالذي عمل به هو وخلفاؤه الراشدون ، هو المراد من هذه الآيات ، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما رواه أحمد رحمه الله وغيره عنه : «ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبد مملوك ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام والرجل وتقدمه في الإسلام والرجل وعناؤه في الإسلام والرجل وحاجته ، ووالله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا

المال وهو يرعى **مكانه»**[1] .

فهؤلاء المسمون في آية الفيء هم المسمون في آية الخمس ، ولم يدخل المهاجرون والأنصار وأتباعهم في آية الخمس ؛ لأنهم المستحقون لجملة الفيء ، وأهل الخمس لهم استحقاقان : استحقاق خاص من الخمس ، واستحقاق عام من جملة الفيء فإنهم داخلون في النصيبين .

وكما أن قسمته من جملة الفيء بين من جعل له ليس قسمة الأملاك التي يشترك فيها المالكون ؛ كقسمة المواريث والوصايا والأملاك المطلقة ، بل بحسب الحاجة والنفع والغناء في الإسلام والبلاء فيه فكذلك قسمة الخمس في أهله فإن مخرجهما واحد في كتاب الله والتنصيص على الأصناف الخمسة يفيد تحقيق إدخالهم وأنهم لا يخرجون من أهل الفيء بحال ، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم كأصناف الزكاة لا تعدوهم إلى غيرهم كما أن الفيء العام في آية الحشر للمذكورين فيها لا يتعداهم إلى غيرهم ولهذا أفتى أئمة الإسلام ، كمالك والإمام أحمد وغيرهما أن الرافضة لا حق لهم في الفيء لأنهم ليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار ولا **من الذين جاءوا من بعدهم يقولون : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا** بالإيمان) وهذا مذهب أهل المدينة واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وعليه يدل القرآن وفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين .

وقد اختلف الناس في آية الزكاة وآية الخمس فقال الشافعي : تجب قسمة الزكاة والخمس على الأصناف كلها ويعطى من كل صنف من يطلق عليه اسم الجمع .

وقال مالك رحمه الله وأهل المدينة : بل يعطى في الأصناف المذكورة فيهما ولا يعدوهم إلى غيرهم ، ولا تجب قسمة الزكاة ولا الفيء في جميعهم .

---

(١) رواه الإمام أحمد (١ / ٢٨١) برقم (٢٩٢) بتحقيق أحمد شاكر وصححه وفيه « محمد بن مُيَسَّر » قال الحافظ : « ضعيف » .

ورواه أبو داود (٨ / ١٦٦) من طريق « النفيلي عن محمد بن سلمة ... » وقال الألباني: حسن موقوف (٢ / ٥٦٩) صحيح أبي داود ، وفيه « عياله » بدلاً من « غناؤه » .

وقال الإمام أحمد وأبو حنيفة بقول مالك رحمه الله في آية الزكاة وبقول الشافعي رحمه الله في آية الخمس .

ومن تأمل النصوص ، وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه وجده يدل على قول أهل المدينة ؛ فإن الله سبحانه جعل أهل الخمس هم أهل الفيء وعينهم اهتماماً بشأنهم وتقديماً لهم ، ولما كانت الغنائم خاصة بأهلها لا يشركهم فيها سواهم ، نص على خمسها لأهل الخمس ، ولما كان الفيء لا يختص بأحد دون أحد ، جعل جملته لهم وللمهاجرين والأنصار وتابعيهم ؛ فسوى بين الخمس وبين الفيء في المصرف ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام ، وأربعة أخماس الخمس في أهلها مقدماً للأهم فالأهم والأحوج فالأحوج فيزوج منه عزابهم ويقضي منه ديونهم ويعين ذا الحاجة منهم ويعطي عزبهم حظاً ومتزوجهم حظين ولم يكن هو ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى ويقسمون أربعة أخماس الفيء بينهم على السوية ولا على التفضيل ، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة فهذا هديه وسيرته وهو فصل الخطاب ، ومحض الصواب[1].

قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

فأخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقي الرجل الشح به كان من المفلحين ، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات . فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها ، فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً ، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة إليها وهذا ضد الإيثار بها[2].

---

(١) زاد المعاد (٥/٨٤ -٨٧) .

(٢) طريق الهجرتين (٢٧٨) .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : ١٨] .

فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد ، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك والنظر : هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح ؟ .

والمقصود من هذا النظر : ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد ، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويبيض وجهه عند الله . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر »[١] (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) [الحاقة : ١٨] أو قال « على من لا تخفى عليه أعمالكم »[٢] .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٩] .

فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى : (نسوا الله فنسيهم) .

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين :

إحداهما : أنه سبحانه نسيه .

والثانية : أنه أنساه نفسه .

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به بنسيه ذلك جميعه فلا يخطره بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره ،

(١) ذكره ابن الجوزي في تاريخ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٧٦ - ١٧٧) .
وأبو نعيم في الحلية (١ / ٥٢) .
وقال الألباني: «إسناده جيد إن كان ثابت سمعه من عمر..» الضعيفة (٣٤٦/٣) رقم (١٢٠١).

(٢) مدارج السالكين (١٧٠/١) .

وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها فلا يخطر بباله إزالتها .

وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك فهو مريض مثخن بالمرض ، ومرضه مترام به إلى التلف ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة . فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم ؟[1].

وقال رحمه الله تعالى :

فلما نسوا ذكره والثناء عليه وتحميده وتمجيده نسيهم من رحمته وأنساهم مصالح نفوسهم فلم يعرفوها و لم يطلبوها بل تركوها مهملة معطلة مع نقصها وعيوبها[2].

وقال رحمه الله تعالى :

عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم فنسوا مصالحها أن يفعلوها وعيوبها أن يصلحوها وحظوظها أن يتناولوها ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها ذكرها لربها وفاطرها وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره وحبه وطاعته والإقبال عليه والإعراض عما سواه ، فأنساهم ذلك لما نسوه وأحدث لهم هذا النسيان نسياناً آخر ، وهذا ضد حال الذين ذكروه و لم ينسوه فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها وأوقفهم على عيوبها فأصلحوها وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها فجازى أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان ومحبته وذكره وشكره فلما خلت قلوبهم من ذلك ؛ لم يجدوا عن ضده محيصاً .

وهذا يبين لك كمال عدله سبحانه في تقدير الكفر والذنوب عليها وإذا كان قضاؤه عليها بالكفر والذنوب عدلا منه عليها فقضاؤه عليها بالعقوبة أعدل وأعدل

(١) الجواب الكافي (١٥٠ -١٥١) .

(٢) الصواعق المرسلة (١٤٨١/٤) .

فهو سبحانه ماض في عبده حكمه ، عدل فيه قضاؤه وله فيها قضاءان : قضاء السبب ، وقضاء المسبب ، وكلاهما عدل فيه فإنه لما ترك ذكره وترك فعل ما يحبه عاقبه بنسيان نفسه فأحدث له هذا النسيان ارتكاب ما يبغضه ويسخطه بقضائه الذي هو عدل فترتب له على هذا الفعل والترك عقوبات وآلام لم يكن له بد بل هي مترتبة عليه ترتب المسببات على أسبابها فهو عدل محض من الرب تعالى فعدل في العبد أولاً وآخراً فهو محسن في عدله محبوب عليه محمود فيه يحمده من عدل فيه طوعاً وكرهاً . قال الحسن : لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً[1].

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ [الحشر : ١٩] .

وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها فهلكت وفسدت ولا بد ، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك ومما صلاحه وفلاحه ؛ فإنه يفسد ولابد هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها واشتغل عن مصالحها وعطل مراعاتها وترك القيام عليها بما يصلحها فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان ، وهذا هو الذي صار أمره كله فرطاً فانفرط عليه أمره وضاعت مصالحه وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك ، ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به وأن لا يزال اللسان رطباً به وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى عنها ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه ، وهلك وبمنزلة الماء عند شدة العطش وبمنزلة اللباس في الحر والبرد وبمنزلة الكن في شدة الشتاء والسموم .

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم ؛ فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده ، هذا هلاك لابد منه وقد يعقبه صلاح

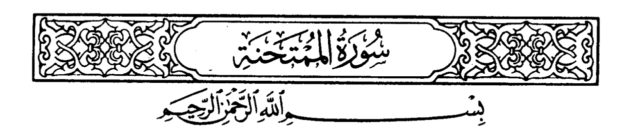
---

(١) شفاء العليل (١٣٥) .

لابد ، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة[١] .

(١) الوابل الصيب (٦٧و٦٨) .


سورة الممتحنة



سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة :٨ – ٩] .

فإن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم ، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة ، فبين الله سبحانه أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها ، وأنه لم ينه عن ذلك بل هو الإحسان الذي يحبه ويرضاه وكتبه على كل شيء ، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة ، ولا ريب أن جعل الكفر بالله وتكذيب رسوله موجباً وشرطاً في الاستحقاق من أعظم موالاة الكفار المنهي عنها فلا يصح من المسلم ولا يجوز للحاكم تنفيذه من أوقاف الكفار فأما إذا وقفوا ذلك فيما بينهم ولم يتحاكموا إلينا ولا استفتونا عن حكمه لم يتعرض لهم فيه وحكمه حكم عقودهم وأنكحتهم الفاسدة[1].

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا

---

(١) أحكام أهل الذمة (٣٠١/١) .

ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . [الممتحنة : ١٠]

قالوا : فهذا حكم الله الذي لا يحل لأحد أن يخرج عنه وقد حرم فيه رجوع المؤمنة إلى الكافر وصرح سبحانه بإباحة نكاحها ولو كانت في عصمة الزوج حتى يسلم في العدة أو بعدها لم يجز نكاحها لا سيماً والمهاجرة تستبرأ بحيضة وهذا صريح في انقطاع العصمة بالهجرة وقوله : ﴿ **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ صريح في أن المسلم مأمور ألا يمسك عصمة امرأته إذا لم تسلم فصح أن ساعة وقوع الإسلام منه تنقطع عصمة الكافرة منه وقوله تعالى : ﴿ **لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن** ﴾ صريح في تحريم أحدهما على الآخر في كل وقت فهذه أربعة أدلة من الآية ، ودعونا من تلك المنقطعات والمراسيل والآثار المختلفة ؛ ففي كتاب الله الشفاء والعصمة .

قال الآخرون : مرحباً وأهلاً وسهلاً بكتاب الله وسمعاً وطاعة لقول ربنا ، ولكن تأولتم الآية على غير تأويلها ووضعتموها على غير مواضعها وليس فيها ما يقتضي تعجيل الفرقة إذا سبق أحدهما الآخر بإلغائها ولا فهم هذا منها أحد قط من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من التابعين ولا يدل على ما ذهبتم إليه أصلاً ، أما قوله تعالى : ﴿ **فلا ترجعوهن إلى الكفار** ﴾ فإنما يدل على النهى عن رد النساء المهاجرات إلى الله ورسوله إلى الكفار فأين في هذا ما يقتضي أنها لا تنتظر زوجها حتى يصير مسلماً مهاجراً إلى الله ورسوله ثم ترد إليه ، ولقد أبعد النجعة كل الإبعاد مَنْ فهم هذا من الآية ، وكذلك قوله : ﴿ **لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن** ﴾ إنما فيه إثبات التحريم بين المسلمين والكفار ، وأن أحدهما لا يحل للآخر وليس فيه أن أحدهما لا يتربص بصاحبه الإسلام فيحل له إذا أسلما ، وأما قوله : ﴿ **ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن** ﴾ فهذا خطاب للمسلمين ورفع للحرج عنهم أن ينكحوا المؤمنات المهاجرات إذا بن من أزواجهن وتخلين عنهم وهذا إنما يكون بعد انقضاء عدة

المرأة واختيارها لنفسها ، ولا ريب أن المرأة إذا انقضت عدتها تخير بين أن تتزوج من شاءت وبين أن تقيم حتى يسلم زوجها فترجع إليه إما بالعقد الأول على ما نصرناه وإما بعقد جديد على قول من يرى انفساخ النكاح بمجرد انقضاء العدة شاءت أم أبت لكان في الآية حجة علينا . ونحن لم نقل ذلك ولا غيرنا من أهل الإسلام بل هي أحق بنفسها إن شاءت تزوجت وإن شاءت تربصت ، فأما قوله تعالى : ﴿ **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ فإنها تضمن النهي عن استدامة نكاح المشركة والتمسك بها وهي مقيمة على شركها وكفرها وليس فيه النهي عن الانتظار بها أن تسلم ثم يمسك بعصمتها ، فإن قيل : فهو في التربص ممسك بعصمتها قلنا : ليس كذلك بل هي متمكنة بعد انقضاء عدتها من مفارقته والتزوج بغيره ، ولو كانت العصمة بيده لما أمكنها ذلك وأيضاً فالآية إنما دلت على أن الرجل إذا أسلم و لم تسلم المرأة أنه لايمسكها بل يفارقها فإذا أسلمت بعده فله أن يمسك بعصمتها وهو إنما أمسك بعصمة مسلمة لا كافرة ، وأيضاً فإن تحريم النساء المشركات على المؤمنين لم يستفد بهذه الآية ؛ بل كان ثابتاً قبل ذلك بقوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) إنما اقتضت هذه الآية حكمه سبحانه بين المؤمنين والكفار في النساء اللاتي يرتددن إلى الكفار واللاتي يهاجرن إلى المسلمين فإن الشرط كان قد وقع على أن من شاء أن يدخل في دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده دخل ، ومن شاء أن يدخل في دين قريش وعهدهم دخل ، فهاجر نسوة اخترن الإسلام وارتدت نسوة اخترن الشرك فحكم الله أحسن حكم بين الفريقين في هذه الآية ونهى المسلمين فيها أن يمسكوا بعصمة المرأة التي اختارت الكفر والشرك ؛ فإن ذلك منع لها من التزوج بمن شاءت وهي عصمة المسلم ، والعهد اقتضى أن من جاء من المسلمين : رجالهم ونسائهم إلى الكفار يقر على ذلك ، ومن جاء من الكفار إلى المسلمين يرد إليهم فإذا جاءت امرأة كافرة إلى المسلمين زالت عصمة نكاحها وأبيح للمسلمين أن يزوجوها فإذا فاتت امرأة من المسلمين إلى الكفار فلو بقيت في عصمته ممسكاً لها لكان في ذلك ضرر بها إن لم يمكنها أن تزوج وضرر به إن أمكنها أن تتزوج وهي في عصمته فاقتضى حكمه العدل الذي لا أحسن منه تعجيل التفريق بينه وبين المرأة المرتدة أو الكافرة عندهم ؛

لتتمكن من التزويج كما تتمكن المسلمة من التزويج إذا هاجرت فهذا مقتضى الآية وهي لا تقتضي أن المرأة إذا أسلمت وقعت الفرقة بمجرد إسلامها بينها وبين زوجها فلو أسلم بعد ذلك لم يكن له عليها سبيل ؛ فينبغي أن تعطى النصوص حقها ، والسنة حقها فلا تعارض بين هذه الآية وبين ما جاءت به السنة بوجه ما والكل من مشكاة واحدة يصدق بعضها بعضاً[1].

وقال رحمه الله تعالى :

وصالح[2] قريشاً على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين على أن من جاءه منهم مسلماً رده إليهم ، ومن جاءهم من عنده لا يردونه إليه ، وكان اللفظ عاماً في الرجال والنساء ؛ فنسخ الله ذلك في حق النساء وأبقاه في حق الرجال ، وأمر الله نبيه والمؤمنين أن يمتحنوا من جاءهم من النساء فإن علموها مؤمنة لم يردوها إلى الكفار ، وأمرهم برد مهرها إليهم لما فات على زوجها من منفعة بضعها ، وأمر المسلمين أن يردوا على من ارتدت امرأته إليهم مهرها إذا عاقبوا بأن يجب عليهم رد مهر المهاجرة فيردونه إلى من ارتدت امرأته ولا يردونها إلى زوجها المشرك فهذا هو العقاب وليس من العذاب في شيء ، وكان في هذا دليل على أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم ، وأنه متقوم بالمسمى الذي هو ما أنفق الزوج لا بمهر المثل وإن أنكحه الكفار ، وأن المسلم له أن يتزوج المرأة المهاجرة إذا انقضت عدتها وآتاها مهرها ، وفي هذا أبين دلالة على خروج بضعها من ملك الزوج وانفساخ نكاحها منه بالهجرة والإسلام ، وفيه دليل على تحريم نكاح المشركة على المسلم كما حرم نكاح المسلمة على الكافر ، وهذه أحكام

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/٣٣٨ :٢٤٢) .

(٢) روى أبو داود (الصحيح) (٢ / ٥٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم « أنهم اصطلحوا على وضع الحرب عشر سنين .. » .
وقال الألباني : « حسن » .
وحديث صلح الحديبية رواه البخاري (٥ / ٣٨٨) في الشروط ، باب : الشروط في الجهاد .
ومسلم (٤ / ٤٢٤) في الجهاد والسير ، باب : صلح الحديبية .

استفيدت من هاتين الآيتين وبعضها مجمع عليه ، وبعضها مختلف فيه وليس مع من ادعى نسخها حجة البتة ، فإن الشرط الذي وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الكفار في رد من جاءه مسلماً إليهم إن كان مختصاً بالرجال لم تدخل النساء فيه ، وإن كان عاماً للرجال والنساء فالله سبحانه وتعالى خصص منه رد النساء ونهاهم عن ردهن وأمرهم برد مهورهن ، وأن يردوا منها على من ارتدت امرأته إليهم من المسلمين المهر الذي أعطاها ثم أخبر أن ذلك حكمه الذي يحكم به بين عباده وأنه صادر عن علمه وحكمته ، ولم يأت عنه ما ينافي هذا الحكم ويكون بعده حتى يكون ناسخاً ، ولما صالحهم على رد الرجال كان يمكنهم أن يأخذوا من أتى إليه منهم ولا يكرهه على العود ولا يأمره به وكان إذا قتل منهم أو أخذ مالاً وقد فضل[1] عن يده ولما يلحق بهم لم ينكر عليه ذلك ولم يضمنه لهم ؛ لأنه ليس تحت قهره ولا في قبضته ولا أمره بذلك ولم يقتض عقد الصلح الأمان على النفوس والأموال إلا عمن هو تحت قهره ، وفي قبضته كما ضمن لبني جذيمة ما أتلفه عليهم خالد من نفوسهم وأموالهم ، وأنكره وتبرأ منه[2] ولما كان إصابته لهم عن نوع شبهة إذ لم يقولوا أسلمنا وإنما قالوا : صبأنا فلم يكن إسلاماً صريحاً ضمنهم بنصف دياتهم لأجل التأويل والشبهة وأجراهم في ذلك مجرى أهل الكتاب الذين قد عصموا نفوسهم وأموالهم بعقد الذمة ولم يدخلوا في الإسلام ، ولم يقتض عهد الصلح أن ينصرهم على من حاربهم ممن ليس في قبضة النبي صلى الله عليه وسلم وتحت قهره فكان في هذا دليل على أن المعاهدين إذا غزاهم قوم ليسوا تحت قهر الإمام وفي يده وإن كانوا من المسلمين أنه لا يجب على الإمام ردهم عنهم ولا منعهم من ذلك ولا ضمان ما أتلفوه عليهم . وأخذ الأحكام المتعلقة بالحرب ومصالح الإسلام وأهله وأمره وأمور السياسات الشرعية من سيره

---

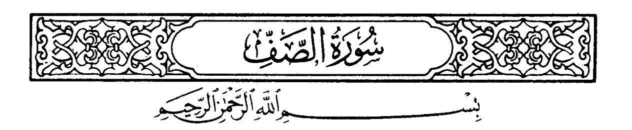
(١) هكذا في المطبوع من الزاد .

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣/٧) في المغازي، باب: بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالداً إلى بنى جذيمة. والنسائي (٨ / ٢٣٧) في آداب القضاء ، باب : نقض الحاكم ما يحكم به غيره ... وقال النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ: « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد »، مرتين . وأنظر هامش (١) (٣ / ١٤٢) من « زاد المعاد » .

ومغازيه أولى من أخذها من آراء الرجال فهذا لون وتلك لون . وبالله التوفيق[1] .

(١) زاد المعاد (٣/١٤٠-١٤٣) .

سُورَةُ الصَّفِّ



سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى عن إزاغة القلوب ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥]

وقال عن عباده المؤمنين أنهم سألوه (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) [آل عمران : ٨] وأصل الزيغ : الميل ومنه زاغت الشمس إذا مالت ، فإزاغة القلب إمالته ، وزيغه ميله عن الهدى إلى الضلال ، والزيغ يوصف به القلب والبصر كما قال تعالى (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) [الأحزاب : ١٠] وقال قتادة ومقاتل : شخصت فرقا ، وهذا تقريب للمعنى فإن الشخوص غير الزيغ وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرق ومنه شخص بصر الميت ، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر فمالت عنه ، وشخصت بالنظر إلى الأحزاب ، وقال الكلبي : مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم ، وقال الفراء : زاغت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه ، قلت : القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف ؛ فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله[1].

وتأمل قوله : ﴿ **وقد تعلمون أني رسول الله إليكم** ﴾ فإنها جملة في

---

(١) شفاء العليل (١٠٠) .

موضع الحال أي : أتؤذونني وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم ؟ وذلك أبلغ من العناد .

وكذلك المسيح قال : ﴿ **يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** ﴾ [الصف : ٦] فهذا قليل من كثير من أذاهم لأنبيائهم .

وأما أذاهم لهم بالقتل والبغي فأشهر من أن يذكر ، ولقد بالغوا في أذى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجهدهم بالقول والفعل حتى ردهم الله تعالى خاسئين[1].

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف : ١٠] .

فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف : ١١] فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال : ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة فكأنها قالت : فما لنا في الجهاد من الحظ ؟ فقال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الصف : ١٢] مع المغفرة ﴿ **يدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم** ﴾ فكأنها قالت : هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا ؟ فقال : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٣] فللّه ما أحلى هذه الألفاظ وما ألصقها بالقلوب وما أعظمها جذباً لها وتسييراً إلى ربها وما ألطف موقعها من قلب كل محب وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها ، فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم[2].

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٣٤٢) .

(١) طريق الهجرتين (٣٣٢) .

وقال رحمه الله تعالى :

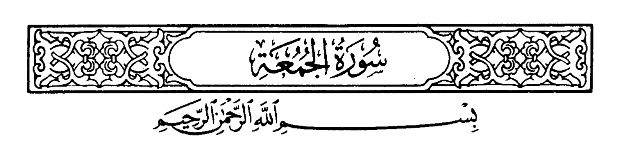
قال تعالى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف : ١١] .

معناه : آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ولذلك أجيب بالجزم في قوله : ﴿ **يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات** ﴾ ولا يصح أن يكون جواباً للاستفهام في قوله –هل أدلكم – لأن المغفرة وإدخال الجنات لا يترتب على مجرد الدلالة ، وهذا من مجاز التشبيه شبه الطلب في تأكيده بخبر الصادق الذي لابد من وقوعه وإذا شبه بالخبر الماضي كان آكد وكذلك الدعاء والأمر والنهي بالخبر الماضي إذا أريد تأكيد ماعبر عنها بالخبر المستقبل فإن بالغت في التأكيد تجوزت عنها بالخبر الماضي[١].

(١) الفوائد المشوق (٣٤) .



سُورَةُ الجُمُعَةِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٢ -٤] .

يعني وبعث في آخرين منهم لما يلحقوا بهم . وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي ، فقيل : هو اللحاق في الزمان ، أي يتأخر زمانهم عنهم ، وقيل : هو اللحاق في الفضل والسبق ، وعلى التقديرين فامتن عليهم سبحانه بأن علمهم بعد الجهل وهداهم بعد الضلالة ويالها من منة عظيمة فاتت المنن وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن[١]! .

وقال رحمه الله تعالى :

فالأولون : هم الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبوه . والآخرون : هم الذين لم يلحقوهم وهم كل من بعدهم على مناهجهم إلى يوم القيامة ، فيكون التأخر وعدم اللحاق في الفضل والرتبة ، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في الرتبة ، والقولان كالمتلازمين ، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في الزمان ، فهؤلاء الصنفان هم السعداء . وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله ولم يرفع به رأساً فهو من الصنف الثالث وهم :

(١) مفتاح دار السعادة (٦٢ -٦٣) .

﴿الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ [الجمعة:٥][1].

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة : ٥] .

الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة وتساوي الحالين عند من حمل أسفار الحكمة ، وحمل ما سواها من الأحمال ولا يشعر ذلك إلا بما يريد فيه من الكد والتعب[2].

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

من جهلهم أن الله سبحانه شبههم في حملهم التوراة ، وعدم الفقه فيها والعمل بها بالحمار يحمل أسفاراً ، وفي هذا التشبيه من النداء على جهالتهم وجوه متعددة : **منها** : أن الحمار من أبلد الحيوانات التي يضرب بها المثل في البلادة . **ومنها** : أنه لو حمل غير الأسفار من طعام أو علف أو ماء لكان له به شعور بخلاف الأسفار . **ومنها** : أنهم حُمِّلوها لا أنهم حملوها طوعاً واختياراً بل كانوا كالمكلفين لما حملوه لم يرفعوابه رأساً . **ومنها** : أنهم حيث حملوها تكليفاً وقهراً لم يرضوا بها و لم يحملوها رضاً واختياراً وقد علموا أنهم لابد لهم منها وأنهم إن حملوها اختياراً كانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة . **ومنها** : أنها مشتملة على مصالح معاشهم ومعادهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، فإعراضهم عن التزام ما فيه سعادتهم وفلاحهم إلى ضده من غاية الجهل والغباوة وعدم الفطانة[3].

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

قاس مَنْ حَمَّلَه سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ثم خالف ذلك و لم يحمله إلا على ظهر قلب فقراءته[4] بغير تدبر ولا تفهم ولا

---

(١) الرسالة التبوكية (٦٣) .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٦) .

(٣) هداية الحيارى (٢٨٦ -٢٨٧) .

(٤) هكذا في المطبوع ، والمراد قراءة من حُمِّل التوراة ..

اتباع له ولا تحكيم له ولا عمل بموجبه ؛ كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها فحظه منها : حملها على ظهره ليس إلا ، فحظ هذا من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره . فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ، ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته(١).

قال تعالى : ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ٩] وهذه أحسن من قراءة من قرأ (فامضوا إلى ذكر الله) وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وائتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا »(٢) فلم ينه عن السعي إليها ؛ بل نهاهم أن يأتوا إليها يسعون فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه ، والإتيان فعل البدن ، وسعيه عدو البدن وهو منهي عنه ، وأما السعيُ المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة من بيع وغيره والإقبال بالقلب على السعي إليها(٣).

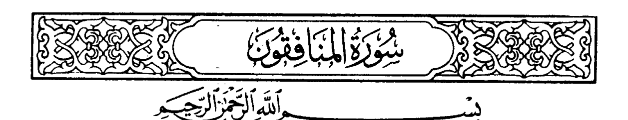
* * *

(١) إعلام الموقعين (٢١٦/١) .

(٢) رواه البخاري (٢ / ١٣٨) في الأذان ، باب لا يسعى إلى الصلاة .
وفي الجمعة (٢ / ٤٥٣) باب : المشي إلى الجمعة .
ومسلم (٢ / ٢٤٥) في المساجد ، باب : استحباب إتيان الصلاة بوقار ..

(٣) التبيان في أحكام القرآن (٧) .

سُورَةُ المُنَافِقُونَ



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في حقهم[1]: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون : ٤] .

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر ، أي لا عدو إلا هم ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ؛ بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها ؛ فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم – وهم في الباطن على خلاف دينهم – أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم ؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر ، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساء يدلون العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر فلهذا قيل : ﴿ **هم العدو فاحذرهم** ﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين[2].

قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩]

المقصود : أن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة وكان الله سبحانه أحق

---

(١) أي المنافقين .

(٢) طريق الهجرتين (٣٧٤) .

بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد وكان عدوه حقاً هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته .

ولهذا أمر سبحانه بكثرة ذكره في القرآن ، وجعله سبباً للفلاح فقال تعالى : **(واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)** [الجمعة : ١٠] **وقال:** (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) [الأحزاب : ٤١] وقال : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) [الأحزاب : ٣٥]

وقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾ [المنافقون : ٩] وقال : (فاذكروني أذكركم) [البقرة : ١٥٢] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سبق المفردون . قالوا : يا رسول الله وما المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً »[1] وفي الترمذي عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أدلكم على خير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : ذكر الله »[2] وهو في الموطأ موقوف على أبي الدرداء[3] .

وقال معاذ بن جبل : ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله[4] .

---

(١) رواه مسلم (٥ / ٥٣٤) في الذكر والدعاء ، باب : الحث على ذكر الله تعالى .
قال النووي: «قال ابن قتيبة وغيره: وأصل المفردين الذين هلك أقرانهم وانفردوا عنهم، فبقوا يذكرون الله تعالى».

(٢) حديث صحيح .
رواه الترمذي (الصحيح) (٣ / ١٣٩) في الدعوات ، باب : فضل الذكر .
وابن ماجه (الصحيح) (٢ / ٣١٦) في الأدب ، باب : فضل الذكر .
والحاكم (١ / ٤٩٦) وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) الموطأ (١ / ٢١١) في كتاب القرآن ، برقم (٢٤) .

(٤) رواه مالك في الموطأ موقوفاً عن معاذ، قال زياد بن أبي زياد، فذكره عن معاذ (١ / ٢١١) .=

وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم تبع لذكره ، والمقصود : أن دوام الذكر سبب لدوام المحبة فالذكر للقلب كالماء للزرع بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به وهو أنواع :

ذكره : بأسمائه وصفاته والثناء عليه بها .

الثاني : تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين .

الثالث : ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه وهو ذكر أهل العلم بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم .

ومن أفضل ذكره : ذكره بكلامه . قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ [طه : ١٢٤] فذكره ههنا هو كلامه الذي أنزله على رسوله وقال تعالى ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [الرعد : ٢٨] .

ومن ذكره سبحانه : دعاؤه واستغفاره والتضرع إليه فهذه خمسة أنواع من الذكر(١).

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [المنافقون : ٩] .

= ورواه الإمام أحمد مرفوعاً (٥ / ٢٣٩) .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٧٣): «رجاله رجاله الصحيح إلا أن زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش لم يدرك معاذاً » .

ورواه الطبراني في الكبير (٢٠ / ١٦٧) وقال الهيثمي « رجاله رجال الصحيح » . اهـ . لكنه مرسل ؛ فإن طاووساً لم يسمع من معاذ ، كما في التهذيب (٥ / ٩) ورواه في الصغير برقم (٢٠١) عن جابر رضي الله عنه قال الهيثمي (١٠/٧٤): «رواه في الصغير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح». وانظر الترغيب والترهيب (٢/٢٢٩) كتاب الذكر، وانظر مصادر تخريج الحديث رقم (٢) الفائت.

(١) جلاء الأفهام (٢٦٦ – ٢٦٨) .

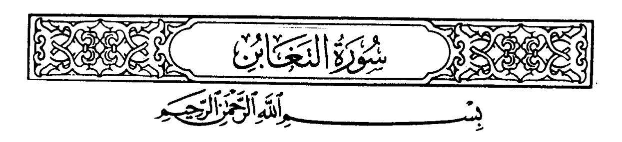
فإن في ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عز وجل ؛ فوقعوا في النفاق وسئل بعض الصحابة رضي الله عنهم عن الخوارج : منافقون هم **قال:** لا. المنافقون لا يذكرون إلا قليلاً فهذا من علامة النفاق قلة ذكر الله عز وجل وكثرة ذكره أمان من النفاق ، والله عز وجل أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق ، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل[1].

* * *

(١) الوابل الصيب (١١٠) .

سُورَةُ التَّغَابُنِ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التغابن : ١٣] .

فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل ، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه ، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والإيمان ، وبين التوكل والإسلام ، وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل والهداية[١].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] .

وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة ؛ بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر .

كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل ، حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أتوا رسول الله رأوا الناس قد فقهوا

(١) طريق الهجرتين (٢٣٨) .

في الدين ؛ هموا أن يعاقبوهم فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ﴾ الآية قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح[1].

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده ، وفي الحديث : « الولد مبخلة مجبنة »[2]. وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب قال : حدثني زيد بن واقد قال : حدثني عبد الله بن بريدة قال : سمعت أبي يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا ، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ، ثم قال : « صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) » [التغابن : ١٥] نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ؛ فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما »[3] وهذا من كمال رحمته صلى الله عليه وسلم ولطفه بالصغار ، وشفقته عليهم ، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار[4].

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ ﴾ [التغابن : ١٥] .

قال مقاتل : أي : بلاء وشغل عن الآخرة ، قال ابن عباس : فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى .

وقال الزجاج : أعلمهم الله عز وجل أن الأموال والأولاد مما يفتنون به

---

(١) سنن الترمذي (٥ / ٣٩١) في التفسير ، سورة التغابن .

(٢) رواه ابن ماجه (الصحيح) (٢ / ٢٩٥) وصححه الألباني والبوصيري (٣ / ١٦٠) .
ورواه البزار (٢ / ٣٧٨) قال الهيثمي: « رجاله ثقات » مجمع الزوائد (٨ / ١٥٥) .
ورواه عبد الرزاق في مصنفه (١١ / ١٤٠) رقم (٢٠١٤٣) والحاكم (٣ / ١٦٤) وصححه .

(٣) رواه الإمام أحمد (٥ / ٣٥٤) .
وأبو داود (الصحيح) (١ / ٢٠٦) في الجمعة ، باب : الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث .
والترمذي (الصحيح) (٣ / ٢٢٤) في المناقب ، باب : مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما .
وابن ماجه (الصحيح) (٢ / ٢٨٣) في اللباس ، باب : لبس الأحمر للرجال .

(٤) عدة الصابرين (٦٤ -٦٥) .

وهذا عام في جميع الأولاد ، فإن الإنسان مفتون بولده ، لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه ، وتناول الحرام لأجله ، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى ، ويشهد لهذا ما روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « كان يخطب فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما وعليهما قميصان أحمران يعثران ، فنزل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إليهما فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر ، وقال : صدق الله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما »[(١)] وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لا يقولن أحدكم : اللهم إني أعوذ بك من الفتنة فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة لأن الله تعالى يقول : ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن[(٢)(٣)].

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : ١٦] .

فالإيثار ضد الشح ، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه والشحيح : حريص على ما ليس بيده ، فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح ، والشح يأمر بالبخل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم والشح ؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا »[(٤)] فالبخيل : من أجاب داعي الشح، والمؤثر : من أجاب داعي الجود ، كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء ، وهو أفضل من سخاء البذل ، قال عبد الله بن المبارك : « سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل »[(٥)].

* * *

(١) انظر الحديث السابق .

(٢) انظر تفسير الطبري (٩ / ٢١٨) .

(٣) إغاثة اللهفان (٢ / ١٦٠) .

(٤) رواه أبو داود (الصحيح) (١ / ٣١٨) الزكاة ، باب : في الشح .
والحاكم (١ / ٤١٥) وصححه ووافقه الذهبي .
كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

(٥) مدارج السالكين (٢/٢٩١) .



سُورَةُ الطَّلَاقِ





بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق : ١ - ٣] .

ووجه الاستدلال[١] بالآية من وجوه :

أحدها : أنه سبحانه وتعالى إنما شرع أن تطلق لعدتها ؛ أي : لاستقبال عدتها ، فتطلق طلاقاً يعقبه شروعها في العدة ؛ ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لما طلق امرأته في حيضها قبل أن يراجعها ، وتلا هذه الآية تفسيراً للمراد بها ، وأن المراد بها الطلاق في قبل العدة ، وكذلك كان يقرؤها عبد الله بن عمر ، ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث : إنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر ؛ لأنه غير مطلق للعدة ؛ فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى . فلا تكون الثانية للعدة[٢].

وقال رحمه الله تعالى :

ففي قوله : ﴿ يا أيها النبي ﴾ إلى قوله : ﴿ قد جعل الله لكل شيء

---

(١) أي على عدم وقوع الثلاث إلا واحدة .

(٢) إغاثة اللفهان (١/٣٠٢-٣٠٣) .

قدراً ﴾ [الطلاق :١ - ٣] .

فأمر الله سبحانه الأزواج الذين لهم عند بلوغ الأجل الإمساك والتسريح بأن لا يخرجوا أزواجهم من بيوتهم ، وأمر أزواجهن أن لا يخرجن ، فدل على جواز إخراج من ليس لزوجها إمساكها بعد الطلاق ، فإنه سبحانه ذكر هؤلاء المطلقات أحكاماً متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض .

أحدها : أن الأزواج لايخرجوهن من بيوتهن .

والثاني : أنهن لا يخرجن من بيوت أزواجهن .

والثالث : أن لأزواجهن إمساكهن بالمعروف قبل انقضاء الأجل ، وترك الإمساك فيسرحوهن بإحسان .

والرابع : إشهاد ذوي عدل وهو إشهاد على الرجعة إما وجوباً وإما استحباباً وأشار سبحانه إلى حكمة ذلك وأنه في الرجعيات خاصة بقوله : (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك **أمراً**) **والأمر الذي يرجى إحداثه هاهنا : هو** المراجعة . هكذا قال السلف ومن بعدهم .

قال ابن أبي شيبة : حدثنا أبو معاوية ، عن داود الأودي ، عن الشعبي : (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك **أمراً**) قال : **لعلك تندم فيكون لك سبيل** إلى الرجعة[1]، وقال الضحاك : (**لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً**) قال : **لعله أن يراجعها في العدة**[1]**، وقاله عطاء وقتادة والحسن وقد تقدم قول فاطمة بنت** قيس ، أي أمر يحدث بعد الثلاث ؟ **فهذا يدل على أن الطلاق المذكور : هو** الرجعي الذي ثبتت فيه هذه الأحكام ، وأن حكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين اقتضته لعل الزوج أن يندم ويزول الشر الذي نزغه الشيطان بينهما ، فتتبعها نفسه فيراجعها ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لو أن الناس أخذوا بأمر الله في الطلاق ، ما تتبع رجل نفسه امرأة يطلقها أبداً ، ثم ذكر سبحانه الأمر بإسكان هؤلاء المطلقات فقال (أسكنوهن من حيث سكنتم من

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٥ / ٢٦٢) .

وجدكم) [الطلاق : ٦] فالضمائر كلها يتحد مفسرها ، وأحكامها كلها متلازمة وكان قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة »[1] مشتقاً من كتاب الله عز وجل ، ومفسراً له ، وبياناً لمراد المتكلم به منه ، فقد تبين اتحاد قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتاب الله عز وجل ، والميزان العادل معهما أيضاً لا يخالفهما ، فإن النفقة إنما تكون للزوجة فإذا بانت منه ، صارت أجنبية حكمها حكم سائر الأجنبيات ولم يبق إلا مجرد اعتدادها منه وذلك لا يوجب لها نفقة كالموطوءة بشبهة أو زنى ، ولأن النفقة إنما تجب في مقابلة التمكن من الاستمتاع ، وهذا لا يمكن استمتاعه بها بعد بينونتها ، ولأن النفقة لو وجبت لها عليه لأجل عدتها لوجبت للمتوفى عنها من ماله ولا فرق بينهما البتة فإن كل واحد منهما قد بانت عنه وهي معتدة منه . قد تعذر منهما الاستمتاع ، ولأنها لو وجبت لها السكنى لوجبت لها النفقة كما يقول من يوجبها . فأما أن تجب لها السكنى دون النفقة ، فالنص والقياس يدفعه ، وهذا قول عبد الله بن عباس وأصحابه ، وجابر بن عبد الله وفاطمة بنت قيس إحدى فقهاء نساء الصحابة . وكانت فاطمة تناظر عليه ، وبه يقول أحمد بن حنبل وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه وأصحابه ، وداود بن علي وأصحابه وسائر أهل الحديث .

وللفقهاء في هذه المسألة ثلاثة أقوال ، وهي ثلاث روايات عن أحمد : **أحدها** : هذا ، **والثاني** : أن لها النفقة والسكنى وهو قول عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وفقهاء الكوفة .

والثالث : أن لها السكنى دون النفقة ، وهذا مذهب أهل المدينة ، وبه يقول مالك والشافعي[2] .

---

(١) النسائي (٦ / ١٤٤) في الطلاق ، باب الرخصة في ذلك، وصحح إسناده ابن القيم كما في زاد المعاد (٥ / ٥٢٦) .

(٢) زاد المعاد (٥/٥٢٦ -٥٢٨) .

وقال رحمه الله تعالى :

فما من مخلوق إلا وقد جعل الله له قدراً يخصه ، والقدر يكون علمياً ويكون عينياً : فالأول هو التقدير العلمي ، وهو تقدير الشيء في العلم واللفظ والكتاب ، كما يقدر العبد في نفسه ما يريد أن يقوله ويكتبه ويفعله ، فيجعل له قدراً ، ومن هذا تقدير الله سبحانه لمقادير الخلائق في علمه وكتابه قبل تكوينها ، ثم كونها على ذلك القدر الذي علمه وكتبه[1] .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢] .

قال الربيع بن خثيم : يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس . وقال أبو العالية : مخرجاً من كل شدة وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة ، ومضايق الدنيا والآخرة . فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً .

وقال الحسن : مخرجاً مما نهاه عنه : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) [الطلاق : ٣] ، **أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته . يكفيه كل ما أهمه و «الحسب» الكافي** (**حسبنا الله**) [التوبة : ٥٩] **كافينا الله وكلما كان العبد حسن الظن بالله ، حسن الرجاء له ، صادق التوكل عليه فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة ،** فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل ولا يضيع عمل عامل . وعبر من الثقة وحسن الظن بالسعة ، فإنه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به[2].

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ [الطلاق :٢ - ٣] .

---

(١) الصواعق المرسلة (١٣٦١/٤) .

(٢) مدارج السالكين (٤٧١/١) .

ففرق بين الجزائين كما ترى وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه[1].

وقال رحمه الله تعالى :

فجعل التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها ، فحينئذ **إن توكل على الله فهو حسبه ، وكما قال في موضع آخر : (واتقوا الله وعلى الله فليتوكل** المؤمنون) [المائدة : ١١] فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض ، فإن كان مشوباً بنوع من التوكل فهو توكل عجز ، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً ، ولا يجعل عجزه توكلاً ؛ بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها .

ومن هاهنا غلط طائفتان من الناس :

إحداهما : زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل كافٍ في حصول المراد ، فعطلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله الموصلة إلى مسبباتها ، فوقعوا في نوع تفريط وعجز بحسب ما عطلوا من الأسباب ، وضعف توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب فجمعوا الهم كله وصيروه هماً واحداً ، وهذا وإن كان فيه قوة من هذا الوجه ففيه ضعف من جهة أخرى ، فكلما قوي جانب التوكل بإفراده ، أضعفه التفريط في السبب الذي هو محل التوكل فإن التوكل محله الأسباب ، وكماله بالتوكل على الله فيها ، وهذا كتوكل الحراث الذي شق الأرض وألقى فيها البذر فتوكل على الله في زرعه وإنباته فهذا قد أعطى التوكل حقه ، ولم يضعف توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بوراً ، وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة مع جِدِّه في السير ، وتوكل الأكياس في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه مع اجتهادهم في طاعته فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره ويكون الله حسب من قام به . وأما توكل العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره ، وليس الله حسب صاحبه ، فإن الله إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه ، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها لا إضاعتها .

(١) مدارج السالكين (٣/٢٧٣) .

والطائفة الثانية : التي قامت بالأسباب ورأت ارتباط المسببات بها شرعاً وقدراً ، وأعرضت عن جانب التوكل وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته ؛ فليس لها قوة أصحاب التوكل ولا عون الله لهم وكفايته إياهم ودفاعه عنهم ، بل هي مخذولة عاجزة بسبب ما فاتها من التوكل .

فالقوة كل القوة في التوكل على الله كما قال بعض السلف : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، فالقوة مضمونة للمتوكل والكفاية والحسب والدفع عنه ، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوى والتوكل ، وإلا فمع تحققه بهما لابد أن يجعل الله له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس ويكون الله حسبه وكافيه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله : (قد جعل الله لكل شيء قدراً) أي : وقتاً لا يتعداه ، فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له ، فلا يستعجل المتوكل ويقول : قد توكلت ودعوت فلم أر شيئًا ولم تحصل لي الكفاية ، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدر له ، وهذا كثير جدًا في القرآن والسنة ، وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ .

أي : كافيه و « الحسب » الكافي فإن كان – مع هذا – من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو[3] .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ

(١) زاد المعاد (٢ / ٣٦٤) .
(٢) إعلام الموقعين (٤/٢٠٥) .
(٣) مدارج السالكين (١/٨٢) .

حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] .

حكم العدة

هذا الباب قد تولى الله سبحانه بيانه في كتابه أتم بيان وأوضحه وأجمعه بحيث لا تشذ عنه معتدة ، فذكر أربعة أنواع من العدد وهي جملة أنواعها :

النوع الأول : عدة الحامل ، بوضع الحمل مطلقاً بائنة كانت أو رجعية ، مفارقة في الحياة أو متوفى عنها فقال : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ [الطلاق : ٤] **وهذا فيه عموم من ثلاث جهات** :

أحدها : عموم المخبر عنه وهو أولات الأحمال ، فإنه يتناول جميعهن .

الثاني : عموم الأجل فإنه أضافه إليهن ، وإضافة اسم الجمع إلى المعرفة يعم ، فجعل وضع الحمل جميع أجلهن .

الثالث : أن المبتدأ والخبر معرفتان أما المبتدأ : فظاهر ، وأما الخبر – وهو قوله تعالى : ﴿ أن يضعن حملهن ﴾ [الطلاق : ٤] ففي تأويل مصدر مضاف ، أي : أجلهن وضع حملهن ، والمبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين ، اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول كقوله : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) [فاطر : ١٥] .

وبهذا احتج جمهور الصحابة على أن الحامل المتوفى عنها زوجها عدتها وضع حملها ، ولو وضعته والزوج على المغتسل كما أفتى به النبي صلى الله عليه وسلم لسبيعة الأسلمية وكان هذا الحكم والفتوى منه مشتقاً من كتاب الله مطابقاً له .

فصــــل

النوع الثاني : عدة المطلقة التي تحيض وهي ثلاثة قروء كما قال الله تعالى : (**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**) [البقرة : ٢٢٨] .

النوع الثالث : عدة التي لا حيض لها وهي نوعان : صغيرة لا تحيض وكبيرة قد يئست من الحيض ، فبين الله سبحانه عدة النوعين بقوله : ﴿ **واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن** ﴾ [الطلاق : ٤] أي : فعدتهن كذلك .

النوع الرابع : المتوفى عنها زوجها فبين عدتها سبحانه بقوله : (والذين يتوفون منكم ويذرون **أزواجاً يتربصن** بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) [البقرة : ٢٣٤] فهذا يتناول المدخول بها وغيرها ، والصغيرة والكبيرة ، ولا تدخل فيه الحامل لأنها خرجت بقوله : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ فجعل وضع حملهن جميع أجلهن ، وحصره فيه بخلاف قوله في المتوفى عنهن [يتربصن] فإنه فعل مطلق لا عموم له وأيضاً فإن قوله : ﴿ **أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ [الطلاق : ٤] متأخر في النزول عن قوله [يتربصن] وأيضاً فإن قوله : (**يتربصن** بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) [البقرة : ٢٣٤] في غير الحامل بالاتفاق فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته ، فعمومها مخصوص اتفاقاً وقوله : ﴿ **أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ [الطلاق : ٤] غير مخصوص بالاتفاق ، هذا لو لم تأت السنة الصحيحة بذلك ، ووقعت الحوالة على القرآن فكيف والسنة الصحيحة موافقة لذلك ، مقررة له .

فهذه أصول العدد في كتاب الله مفصلة مبينة ولكن اختلف في فهم المراد من القرآن ودلالته في مواضع من ذلك ، وقد دلت السنة بحمد الله على مراد الله منها ، ونحن نذكرها ونذكر أولى المعاني و أشبهها بها ودلالة السنة عليها .

فمن ذلك اختلاف السلف في المتوفى عنها إذا كانت حاملاً ، فقال علي وابن عباس وجماعة من الصحابة : أبعد الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشراً . وهذا أحد القولين في مذهب مالك رحمه الله اختاره سحنون ، قال الإمام أحمد في رواية أبي طالب عنه : علي بن أبي طالب وابن عباس يقولان في **المعتدة الحامل أبعد الأجلين ، وكان ابن مسعود يقول : من شاء باهلته . إن**

سورة النساء القُصرى نزلت بعد[1] ، وحديث سبيعة يقضي بينهم : « إذا وضعت فقد حلت » وابن مسعود يتأول القرآن : ﴿ أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ [الطلاق : ٤] هي في المتوفى عنها والمطلقة مثلها إذا وضعت فقد حلت وانقضت عدتها ، ولا تنقضي عدة الحامل إذا أسقطت حتى يتبين خلقه فإذا بان له يد أو رجل عتقت به الأمة ، وتنقضي به العدة ، وإذا ولدت ولداً وفي بطنها آخر ، لم تنقض العدة حتى تلد الآخر ، ولا تغيب عن منزلها الذي أصيب فيه زوجها أربعة أشهر وعشراً إذا لم تكن حاملاً والعدة من يوم يموت أو يطلق . هذا كلام أحمد وقد تناظر في هذه المسألة : ابن عباس وأبو هريرة رضى الله عنهما فقال أبو هريرة : عدتها وضع الحمل . وقال ابن عباس : تعتد أقصى الأجلين . فحكما أم سلمة رضي الله عنها فحكمت لأبي هريرة واحتجت بحديث سبيعة[2] وقد قيل : إن ابن عباس رجع .

وقال جمهور الصحابة ومن بعدهم والأئمة الأربعة : إن عدتها وضع الحمل ولو كان الزوج على مغتسله فوضعت ، حلت قال أصحاب الأجلين : هذه قد تناولها عمومان ، وقد أمكن دخولها في كليهما فلا تخرج من عدتها بيقين حتى تأتي بأقصى الأجلين . قالوا : ولا يمكن تخصيص عموم إحداهما بخصوص الأخرى لأن كل آية عامة من وجه ، خاصة من وجه ، قالوا : فإذا أمكن دخول بعض الصور في عموم الآيتين ، يعني : إعمالاً للعموم في مقتضاه فإذا اعتدت أقصى الأجلين دخل أدناهما في أقصاهما والجمهور أجابوا عن هذا بثلاث أجوبة:

أحدها : أن صريح السنة يدل على اعتبار الحمل فقط كما في الصحيحين : أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حبلى فوضعت فأرادت أن تنكح فقال لها أبو السنابل : ما أنت بناكحة حتى تعتدي آخر الأجلين . فسألت النبي

(١) رواه أبو داود (الصحيح) (٢ / ٤٣٨) في الطلاق ، باب : في عدة الحامل .
والنسائي (٦ / ١٩٧) نفس الكتاب والباب .
وابن ماجه (الصحيح) (١ / ٣٤٥) في الطلاق ، باب : الحامل المتوفى عنها زوجها .
وانظر فتح الباري (٨ / ٥٢١) التفسير ، باب : سورة الطلاق .

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢ / ٥٨٩) في الطلاق ، باب : عدة المتوفى عنها زوجها .
والنسائي (٦ / ١٩١) نفس الكتاب والباب .

صلى الله عليه وسلم فقال : « كذب أبو السنابل ، قد حللت فانكحي من شئت »[١] .

الثاني : أن قوله : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ [الطلاق : ٤] نزلت بعد قوله : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) [البقرة : ٢٣٤] وهذا جواب عبد الله بن مسعود كما في صحيح البخاري عنه : أتجعلون عليها التغليظ ، ولا تجعلون لها الرخصة أشهد لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ [الطلاق : ٤] وهذا الجواب يحتاج إلى تقرير فإن ظاهره أن آية الطلاق مقدمة على آيه البقرة لتأخرها عنها ، فكانت ناسخة لها ، ولكن النسخ عند الصحابة والسلف أعم منه عند المتأخرين فإنهم يريدون به ثلاثة معان :

أحدها : رفع الحكم الثابت بخطاب .

الثاني : رفع دلالة الظاهر إما بتخصيص وإما بتقييد وهو أعم مما قبله .

الثالث : بيان المراد باللفظ الذي بيانه من خارج ، وهذا أعم من المعنيين الأولين .

فابن مسعود رضي الله عنه أشار بتأخر نزول سورة الطلاق إلى أن آية الاعتداد بوضع الحمل ناسخة لآية البقرة إن كان عمومها مراداً ، أو مخصصة لها إن لم يكن عمومها مراداً أو مبينة للمراد منها ، أو مقيدة لإطلاقها . وعلى التقديرات الثلاث فيتعين تقديمها على عموم تلك وإطلاقها ، وهذا من كمال فقهه رضي الله عنه ورسوخه في العلم ومما يبين أن أصول الفقه سجية القوم ، وطبيعة لا يتكلفونها ، كما أن العربية والمعاني والبيان وتوابعها لهم كذلك ، فمن بعدهم فإنما يجهد نفسه ليتعلق بغبارهم وأنى له ؟! .

الثالث : أنه لو لم تأت السنة الصريحة باعتبار الحمل و لم تكن آية الطلاق

(١) رواه البخاري (٩ / ٣٧٩) في الطلاق ، باب ﴿ واللائي يئسن من المحيض ﴾ .
ومسلم (٣ / ٧٠٣ - ٧٠٤) في الطلاق ، باب : انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها .

متأخرة ؛ لكان تقديمها هو الواجب لما قررناه أولاً من جهات العموم الثلاثة فيها وإطلاق قوله : [يتربصن] وقد كانت الحوالة على هذا الفهم ممكنة ؛ ولكن لغموضه ودقته على كثير من الناس أحيل في ذلك الحكم على بيان السنة . وبالله التوفيق .

فصـــل

ودل قوله سبحانه : ﴿ **أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ [الطلاق : ٤] على أنها إذا كانت حاملاً بتوأمين لم تنقض العدة حتى تضعهما **جميعاً** ، ودلت على أن من عليها الاستبراء فعدتها وضع الحمل أيضاً ، ودلت على أن العدة تنقضي بوضعه على أي صفة كان حياً أو ميتاً ، تام الخلقة أو ناقصها ، نفخ فيه الروح أو لم ينفخ ، ودل قوله : (يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) [البقرة : ٢٣٤] على الاكتفاء بذلك وإن لم تحض . وهذا قول الجمهور ، وقال مالك : إذا كان عادتها أن تحيض في كل سنة مرة فتوفي عنها زوجها ، لم تنقض عدتها حتى تحيض حيضتها فتبرأ من عدتها فإن لم تحض ، انتظرت تمام تسعة أشهر من يوم وفاته وعنه رواية ثانية كقول الجمهور أنها تعتد أربعة أشهر وعشراً ولا تنتظر حيضها[1] .

فصـــل

وقال رحمه الله تعالى :

وأما عدة الآيسة ، والتي لم تحض ، فقد بينها سبحانه في كتابه فقال : ﴿ **واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن** ﴾ [الطلاق : ٤] .

وقد اضطرب الناس في حد الإياس اضطراباً شديداً : فمنهم من حده

(١) زاد المعاد (٥/٥٩٤ - ٦٠٠) .

بخمسين سنة وقال : لا تحيض المرأة بعد الخمسين . وهذا قول إسحاق ورواية عن أحمد رحمه الله ، واحتج أرباب هذا القول بقول عائشة رضي الله عنها : إذا بلغت خمسين سنة خرجت من حد المحيض وحده طائفة بستين سنة وقالوا : لا تحيض بعد الستين . وهذه رواية ثانية عن أحمد وعنه رواية ثالثة : الفرق بين نساء العرب وغيرهم فحده ستون في نساء العرب وخمسون في نساء العجم . وعنه رواية رابعة : أن ما بين الخمسين والستين دم مشكوك فيه ، تصوم وتصلي وتقضي الصوم المفروض وهذه اختيار الخرقي ، وعنه رواية خامسة : أن الدم إن عاود بعد الخمسين وتكرر فهو حيض وإلا فلا .

وأما الشافعي رحمه الله فلا نص له في تقدير الإياس بمدة وله قولان بعد :

أحدهما : أنه يعرف بيأس أقاربها .

والثاني : أنه يعرف بيأس جميع النساء .

فعلى القول الأول هل المعتبر جميع أقاربها أو نساء عصباتها أو نساء بلدها خاصة ؟ فيه ثلاثة أوجه . ثم إذا قيل : يعتبر بالأقارب فاختلفت عادتهن فهل يعتبر بأقل عادة منهن أو بأكثرهن عادة أو بأقصر امرأة في العالم عادة ؟ على ثلاثة أوجه . والقول الثاني للشافعي رحمه الله : أن المعتبر جميع النساء ، ثم اختلف أصحابه : هل لذلك حد أم لا ؟ . على وجهين : أحدهما : ليس له حد وهو ظاهر نصه والثاني : له حد ثم اختلفوا فيه على وجهين . **أحدهما** : أنه ستون سنة ، قاله أبو العباس بن القاص والشيخ أبو حامد . **والثاني** : اثنان وستون سنة . قاله الشيخ أبو إسحاق في « المهذب » وابن الصباغ في « الشامل » .

وأما أصحاب مالك رحمه الله فلم يحدوا سن الإياس بحد البته . وقال آخرون ، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية : اليأس يختلف باختلاف النساء وليس له حد يتفق فيه النساء والمراد بالآية : أن يأس كل امرأة من نفسها ؛ لأن اليأس ضد الرجاء فإذا كانت المرأة قد يئست من الحيض ، ولم ترجه فهى آيسة وإن كان لها أربعون أو نحوها ، وغيرها لا تيأس منه وإن كان لها خمسون .

وقد ذكر الزبير بن بكار : أن بعضهم قال : لا تلد لخمسين سنة إلا عربية ، ولا تلد لستين سنة إلا قرشية . وقال : إن هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله ابن ربيعة ولدت موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ولها ستون سنة . وقد صح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين ثم يرتفع حيضها لا تدري ما رفعه أنها تتربص تسعة أشهر ، فإن استبان بها حمل وإلا اعتدت ثلاثة أشهر ، وقد وافقه الأكثرون على هذا . منهم : مالك وأحمد والشافعي في القديم . قالوا : تتربص غالب مدة الحمل ثم تعتد عدة الآيسة ثم تحل للأزواج ، ولو كانت بنت ثلاثين سنة أو أربعين وهذا يقتضي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن وافقه من السلف والخلف تكون المرأة آيسة عندهم قبل الخمسين وقبل الأربعين ، وأن اليأس عندهم ليس وقتاً محدوداً للنساء بل مثل هذه تكون آيسةً وإن كانت بنت ثلاثين ، وغيرها لا تكون آيسة وإن بلغت خمسين ، وإذا كانوا فيمن ارتفع حيضها ولا تدري ما رفعه ، جعلوها آيسة بعد تسعة أشهر ، فالتي تدري ما رفعه إما بدواء يعلم أنه لا يعود معه ، وإما بعادة مستقرة لها من أهلها وأقاربها أولى أن تكون آيسة وإن لم تبلغ الخمسين ، وهذا بخلاف ما إذا ارتفع لمرض أو رضاع أو حمل فإن هذه ليست آيسة فإن ذلك يزول .

فالمراتب ثلاثة :

أحدها : أن ترتفع ليأس معلوم متيقن بأن تنقطع عاماً بعد عام ويتكرر انقطاعه أعواماً متتابعة ، ثم يطلق بعد ذلك ، فهذه تتربص ثلاثة أشهر بنص القرآن سواء كانت بنت أربعين أو أقل أو أكثر ، وهي أولى بالتربص بثلاثة أشهر من التي حكم فيها الصحابة والجمهور بتربصها تسعة أشهر ثم ثلاثة ، فإن تلك كانت تحيض وطلقت وهي حائض ، ثم ارتفع حيضها بعد طلاقها لا تدرى ما رفعه ، فإذا حكم فيها بحكم الآيسات بعد انقضاء غالب مدة الحمل ، فكيف بهذه ؟ ولهذا قال القاضي إسماعيل في «أحكام القرآن» : إذا كان الله سبحانه قد ذكر اليأس مع الريبة فقال تعالى ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم

فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ [الطلاق : ٤] ثم جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفظ موافق لظاهر القرآن لأنه قال : أيما امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين ثم ارتفعت حيضتها لا تدري ما رفعها ، فإنها تنتظر تسعة أشهر ثم تعتد ثلاثة أشهر ، فلما كانت لا تدري ما الذي رفع الحيضة ، كان موضع الارتياب ، فحكم فيها بهذا الحكم وكان اتباع ذلك ألزم وأولى من قول من يقول : إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين فيرتفع حيضها وهي شابة أنها تبقى ثلاثين سنة معتدة ، وإن جاءت بولد لأكثر من سنتين لم يلزمه فخالف ما كان من إجماع المسلمين الذي مضوا لأنهم كانوا مجمعين على أن الولد يلحق بالأب ما دامت المرأة في عدتها . فكيف يجوز أن يقول قائل : إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين ويكون بينها وبين زوجها أحكام الزوجات ، ما دامت في عدتها من الموارثة وغيرها ؟ فإن جاءت بولد لم يلحقه وظاهر عدة الطلاق أنها جعلت من الدخول الذي يكون منه الولد ، فكيف تكون المرأة معتدة والولد لا يلزم ؟ قلت : هذا إلزام منه لأبي حنيفة فإن عنده أقصى مدة الحمل سنتان ، والمرتابة في أثناء عدتها لا تزال في عدة حتى تبلغ سن الإياس فتعتد به ، وهو يلزم الشافعي في قوله الجديد سواء ، إلا أن مدة الحمل عنده أربع سنين ، فإذا جاءت به بعدها لم يلحقه وهي في عدتها منه . قال القاضي إسماعيل : واليأس يكون بعضه أكثر من بعض وكذلك القنوط وكذلك الرجاء وكذلك الظن ، ومثل هذا يتسع الكلام فيه فإذا قيل منه شيء أنزل على قدر ما يظهر من المعنى فيه . فمن ذلك أن الإنسان يقول : قد يئست من مريضي ، إذا كان الأغلب عنده أنه لا يبرأ ، ويئست من غائبي إذا كان الأغلب عنده أنه لا يقدم ، ولو قال : إذا مات غائبه أو مات مريضه : قد يئست منه ، لكان الكلام عند الناس على غير وجهه ؛ إلا أن يتبين معنى ما قصد له في كلامه ، مثل أن يقول : كنت وجلاً في مرضه مخافة أن يموت ، فلما مات وقع اليأس . فينصرف الكلام على هذا وما أشبهه ، إلا أن أكثر ما يلفظ باليأس إنما يكون فيما هو الأغلب عند اليأس أنه لا يكون وليس واحد من اليائس والطامع يعلم يقيناً أن ذلك الشيء يكون أو لا يكون . وقال الله تعالى : (والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن

يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) [النور : ٦٠] والرجاء ضد اليأس والقاعدة من النساء قد يمكن أن تزوج ؛ غير أن الأغلب عند الناس فيها أن الأزواج لا يرغبون فيها وقال الله تعالى : (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) [الشورى : ٢٨] والقنوط : شبه اليأس وليس يعلمون يقيناً أن المطر لا يكون ؛ ولكن اليأس دخلهم حين تطاول إبطاؤه وقال الله تعالى : (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا) [يوسف : ١١٠] فلما ذكر أن الرسل هم الذين استيأسوا كان فيه دليل على أنهم دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه ؛ لأن اليقين في ذلك إنما يأتيهم من عند الله كما قال في قصة نوح : (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) [هود : ٣٦] وقال الله تعالى في قصة إخوة يوسف : (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) [يوسف : ٨٠] فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين . وقد حدثنا ابن أبي أويس ، حدثنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول في خطبته : تعلمن أيها الناس أن الطمع فقر وأن اليأس غنى ، وأن المرء إذا يئس من شيء استغنى عنه . فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع ، وسمعت أحمد بن المعدل ينشد شعراً لرجل من القدماء يصف ناقة :

صَفْرَاءُ مِن تَلْدِ بَنِي العَبَّاس صَيَّرتُها كَالظَّبي في الكِنَاسِ
تَدِرُّ أن تَسْمَعَ بالإبسَاس فَالنَّفْسُ بَيْنَ طَمَعٍ وَيَاسِ[1]

فجعل الطمع بإزاء اليأس .

وحدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا جرير بن حازم ، عن الأعمش عن سلام بن شرحبيل ، قال : سمع حبة بن خالد وسواء بن خالد أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم ، قالا : علمنا شيئاً ثم قال : « لا تياسا من الخير ما تهززت رؤوسكما ؛ فإن كل عبد يولد أحمر ليس عليه قشرة ثم يرزقه الله ويعطيه »[2] .

(١) يقال (بَسَّ) الإبل و (أَبَسَّها) زجرها وقال لها: (بس بس) ، وذلك عند حلبها . من مختار الصحاح .

(٢) رواه الإمام أحمد (٣ / ٤٦٩) .
وابن ماجه (٢ / ١٣٩٤) في الزهد ، باب : التوكل واليقين .

وحدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا ابن عيينة ، قال : قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم : يا أبا حازم ، ما مالك ؟ . قال : خير مال ثقتي بالله ، ويأسي مما في أيدي الناس . قال : وهذا أكثر من أن يحصى . انتهى .

قال شيخنا : وليس للنساء في ذلك عادة مستمرة ، بل فيهن من لا تحيض وإن بلغت ، وفيهن من تحيض حيضاً يسيراً يتباعد ما بين أقرائها حتى تحيض في السنة مرة ؛ ولهذا اتفق العلماء على أن أكثر الطهر بين الحيضتين لا حد له ، وغالب النساء يحضن كل شهر مرة ويحضن ربع الشهر ، ويكون طهرهن ثلاثة أرباعه ومنهن من تطهر الشهور المتعددة لقلة رطوبتها ومنهن من يسرع إلى الجفاف فينقطع حيضها وتيأس منه ، وإن كان لها دون الخمسين بل والأربعين ، ومنهن من لا يسرع إليها الجفاف فتجاوز الخمسين وهي تحيض . قال : وليس في الكتاب ولا السنة تحديد اليأس بوقت ، ولو كان المراد بالآيسة من المحيض من لها خمسون سنة أوستون سنة أو غير ذلك لقيل : واللائي يبلغن من السن كذا وكذا ولم يقل : يئسن . وأيضاً فقد ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم جعلوا من ارتفع حيضها قبل ذلك يائسة كما تقدم .

والوجود مختلف في وقت يأسهن غير متفق ، وأيضاً فإنه سبحانه قال : ﴿ **واللائي يئسن** ﴾ ولو كان له وقت محدود ، لكانت المرأة وغيرها سواء في معرفة يأسهن وهو سبحانه قد خص النساء بأنهن اللائي يئسن كما خصهن بقوله : ﴿ **واللائي لم يحضن** ﴾ فالتي تحيض هي التي تيأس ، وهذا بخلاف الارتياب فإنه سبحانه قال : ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ ولم يقل : إن ارتبن ، أي : إن ارتبتم في حكمهن ، وشككتم فيه ، فهو هذا لا هذا الذي عليه جماعة أهل التفسير ، كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث جرير وموسى بن أعين واللفظ له ، عن مطرف بن طريف ، عن عمرو بن سالم عن أبي بن كعب ، قال : قلت : يارسول الله ! إن ناساً بالمدينة يقولون في عدد النساء ما لم يذكر الله في القرآن الصغار والكبار

= وقال الحافظ في الإصابة (٢ / ٢٠٠) : « إسناده حسن » .

ووقع في زاد المطبوع « ما تهزهزت » والذي في المصادر « تهزت » وهو ما أثبته ، وهو بمعنى تحركت ، كناية عن الحياة .

وأولات الأحمال فأنزل الله سبحانه في هذه السورة : ﴿ **والـلائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ [الطلاق : ٤][1] **فأجل إحداهن أن تضع حملها فإذا** وضعت فقد قضت عدتها . ولفظ جرير : قلت : يا رسول الله ! إن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء ، قالوا : لقد بقي **من عدد النساء عدد لم يذكرن في القرآن ، الصغار والكبار التي قد انقطع عنها** الحيض ، وذوات الحمل قال : فأنزلت التي في النساء القصرى : ﴿ **واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم**﴾ [الطلاق : ٤][2] **ثم روى عن سعيد بن جبير في** قوله : ﴿ **واللائي يئسن من المحيض من نسائكم** ﴾ يعني الآيسة العجوز التي لا تحيض ، أو المرأة التي قعدت عن الحيضة ، فليست هذه من القروء في شيء وفي قوله : ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ في الآية يعني : إن شككتم فعدتهن ثلاثة أشهر وعن مجاهد : ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ : لم تعلموا عدة التي قعدت عن الحيض أو التي لم تحض فعدتهن ثلاثة أشهر . فقوله تعالى : ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ يعني : إن سألتم عن حكمهن ولم تعلموا حكمهن وشككتم فيه ، فقد بيناه لكم . فهو بيان لنعمته على من طلب عليه ذلك ليزول ما عنده من الشك والريب ، بخلاف المعرض عن طلب العلم . وأيضاً فإن النساء لا يستوين في ابتداء الحيض ، بل منهن من تحيض لعشر أو اثنتي عشرة أو خمس عشرة أو أكثر من ذلك ، فكذلك لا يستوين في آخر سن الحيض الذي هو سن اليأس والوجود شاهد بذلك ، وأيضاً فإنهم تنازعوا فيمن بلغت ولم تحض ، هل تعتد بثلاثة أشهر ، أو بالحول كالتي ارتفع حيضها لا تدري ما رفعه ؟ وفيه روايتان عن أحمد .

---

(١) رواه ابن جرير (٢٨ / ١٤١) .
والحاكم (٢ / ٤٩٢ - ٤٩٣) وصححه ووافقه الذهبي ولكن « عمرو بن سالم ، وهو أبو عثمان الأنصاري » **وإن كان ثقة فإنه لم يدرك ، وحديثه عن أبي بن كعب مرسل .**
انظر التهذيب (١٢ / ١٦٢) .
والدر المنثور (٨ / ٢٠١) .

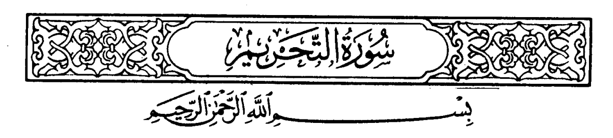
(١) انظر تخريج الحديث السابق .

قلت : والجمهور على أنها تعتد بثلاثة أشهر ، ولم يجعلوا للصغر الموجب للاعتداد بها حداً ، فكذلك يجب أن لا يكون للكبر الموجب للاعتداد بالشهور حداً ، وهو ظاهر ولله الحمد[١].

* * *

(١) زاد المعاد (٦٥٧/٥ -٦٦٤) .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : ٤] .

إن لغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه ، فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفرده أفردوه ، وإن أضافوه إلى اسم جمع ظاهر أو مضمر جمعه وإن أضافوه إلى اسم مثنى فالأفصح في لغتهم جمعه كقوله تعالى : ﴿ **فقد صغت قلوبكما** ﴾ وإنما هما قلبان وكقوله : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) [المائدة : ٣٨] وتقول العرب : اضرب أعناقهما وهذا أفصح في استعمالهم[1].

قال تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

[التحريم :٦]

فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره، ليس بهم عجز عنها ، بخلاف من يترك ما أمر به عجزاً فلا يعصي الله ما أمره وإن لم يفعل ما أمر به ، وكذلك البحار قد وكلت بها ملائكة تسجوها وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلها ، وكذلك أعمال بني آدم خيرها وشرها قد وكلت بها ملائكة تحصيها وتحفظها وتكتبها ؛ ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به وهي خمس : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وإذا عرف ذلك عرف أن كل حركة في العالم فسببها الملائكة ، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته ، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعاً

(١) الصواعق المرسلة (٣٢/١) .

وقدراً . والملائكة هم المنفذون ذلك بأمره ولذلك سموا ملائكة من الألوكة : وهي الرسالة فهم رسل الله في تنفيذ أوامره[1].

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [التحريم : ٨] .

فجعل وقاية شر السيئات وهو تكفيرها بزوال ما يكره العبد ، ودخول الجنات وهو حصول ما يحب العبد ؛ منوطاً بحصول التوبة النصوح . والنصوح : على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة كالشكور والصبور . وأصل مادة (ن ص ح) إخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة ، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح : إذا خلص . فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة : تخليصها من كل غش ونقص وفساد ، وإيقاعها على أكمل الوجوه . والنصح : ضد الغش . وقد اختلفت عبارات السلف عنها ومرجعها إلى شيء واحد . فقال عمر بن الخطاب وأُبي بن كعب رضى الله عنهما : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع . وقال الحسن البصري : هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود فيه . وقال الكلبي : أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن . وقال سعيد بن المسيب : توبة نصوحاً : تنصحون بها أنفسكم جعلها بمعنى ناصحة للتائب ، كضروب المعدول عن ضارب . وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول أي : قد نصح فيها التائب ولم يشبها بغش ، فهي : إما بمعنى منصوح فيها كركوبة وحلوبة بمعنى : مركوبة ومحلوبة أو بمعنى الفاعل أي : ناصحة ، كخالصة وصادقة . وقال محمد بن كعب القرظي : يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيء الإخوان قلت : النصح في لتوبة يتضمن ثلاثة أشياء :

الأول : تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته .

(١) روضة المحبين (٦٨) .

والثاني : إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار ؛ بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها .

الثالث : تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده ؛ لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ، ومنصبه ورياسته ، ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله ، أو استدعاء حمد الناس ، أو الهرب من ذمهم ، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء ، أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه ، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل .

فالأول : يتعلق بما يتوب منه ، **والثالث** : يتعلق بمن يتوب إليه ، **والأوسط** : يتعلق بذات التائب ونفسه . فنصح التوبة : الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها . ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهي أكمل ما يكون من التوبة .. والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

قول الله تعالى ذكره : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ * وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ [التحريم : ١٠ - ١٢]

فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال : مثل للكفار ومثلين للمؤمنين . فيتضمن مثل الكفار : أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو وصلة صهر أو سبب

(١) مدارج السالكين (٣٠٩/١ - ٣١٠) .

من أسباب الاتصال ؛ فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدي رسله ، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما ، فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل : ادخلا النار مع الداخلين ، قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي ، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال . فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية ولم يغن نوح عن ابنه ولا إبراهيم عن أبيه ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئاً . قال الله تعالى : (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم) [الممتحنة : ٣] وقال تعالى : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً) [الانفطار : ١٩] وقال تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ [البقرة : ٤٨] .

وقال : (واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق) [الروم : ٣٣] وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة : أن ما تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة أو يجيرهم من عذاب الله ، أو يشفع لهم عند الله ، وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم وهو الشرك الذي لا يغفره الله ، وهو الذي بعث الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه بإبطاله ومحاربة أهله ومعاداتهم ، وأما المثلان اللذان للمؤمنين :

فأحدهما : امرأة فرعون ووجه المثل : أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله . فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله ، فتأتي عامة . فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين . ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين .

المثل الثاني للمؤمنين : مريم التي لا زوج لها لا مؤمن ولا كافر فذكر ثلاثة أصناف النساء : المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التي لها

وصلة بالرجل الكافر ، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد .

فالأولى : لا تنفعها وصلتها وسببها ، **والثانية** : لا تضرها وصلتها وسببها ، **والثالثة** : لا يضرها عدم الوصلة شيئاً .

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة ، فإنها **سيقت في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحذيرهن من التظاهر عليه**[1]، **وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله** صلى الله عليه وسلم ، كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصالهما بهما ؛ ولهذا ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة . قال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة ، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة . وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً : اعتبار آخر وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قذف أعداء الله اليهود لها ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين . فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه . وفي هذا أيضاً تسلية لعائشة أم المؤمنين ، إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك ، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها . كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما تعمدتاه في حق النبي صلى الله عليه وسلم . فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد ، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن وكذب عليهن . وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ولا سيماً أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون[2].

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤ / ٤١٠) عند تفسير الآية .

(٢) إعلام الموقعين (٢٢٥/١ -٢٢٨) .

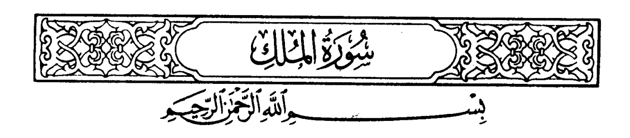
وقال أيضاً رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ **وقيل ادخلا النار مع الداخلين** ﴾ كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم . والله تعالى أعلم بالصواب[1] .

* * *

(١) روضة المحبين (٧٥) .

سُورَةُ المُلْكِ



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك : ١٣]

ثم قرر علمه بذلك بقوله : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ [الملك : ١٤] وهذا من أبلغ التقرير فإن الخالق لابد أن يعلم مخلوقه ، والصانع يعلم مصنوعه ، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه ، وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه ، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور ، فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها ، ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه ، فأكفرهم السلف قاطبة .

وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين ، أعني : تقدير أن تكون «من» في محل رفع على الفاعلية وفي محل نصب على المفعولية ، فعلى التقدير الأول : ألا يعلم الخالق الذي شأنه الخلق وعلى التقدير الثاني : ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه .

ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق ، حتى عجزت عنه **الأفهام** ، والخبير الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها ، كما أحاط بظواهرها ، فكيف تخفى على اللطيف الخبير ما تحويه الضمائر وتخفيه الصدور[1].

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٩١) .

وقال رحمه الله تعالى :

وذات الصدور كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض ؛ أي : صاحبة الصدور فإنها لما كانت فيها قائمة بها نسبت إليها نسبة الصحبة والملازمة ، وقد اختلف في إعراب ﴿ **من خلق** ﴾ هو النصب أو الرفع فإن كان مرفوعاً فهو استدلال على علمه بذلك لخلقه له والتقدير : أنه يعلم ما تضمنته الصدور وكيف لا يعلم الخالق ما خلقه وهذا الاستدلال في غاية الظهور والصحة فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته وإن كان منصوباً فالمعنى ألا يعلم مخلوقه وذكر لفظة (من) تغليباً ليتناول العلم العاقل وصفاته على التقديرين فالآية دالة على خلق ما في الصدور ، كما هي دالة على علمه سبحانه به وأيضاً فإنه سبحانه خلقه لما في الصدور دليلاً على علمه بها ، فقال ألا يعلم من خلق أي : كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه فلو كان ذلك غير مخلوق له لبطل الاستدلال به على العلم فخلقه سبحانه للشيء من أعظم الأدلة على علمه به ، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم ، فلم يبق ما يدل على علمه بما ينطوي عليه الصدر إذا كان غير خالق لذلك ، وهذا من أعظم الكفر برب العالمين وجحد لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم ، وعلم بالضرورة أنهم ألقوه إلى الأمم كما ألقوا إليهم أنه إلـه واحد لا شريك له[1].

قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] .

أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولاً منقادة للوطء عليها ، وحفرها وشقها والبناء عليها ، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها ، وأخبر سبحانه أنه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً ، وأخبر أنه دحاها وطحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها ، وثبتها بالجبال ، ونهج فيها الفجاج والطرق وأجرى فيها الأنهار والعيون ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ومن بركتها أن الحيوانات وأرزاقها وأقواتها تخرج منها ، ومن بركتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف

(١) شفاء العليل (٥٥ -٥٦) .

أضعاف ما كان ، ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مليح ، ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها وتضمه وتؤويه وتخرج له طعامه وشرابه فهي أحمل شيء للأذى وأعوده بالنفع فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذى وأقرب إلى الخير . والمقصود : أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول كيفما يقاد ينقاد . وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً ، فالماشي عليها يطأ على مناكبها وهو أعلى شيء فيها ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان وهي أعاليه . قالوا : وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر وقالت طائفة : بل المناكب والجوانب والنواحي ومنه مناكب الإنسان لجوانبه ، والذي يظهر : أن المراد بالمناكب الأعالي . وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له فإن سطح الكرة أعلاها ، والمشي إنما يقع في سطحها وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول ، ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها فذللها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها وأودعها رزقهم ، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن ثم نبه بقوله : ﴿ **وإليه النشور** ﴾ على أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين بل دخلناه عابري سبيل ، فلا يحسن أن نتخذه وطناً ومستقراً وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار فهو منزل عبور لا مستقر حبور ومعبر وممر لا وطن

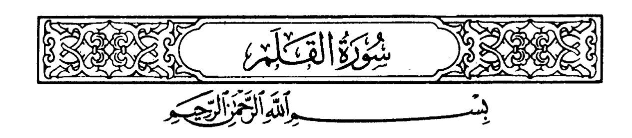
فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته وقدرته وحكمته ولطفه والتذكير بنعمه وإحسانه والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطناً ومستقراً ، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته فللّه ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه والحث على السير إليه والاستعداد للقائه والقدوم عليه والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن ، و أنه يحيي أهلها بعد ما أماتهم وإليه النشور[1].

* * *

(١) الفوائد (٢٠ –٢١) .



سُورَةُ القَلَمِ



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾

[القلم : ١ - ٢]

الصحيح أن (ن) و (ق) و (ص) من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ولم تجاوز الخمسة ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن إما مقسما به ، وإما مخبراً عنه ، ما خلا سورتين سورة كهيعص ون كقوله (الم ذلك الكتاب) [البقرة: ١-٢] **(الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب)** [آل عمران: ١-٣] **(المص كتاب أنزل إليك)** [الأعراف: ١-٢] **(المر تلك آيات الكتاب)** [الرعد : ١] . وهكذا إلى آخره ، ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها وأنزلها على رسله وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده وعرفهم بها الخير والشر والحسن والقبيح وأقدرهم على التكلم بها بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة وأوصله إلى المقصود وأدله عليه ، وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته ؛ ولهذا عاب سبحانه على من عبد إلهاً لا يتكلم ، وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم ، فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته وكمال إحسانه وإنعامه . فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار والشمس والقمر والسماء والنجوم وغيرها من المخلوقات فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه وصدق رسله ، وقد جمع سبحانه بين الأمرين أعني : القرآن ونطق

اللسان ، وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه كما قال : (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) فبهذه الحروف علم القرآن وبها علم البيان ، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان ، وبها أنزل كتبه ، وبها أرسل رسله ، وبها جمعت العلوم وحفظت ، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وبها يتميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، وبها جمعت أشتات العلوم ، وبها أمكن تنقلها في الأذهان ؛ وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة ، وأقيلت بها من عثرة ، وأقيمت بها من حرمة ، وهدي بها من ضلالة ، وأقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل ؟ فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان . ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب . فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة ، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق ، ووسطه ، وآخره ، وأعلاه ، وأسفله ، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا ، وفي الشفتين ، والخيشوم فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له . فإذا هو حرف .

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني ، أمراً ونهياً وخبراً ، واستخباراً ونفياً ، وإثباتاً ، وإقراراً وإنكاراً وتصديقاً ، وتكذيباً . وإيجاباً واستحباباً ، وسؤالا ، وجواباً ، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب ، نظمه ونثره ، ووجيزه ومطوله ، على اختلاف لغات الخلائق كل ذلك صنعته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره ، في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله ، ثم تأليفه وتوصيله ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين . فهذا شأن الحرف المخلوق .

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشأنه أعلى وأجل . وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور . كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية . فهي دالة على كمال قدرته سبحانه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال رحمته ، وعنايته بخلقه ، ولطفه وإحسانه . وإذا أعطيت الاستدلال

بها حقه استدللت بها على المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر والتوحيد والرسالة ، فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . وأن القرآن كلام الله . تكلم به حقاً وأنزله على رسوله وحياً وبلغه كما أوحي إليه صدقاً ، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف ، واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها وبالله التوفيق .

فصـــل

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿ **القلم وما يسطرون** ﴾ [القلم : ١] فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه وكتب به الوحي ، وقيد به الدين ، وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم ، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد ، فوطدت به الممالك ، وأمنت به السبل والمسالك ، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه ، وأنفعه لهم وأنصحه . وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم ، وطبيباً يبرىء بإذنه من أنواع الألم : يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد ، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك . والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع فنسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم . ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم ، والأقلام نظام للأفهام ، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان ، وتولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم ، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت .

فصـــل

والأقلام متفاوتة في الرتب ، فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق . كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : يارب ، وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة »[1] واختلف العلماء ، هل القلم أول المخلوقات أو العرش ؟ على **قولين ، ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني ، أصحهما أن العرش قبل القلم لما** ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن **عمرو قال** : قال رسول الله صلى الله عليه سلم « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام ، وعرشه على الماء »[2] فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش ، والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا .

ولا يخلو قوله : « إن أول ما خلق الله القلم » إلى آخره إما أن يكون جملة أو جملتين . فإن كان جملة – وهو الصحيح – كان معناه أنه عند أول خلقه قال له : اكتب كما في لفظ « أول ما خلق الله القلم قال له اكتب » بنصب أول ، والقلم . فإن كانا جملتين وهو مروي برفع أول والقلم ، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان ، إذ حديث عبد الله بن**عمرو صريح** في أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم . وفي اللفظ الآخر « لما خلق الله القلم قال له اكتب » .

فهذا القلم أول الأقلام ، وأفضلها ، وأجلها ، وقد قال غير واحد من أهل التفسير إنه القلم الذي أقسم الله به .

---

(١) أبو داود (الصحيح) (٣ / ٨٩٠) في السنة ، باب : في القدر .
ورواه الإمام أحمد (٥ / ٣١٧) .
والترمذي (الصحيح) (٢ / ٢٢٨) في القدر .
وانظر السنة لابن أبي عاصم (١ / ٤٨) والأوائل له، حديث رقم (١) .

(٢) صحيح مسلم (٥ / ٥٠٩) في القدر ، باب : تصريف الله القلوب كيف يشاء .
ووقع في المطبوع من « التبيان » « عبد الله بن عمر » والصواب المثبت هنا .
ورواه الإمام أحمد (٢ / ١٦٩) دون قوله « وعرشه على الماء » .
والترمذي (الصحيح) (٢ / ٢٢٩) في القدر ، حديث رقم (١٧٥٠) .

فصـــل

القلم الثاني : قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله ، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم ، والعالم خدم لهم ، وإليهم الحل والعقد ، والأقلام كلها خدم لأقلامهم وقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم **ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام : فهذه الأقلام هي التي** تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي .

فصـــل

والقلم الثالث : قلم التوقيع عن الله ورسوله ، وهو قلم الفقهاء والمفتين ، وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه . فإليه التحاكم في الدماء والأموال ، والفروج ، والحقوق ، وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده ، وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام ، وأقلام العالم خدم لهذا القلم .

فصـــل

القلم الرابع : قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة ، وترد إليها صحتها المفقودة ، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها ، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان . وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة .

فصـــل

القلم الخامس : التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وسياس الملك ، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام ، والمشاركون للملوك في تدبير الدول . فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة ، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة ، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم .

فصـــل

القلم السادس : قلم الحساب ، وهو القلم الذي تضبط به الأموال ، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها ، وهو قلم الأرزاق ، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل . الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب . ومبناه على الصدق والعدل فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة .

فصـــل

القلم السابع : قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق ، وتنفد به القضايا ، وتراق به الدماء ، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص ، فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته ، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه .

فصـــل

القلم الثامن : قلم الشهادة ، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق ، وتصان

عن الإضاعة ، وتحول بين الفاجر وإنكاره ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحق بحقه ، وعلى المبطل بباطله ، وهو الأمين على الدماء ، والفروج ، والأموال ، والأنساب ، والحقوق ، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد ، وباستقامته يستقيم أمر العالم . ومبناه على العلم وعدم الكتمان .

فصـــل

القلم التاسع : قلم التعبير ، وهو كاتب وحي المنام ، وتفسيره ، وتعبيره ، وما أريد منه . وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي ، كاشف له ، وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين ، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته ، وأمانته ، وتحريه للصدق ، والطرائق الحميدة ، والمناهج السديدة ، مع علم راسخ ، وصفاء باطن ، وحس مؤيد بالنور الإلهي ، ومعرفة بأحوال الخلق وهيآتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام ، وأعمها جولاناً ، وأوسعها تصرفا ، وأشدها تشبثاً بسائر الموجودات : علويها وسفليها ، وبالماضي والحال والمستقبل ، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه .

فصـــل

القلم العاشر : قلم تواريخ العالم ووقائعه ، وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن ، فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال ، وينقشه في النفس ، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده . فهو قلم المعاد الروحاني ، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك ، وتشاهده ببصيرتك .

فصـــل

القلم الحادي عشر : قلم اللغة ، وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها

ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها ، وأنواع دلالتها على المعاني ، وكيفية الدلالة . وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها ، وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها .

فصــل

القلم الثاني عشر : القلم الجامع ، وهو قلم الرد على المبطلين ، ورفع سنة المحقين ، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وبيان تناقضهم ، وتهافتهم ، وخروجهم عن الحق ، ودخولهم في الباطل ، وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام ، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل ، المحاربون لأعدائهم ، وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال . وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل ، وعدو لكل مخالف للرسل ، فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن .

فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم ، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به ، وأن الله سبحانه أقسم به في كتابه ، وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم ، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا صلى الله عليه وسلم بواسطة القلم ، ولقد أبدع أبو تمام ، إذ يقول في وصفه :

لك القلم الأعلى الذي بشباته ... يصاب من الأمر الكلى والمفاصل
له ريقه طل ، ولكن وقعها ... بآثاره في الغرب والشرق وابل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأري الجنا اشتارته أيد عواسل
له الخلوات اللاء لولا نجيها ... لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل

أطاعته أطراف القنا ، وتقـوضت		لنجواه – تقويض الخيام – الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت		أعاليه في القرطاس وهي أسافـل
وقـد رفدتـه الخنصران وسددت		ثـلاث نواحيـه الثـلاث الأنامـل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهـف		ضنا وسمينا خطبه وهو ناحـل

فصــل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ [القلم : ٢] وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالا عليه أظهر دلالة وأبينها ، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا من عقل وافر فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم ؟ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها ، ولا سيما من أمي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه ، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة ، سليما من الاختلاف ، بريأ من التناقض ، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله . ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم ، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه ، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك ؟ .

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة ، ولو أن رجلاً أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر ، متساوية الأجزاء يصدق بعضها بعضاً ، أو قال قصيدة كذلك ، أو صنف كتاباً كذلك ، لشهد له العقلاء بالعقل ، ولما استجاز أحد رميه بالجنون مع إمكان – بل وقوع – معارضتها ومشاكلتها والإتيان بمثلها أو أحسن منها ، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ، وعرفهم من الحق مالا تهتدي عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء ، وخضعت له ألباب الأولياء ،

وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان . طائعة مختارة وهي ترى عقولها أشد فقراً وحاجة إلى ما جاء به ولا كمال لها إلا بما جاء به ؟ . فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي ، ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق ، وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها ، ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب بالإيمان والتقوى ، فكيف يكون متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه وهديه ، وسيرته وحال أتباعه ؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم ، فنفى عنه الجنون بنعمته عليه .

وقد اختلف في تقدير الآية ، فقالت فرقة : الباء في ﴿ **بنعمة ربك** ﴾ باء القسم ، فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه ، كما يقول : ما أنت بالله بكاذب ، وهذا التقدير ضعيف جداً ؛ لأنه قد تقدم القسم الأول ، فكيف يقع القسم الثاني في جوابه ؟ ولا يحسن أن تقول : والله ما أنت بالله بقائم ، وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد في كلامهم وقالت فرقة : العامل في ﴿ **بنعمة ربك** ﴾ أداة معنى النفي ، أو معنى **أنفي** عنك الجنون بنعمة ربك ، ورد أبو عمر بن الحاجب وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها ، وإنما تعمل ألفاظها ، وقال الزمخشري[1]: يتعلق ﴿ **بنعمة ربك بمجنون** ﴾ منفياً كما يتعلق بعاقل مثبتاً ، في قولك : أنت بنعمة الله عاقل يستويان في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك ضرب زيد عمراً ، وما ضرب زيد عمراً ، يعمل الفعل مثبتاً ومنفياً إعمالاً واحداً ، ومحله النصب على الحال ، أي : ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك ، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ، لأنها زائدة لتأكيد النفي .

واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط على محكوم به وله معمول فإنه يجوز فيه وجهان :

أحدهما : نفي ذلك المعمول فقط ، نحو قولك : ما زيد بذاهب مسرعا ، فإنه ينتفي الإسراع دون القيام ، ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب في غير إسراع .

(١) تفسير الزمخشري (٤ / ١٢٦) .

والثاني : ينفي المحكوم به ، فينتفي معموله بانتفائه ، فينتفي الذهاب في هذه الحال ، فينتفي الإسراع بانتفائه ، فإذا جعل ﴿ **بنعمة ربك** ﴾ معمولا لمجنون لزم أحد الأمرين . وكلاهما منتف جزماً .

وهذا الاعتراض هنا فاسد ؛ لأن المعنى : إذا حصل ما أنت بمجنون منعما عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعاً ، ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل في هذا الكلام ، ولا يفهم منه من له آلة الفهم ، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك ، وانتفى عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا ، ثم أخبر سبحانه عن كمال حالتي نبيه صلى الله عليه وسلم في دنياه وأخراه فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم : ٣] أي : غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر ، ونكر الأجر تنكير تعظيم ، كما قال : (إن في ذلك لعبرة) و (إن في ذلك لآية) و (إن في ذلك لذكرى) و (إن للمتقين مفازاً) و (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وهو كثير ، وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ، ولا يناله التعبير ، ثم قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته ، لمن منحه الله فهماً ، ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه صلى الله عليه وسلم ، فأجابت بما شفى وكفى ، فقالت : كان خلقه القرآن[1]، فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئاً بعد ذلك ، ومن هذا قال ابن عباس وغيره : أي : على دين عظيم ، وسمي الدين خلقاً ، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة ، وإرادات زاكية ، وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة ، والمصلحة ، وأقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات ، فتكتسب النفس بها أخلاقا ، هي أزكى الأخلاق وأشرفها ، وأفضلها ، فهذه كانت أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم المقتبسة من مشكاة القرآن ، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلا له ، وتبييناً ، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله

(١) رواه مسلم (٢ / ٣٩٦) في صلاة المسافرين، باب : صلاة الليل والوتر ، من حديث « سعد بن هشام بن عامر » .

وكذا أبو داود (الصحيح) (١ / ٢٤٩) في الصلاة ، باب : في صلاة الليل .

ما أوجبه وندب إليه القرآن ، وإعراضه وتركه لما منع من القران ، ورغبته فيما رغب فيه ، وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبته لما أحبه ، وسعيه في تنفيذ أوامره ، وتبليغه ، والجهاد في إقامته ، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : كان خلقه القرآن ، وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى ، فاكتفى به واشتفى .

فإذا كانت أخلاق العباد ، وعلومهم ، وإراداتهم ، وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون ، وكان في خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم إذ وصلوا به إلى ذلك ، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق ، وأفضل العلوم ، والأعمال ، والإرادات ، التي لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة ؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته ؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون ، هو أم هم ؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا ، ويزداد علمهم في البرزخ ، وينكشف ، ويظهر كل الظهور في الآخرة ، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به .

وقد اختلف في تقدير قوله : ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ [القلم : ٦] فقال أبو عثمان المازني : هو كلام مستأنف ، والمفتون عنده مصدر ، أي : بأيكم الفتنة ، والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعاً ، فتعين حصوله للآخر ، والجمهور على خلاف هذا التقدير ، وهو عندهم متصل بما قبله ، ثم لهم فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن الباء زائدة ، والمعنى : أيكم المفتون . وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك : بحسبك أن تفعل . قاله أبو عبيد .

الثاني : أن المفتون بمعنى الفتنة ، أي : ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة . والباء على هذا ليست بزائدة . قاله الأخفش .

الثالث : أن المفتون مفعول على بابه ، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره : بأيكم فتون المفتون ، وليست الباء زائدة . قاله الأخفش أيضاً .

الرابع: أن الباء بمعنى: في، والتقدير: في أي فريق منكم النوع المفتون، والباء على هذا ظرفية. وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه، و ﴿ ستبصر ﴾ مضمن معنى تشعر وتعلم، فعدى بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به، قال تعالى: (ألم يعلم بأن الله يرى) [العلق: ١٤] وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد[١].

وقال رحمه الله تعالى:

قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [القلم: ٤] قال ابن عباس ومجاهد: لعلى دين عظيم لا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام، وقال الحسن رضي الله عنه: هو آداب القرآن، وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله وينهى عنه من نهي الله، والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن. وفي الصحيحين: أن هشام بن حكيم سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن فقال: « لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً »[٢][٣].

قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ [القلم: ٥، ٦].

فقيل: الباء زائدة وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور، والصواب أن يبصر مضمن يشعر ويعلم[٤].

أن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم مما بلاهم به في سورة [ن: ١٧ - ٣٣] وهم قوم كان للمساكين حق في أموالهم إذا وجدوا نهاراً بأن يلتقط المساكين ما يتساقط من الثمر فأرادوا أن يجذوا ليلاً ليسقط ذلك الحق، ولئلا يأتيهم مسكين، وأنه عاقبهم بأنه أرسل على جنتهم طائفاً وهم نائمون فأصبحت كالصريم، وذلك لما تحيلوا على إسقاط نصيب المساكين بأن يصرموها

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٠٦ -٢١٩).
(٢) انظر الحديث السابق.
(٣) مدارج السالكين (٢/٣٠٤).
(٤) روضة المحبين (٥٢).

مصبحين قبل مجيء المساكين ، فكان في ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده[1].

قال الله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : ٣٥ – ٣٦] فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار ؛ لينبه العقول على أن هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة[2].

قال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم : ٤٨] وههنا سؤال نافع وهو أن يقال : ما العامل في الظرف وهو قوله : ﴿ إذ نادى ﴾ ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه إذ يصير المعنى : لا تكن مثله في ندائه وقد أثنى الله سبحانه عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه به فقال : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) [الأنبياء : ٨٧ – ٨٨] وفي الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين »[3]، فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء **الذي نادى به ربه، وإنما نهى عن التشبه به في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناداة،** وهي مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم ، والكظيم والكاظم : الذي قد امتلأ غيظاً وغضباً وهما وحزناً ، وكظم عليه فلم يخرجه ، فإن قيل : وعلى ذلك فما العامل في الظرف ؟ قيل : ما في صاحب الحوت من معنى الفعل ، فإن قيل فالسؤال بعد قائم فإنه إذا قيد المنهي بقيد أو زمن كان داخلاً في حيز النهي ، فإن كان المعنى : لا تكن مثل صاحب الحوت في هذه الحال أو هذا الوقت كان نهياً عن تلك الحالة ، قيل :

---

(١) إغاثة اللهفان (١/٣٤٢ -٣٤٣) .

(٢) طريق الهجرتين (٩٧) .

(٣) حديث صحيح ، مر في سورة الأنبياء رقم (٢) (٣ / ١٩٠) .

لما كان نداؤه مسبباً عن كونه صاحب الحوت فنهى أن يتشبه به في الحال التي أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء وهي ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى ، و لم يقل تعالى : ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت فنادى بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها في الموضع الآخر ، واكتفى بغايتها وما انتهت إليه ، فإن قيل : فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهي عنه أي : لا تكن مثله في ندائه وهو ممتلىء غيظاً وهماً وغماً بل يكون نداؤك نداء راض بما قضى عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظيم ؟ قيل هذا المعنى وإنْ كان صحيحاً إلا أن النهي لم يقع عن التشبه به في مجرده ، وإنما نهى عن التشبه به في الحال التي حملته على ذهابه مغاضباً حتى سجن في بطن الحوت ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **فاصبر لحكم ربك** ﴾ ثم قال : ﴿ **ولا تكن كصاحب الحوت** ﴾ أي : في ضعف صبره لحكم ربه فإن الحالة التي نهي عنها هي ضد الحالة التي أمر بها فإن قيل : فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكوني القدري الذي يقدره عليه ولا تكن كصاحب الحوت حيث لم يصبر عليه بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته ؟ قيل : منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر وقد أثنى عليه سبحانه بذلك في قوله : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) [الأنبياء :٨٧ - ٨٨] فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثني عليه ويمدحه به ، وكذلك أثنى على أيوب بقوله : (مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) [الأنبياء : ٨٣] وعلى يعقوب بقوله : (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) [يوسف : ٨٦] وعلى موسى بقوله : (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) [القصص : ٢٤] وقد شكا إليه خاتم سله بقوله : « اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي » .

فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل ؛ بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر ، والله تعالى يبتلي

عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه ، وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى : (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) [المؤمنون : ٧٦] والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه ؛ بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه ، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ، ويحب من يشكو ما به إليه ، وقيل لبعضهم : كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه فقال : ربي يرضى ذل العبد إليه .
والمقصود : أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختياراً ، وهذا أكمل الصبر ؛ ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1] .

* * *

(١) عدة الصابرين (٣٤ - ٣٦) .


الفهـــرس



□ الفهرس الموضوعي للمجلد الرابع □

سورة الصافات

سورة صٓ

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمد ﷺ

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة قٓ

سورة الذاريات

سورة الطور

سورة النجم

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الحشر

سورة الممتحنة

سورة الصف

سورة الجمعة

سورة المنافقون

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة القلم

تحت الطبع. بمعونة الله تعالى

جامع بيان العلم وفضله

وما ينبغي في روايته وحمله

تأليف

أبي عمر يوسف بن عبد البر

المتوفى سنة ٤٦٣ هـ

تحقيق

أبي الأشبال الزهيري

دار ابن الجوزي

تحت الطبع بمعونة الله تعالى

تفسير القرآن العظيم

للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير
رحمه الله تعالى
« ٧٠١ - ٧٧٤ هـ »

تحقيق
أبي إسحق الحويني

دار ابن الجوزي

تحت الطبع . بمعونة الله تعالى

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني

« المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ »

تحقيق

أبي إسحق الحويني

دار ابن الجوزي

تحت الطبع بمعونة الله تعالى

الفقيه والمتفقه

للإمام أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي
« ٣٩٢ - ٤٦٣ هـ »
رحمه الله تعالى

تحقيق
عادل بن يوسف العزازي

دار ابن الجوزي

طبع بإشراف
دار الصحابة
للطباعة والنشر
ص.ب ١٣/٦٠٠٥ شوران
بيروت - لبنان

